الإيمان أولاً...

فكيف نبدأ به؟!

طبعة مزيدة ومنقحة

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّر وأعن يا كريم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فتمر الأيام وتمضي السنون، ويزداد ارتفاع رايات المادية وانكفاء الناس على الدنيا، وركضهم نحوها يلتمسون السعادة والهناء، إلا أن الواقع المشاهد يُخبر بأنهم لم يجنوا من وراء ذلك سوى مزيدٍ من الوحشة والقلق والاضطراب الداخلي، وإن أردت دليلا على ذلك فاذهب إلى عيادات الطب النفسي واستمع إلى شكاوى روادها، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وكيف لا؟ والذي خلقنا أخبرنا بأن الطريق الوحيد لتحصيل السعادة والطمأنينة والحياة الطيبة إنما يكون بالتزام منهجه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

لقد أخذ الله جل شأنه من جميع البشر العهد على الالتزام بما أقروا له به في يوم الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

واستقر هذا العهد في ذواتهم على هيئة فطرة حنيفية مرتكزة داخلهم منذ خروجهم إلى الحياة على الأرض .. جاء في الحديث القدسي أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»(١).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٧ برقم: ٢٨٦٥).

والمقصود بالحنيفية أي الميل نحو الحق والاستقامة، ونحو توحيد الله والإقرار له بالربوبية ... ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣١].

والتي عبَّر عنها نبي الله إبراهيم الطَّيْلاً: ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وكلما حافظ المرء على الحنيفية؛ انسجم مع فطرته وعاش حياة طيبة، وكلما ابتعد عنها كانت الوحشة والضيق والقلق بقدر هذا الابتعاد، لأننا ما خُلقنا إلا لنكون عبيدا لله عز وجل، وما كانت هيئتنا وتكويننا بهذه الصورة إلا لننجح في اختبار عبادته سبحانه بالغيب والقيام بواجبات العبودية له ..، وما سُخِّرت لنا الأرض، وما ضُمِن لنا الرزق إلا ليكون جُلّ اهتمامنا السعي للقيام بما خُلِقنا من أجله ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٧].

.. من هنا كان الحل الأكيد لإنقاذ أنفسنا والبشرية جمعاء من درك الشقاء والاضطراب والعذاب الداخلي يكمن في العودة إلى الفطرة الحنيفية والتجلبب بجلباب العبودية لله عز وجل..

وستظل نقطة البداية للخروج من هذا التيه هي: الإيمان .. «الإيمان أولا»، وكلما زاد الإيمان في القلب تحسنت أحواله وانتقل من المرض إلى الصحة، وانعكس ذلك على علاقته بربه، وازداد تعلقه به، ومن ثم اقترب من تحقيق الحنيفية ومعها الأمن والطمأنينة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد مرت أعوام وأعوام على صدور هذا الكتاب في طبعته الأولى بفضل الله، حدثت فيها أحداث جسام لكنها لم تغير تلك الحقيقة بأن «الإيمان أولا»؛ بل أكدتها وزادتها رسوخا ووضوحا..، ويبقى أن يراها الناس واقعا ملموسا، وراية مرفوعة تهدي الحيارى، وترشد الضالين إلى ربهم؛ لتنتقل الأمة – بإذن الله – من المرض إلى الصحة، ومن الظلمات إلى النور، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٥١].

.. وبين يديك أخي القارئ – بفضل الله – الطبعة الثانية من كتاب «الإيمان

أولا»، وقد أُضيف إليه العديد من الزيادات والتعديلات .. من أهمها إضافة فصل جديد عن «تعظيم أمر الصلاة بإدراك حقيقتها والسعي لإقامتها» وكذلك إعادة ترتيب فصول الباب الثاني .. وغير ذلك من الأمور التي نظن أنها تساعد بإذن الله على تحقيق الهدف الذي يرمي هذا الكتاب لتحقيقه.. والله أعلم..

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين..

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالىٰ من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم، وبعد...

فما من مسلم في قلبه إيمان بالله واليوم الآخر إلا تأتي عليه لحظات يتحسر فيها علىٰ حاله، ويتملكه شعورٌ بالخوف من لقاء الله عز وجل علىٰ ما هو عليه من غفلة وتقصير في جنبه سبحانه.

فالقلوب التي دخلها الإيمان مهما بلغت قسوتها إلا أن فيها حنيناً إلىٰ الله تعالىٰ، وشوقاً إلىٰ الاتصال به، والسير إليه، إلا أن أصحابها لا يستطيعون تجريدها من حب الدنيا وربطها بالآخرة، وكثيراً ما يتساءلون: كيف يكونون ربانيين وهم بين أزواجهم، وأولادهم، وفي أعمالهم .. دون أن يعتزلوا الناس وينقطعوا للعبادة؟!

وقبل أن يشرد الذهن، ويسرح الخيال، ونظن أن تحقيق هذه المعادلة من الصعوبة بمكان، علينا أن نتذكر أن جيل الصحابة – وهم خير أجيال أمة محمد ﷺ – قد استطاع أن يحقق هذه المعادلة، ويُحدث التوازن المطلوب بين حاجات الروح ومتطلبات الجسد.

وَتَذَكُّرُنا لجيل الصحابة ليس من باب التأكد من إمكانية تحقيق هذا التوازن فحسب؛ ولكن أيضاً من باب أنه لا ينصلح حال آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فإذا ما نظرنا إلىٰ سيرة هذا الجيل الفريد فإننا سنجد أنفسنا أمام عدة ملاحظات.. منها:

- أنهم لم يكونوا أكثر صلاةً ولا صياماً ممن جاءوا من بعدهم.

قال بعض السلف: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره»[1].

---

(١) المحجة في سير الدلجة لابن رجب (ص: ٥٣).

وقال ابن مسعود ﷺ لأصحابه: «أنتم أكثر صلاة وأكثر صياما من أصحاب محمد ﷺ، وهم كانوا خيرا منكم» قالوا: وبم؟ قال: «كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب منكم في الآخرة»[1].

«يشير إلى أن الصحابة ﷺ فاقوا من بعدهم بشدة تعلق قلوبهم بالآخرة ورغبتهم فيها، وإعراضهم عن الدنيا بتحقيرها وتصغيرها – وإن كانت في أيديهم – فكانت قلوبهم منها فارغة وبالآخرة ممتلئة»[2].

- ومن هذه الملاحظات: أنهم لم يتركوا الدنيا، ولم ينقطعوا للعبادة ويعتزلوا الناس، بل كانوا يمارسون حياتهم بصورة طبيعية، فيأكلون من الطيبات ولا يُحَرِّمون على أنفسهم منها شيئا، ويتزوجون ويضحكون ويتسامرون، ويلاعبون أولادهم وأزواجهم... يبيعون ويشترون ويتملكون...
- ومنها أيضا: أنهم حققوا التوازن في حياتهم بصورة لا مثيل لها، فهم بالليل رهبان، وبالنهار فرسان... في مجال العلم علماء، وفي ساحة الجهاد مجاهدون، وفي المحاريب راكعون ساجدون... يُعَلِّمون الجاهل، ويسعون في قضاء حاجة المحتاج، ويسارعون في نجدة الملهوف... خير الأزواج لأزواجهم، والآباء لأبنائهم، والجيران لجيرانهم... ظرفاء لطفاء، لا يمل أحد من الحديث معهم.

عاشروا الناس بأبدانهم، وعاملوا الله بقلوبهم...

فكيف وصلوا إلى هذا المستوى؟!

لقد كان المنهج الرباني في تربية هؤلاء الأخيار يُرَكِّز على ربط قلوبهم بالله، فلم تُحَرَّم الخمر إلا في المدينة، ولم يفرض الصوم إلا في السنة الثانية من الهجرة، بل إن الصلوات الخمس فرضت في رحلة الإسراء والمعراج.

هذا، في حين أن قيام الليل قد فُرِض في بداية الدعوة!

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٠ برقم: ٧٨٨٠).

(٢) المحجة في سير الدلجة لابن رجب (ص: ٥٤، ٥٥).

إنه أمر ينبغي أن نتوقف عنده طويلاً، فقيام الليل عبادة شاقة بالصورة التي فُرِض بها في البداية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١ – ٤].

قال سعد بن هشام بن عامر لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: «ألست تقرأ يا أيها المزمل؟» قلت: بلى، قالت: «فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة»(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها وكان بين أولها وآخرها سنة»(٢).

فلماذا كان قيام الليل قبل بقية التكليفات؟!

يقول تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

فصلاة الليل والناس نيام، وترتيل القرآن وتدبره، وطول الركوع والسجود ومناجاة الله وتمجيده... من شأنه أن يزيل الحُجُب التي تُحيط بالقلب، ويفتح الطريق المسدود بينه وبين خالقه، فيحدث الوصال والقرب والارتباط.

فإذا ما اتصلت القلوب بالله، وذاقت حلاوة معرفته؛ فإن تغيير الظاهر يتم بعد ذلك بسهولةٍ ويسر وبأدنى مجهود، كما حدث في تحريم الخمر بقوله سبحانه: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال الصحابة: «انتهينا ربَّنا»(٣)، فامتلأت طرقات المدينة به،

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥١٢، ٥١٣ برقم: ٧٤٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٦ برقم: ٣٥٩٤٢)، وأبو داود (٢/ ٤٧٥ برقم: ١٣٠٥) والحاكم (٢/ ٥٤٨ برقم: ٣٨٦٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه (١٤/ ٢٦٧ برقم: ٨٦٢٠)، وحسنه الأرنؤوط.

عندما سارع الصحابة ﷺ فور سماعهم للآية بسكب كل ما في آنيتهم من الخمر[1].

ومع قيام الليل كان للقرآن تأثيرٌ مزلزلٌ في قلوبهم؛ وكانوا يتلقونه للتنفيذ الفوري، ولإعادة صياغة حياتهم بناءً على أوامره.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»[2].

ومع المنهج الرباني المتدرج في تربية الصحابة — الذي كان من أهم سماته العمل على ربط القلوب بالله، وتهيئتها لتلقي نور الهداية الربانية المتمثلة في القرآن الكريم — كان رسول الله ﷺ يحرص في تربيته لهم على صلاح قلوبهم قبل صلاح جوارحهم؛ فكان كثيراً ما يُوجِّهُهم إلى هذا الاتجاه، فيقول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[3].

ويقول رسول الله ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[4].

فبداية الإصلاح إذن إنما تكون بربط القلوب بالله، وغرس الإيمان فيها؛ ليصبح هو الدافع لجميع الأعمال.

لابد من أن نبدأ بالإيمان، ونعمل على تمكينه في القلوب، ليصبح إيماناً عميقاً ضارباً بجذوره في جنبات القلب، فيحرق الشبهات والشهوات، ويُبدد الحُجُب

---

(١) روى البخاري (٣/ ١٣٢ برقم: ٢٤٦٤) ومسلم (٣/ ١٥٧٠ برقم: ١٩٨٠) عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد ينادي، فقال: اخرج فانظر، فخرجت، فإذا مناد ينادي: «ألا إن الخمر قد حرمت»، قال: فجرت في سكك المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج فاهرقها، فهرقتها».

(٢) الطبري في مقدمة التفسير (١/ ٨٠).

(٣) رواه البخاري (١/ ٦ برقم: ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥ برقم: ١٩٠٧).

(٤) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

والظلمات.

وعندما ينصلح القلب، وتدب الحياة فيه؛ تنصلح الجوارح تبعاً له دون تكلف ولا مجهود.

فالتربية الإيمانية لابد أن تسبق غيرها من جوانب التربية الأخرىٰ.

قد يقول قائل: إننا جميعاً متفقون علىٰ أن التربية الإيمانية لابد أن تسبق غيرها، ولكننا لا نعرف بوضوح خطواتها العملية التي من شأنها أن تربط القلب بالله، وتجعل صاحبها من الربانيين.

نعم، هناك الكثير من التوجيهات والتوصيات لكنها لا تشكل منهجاً متكاملاً لهذه التربية، ولقد وُفِّقَ الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "مدارج السالكين" في شرح منازل السائرين إلىٰ الله، وبيان أحوالهم ومقاماتهم، والعقبات التي يمكن أن تقابلهم وكيف يتخطونها، وردَّ فيه علىٰ جميع من خالف هدي رسول الله ﷺ في تزكيته وإصلاحه للقلوب وبدأ رحمه الله المنازل بمنزلة اليقظة، واعتبرها مفتاحاً لجميع المنازل الأخرىٰ، وبدونها لا يكون هناك سير، ثم استكمل الحديث عن بقية المنازل دون أن يذكر الكيفية التي بها تتم تلك اليقظة، وإن كان قد أشار إلىٰ ذلك إشارات سريعة في مواضع مختلفة بالكتاب.

وهذه النقطة من النقاط المحورية في التربية الإيمانية، التي بدونها يستمر القلب في رقدته وغفلته؛ فبداية تلك التربية هي إيقاظ الإيمان في القلب، ولا يمكن الانتقال إلىٰ الخطوات التي تليها دون القيام بها وتحقيق المستهدف منها؛ فبدونها يصبح الحديث عن بقية المنازل – من توبة، وإخلاص، وصبر، وشكر، وتعظيم، وإنابة،... وغير ذلك من المنازل – من قبيل الإمتاع العقلي، والله أعلم.

لذلك لا يخطئ من يقول: إن إيقاظ القلب من رقدته، وعودة الحياة إليه لمن أهم محاور التربية الإيمانية، وبدون تلك اليقظة لا تصل هذه التربية إلىٰ مستهدفها.

وهذا الكتاب محاولة لبيان أهم معالم تلك التربية، خاصة الجزء المتعلق بإيقاظ الإيمان وعودة الحياة إلىٰ القلوب.

وهو مقسم إلى تمهيد وبابين:

- التمهيد بعنوان: حول مستهدف التربية الإيمانية في مرحلتها الأولى.
- والباب الأول بعنوان: لماذا الإيمان أولاً؟

ويندرج تحته أربعة فصول وهي على الترتيب:

- ▪ دوافع الأعمال.
- ▪ حقيقة الإيمان.
- ▪ عندما يضعف الإيمان.
- ▪ إصلاح الإيمان أولاً.

- أما الباب الثاني فعنوانه: كيف نبدأ بالإيمان؟

وفيه تمهيد حول شروط البداية، وعشرة فصول، كل فصل منها يتناول وسيلة من وسائل إيقاظ القلب، وهي على الترتيب:

- ▪ شدة الخوف من الله.
- ▪ حُسن التعامل مع القرآن.
- ▪ تعظيم أمر الصلاة بإدراك حقيقتها والاجتهاد في إقامتها.
- ▪ الفكر والذكر.
- ▪ مداومة الإنفاق في سبيل الله.
- ▪ قيام الليل والتهجد بالأسحار.
- ▪ الصيام.
- ▪ التعلق بالمساجد.
- ▪ الاستفادة من مواسم الخيرات.
- ▪ الصحبة الصالحة.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم

والحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

تمهيد
حول المستهدف من التربية الإيمانية في مرحلتها الأولى

ما الذي يمنع القلوب من الاتصال بالله؟! وما الذي يحول بينها وبين معرفته؟! مع أنه سبحانه وتعالى قريب غير بعيد، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فما سبب البعد والانقطاع والوحشة التي نشعر بها في علاقتنا مع ربنا؟!

يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

إن الران المحيط بالقلوب هو الذي يُغلق الطريق بيننا وبينه سبحانه وتعالى.

وحجم الجهد المطلوب لفتح الطرق المغلقة بين القلوب وخالقها، يختلف من شخص لآخر، حسب سُمك ما يحيط بقلبه من أغلفة وظلمات.

فالقلب الحي يمكن أن نشبهه بالكنز المدفون في باطن الأرض والذي يختلف مكانه من شخص لآخر، فقد يجده البعض على مقربة منه، وقد يحتاج البعض الآخر إلى جهد أكبر ووقت أطول للوصول إليه.

علامات الوصول:

وقد يسأل سائل: كيف يعرف الواحد منا أنه قد وصل إلى كنزه وأن الطريق المسدود قد تم فتحه؟!

أجاب القرآن على هذا التساؤل في عدة مواضع وبيَّن العلامات التي يستدل الشخص بها على عودة الحياة إلى قلبه.

منها قول الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ

﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فقالوا: يا رسول الله وما هذا الشرح؟ قال: «نور يُقذَفُ به في القلب فينفسح له القلب»، قال: فقيل: فهل لذلك من أمارة يُعرَف بها؟ قال: «نعم»، قيل: وما هي؟ قال: «الإنابة إلىٰ دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»[1].

ومن هذه العلامات: وجل القلوب عند ذكر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

فوجل القلوب عند ذكر الله من علامات عودة الحياة إليها، وتمكنها منها، والوجل هو الخوف والاضطراب والفزع، وزيادة خفقان القلب وسرعة ضرباته.

قالت أم الدرداء رضي الله عنها: «إنما الوجل في قلب ابن آدم كاحتراق السعفة»[2].

خشوع القلب:

ومن هذه العلامات أيضا: خشوع القلب عند ذكر الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وخشوع القلب هو: خضوعه، وهبوطه، وذلته، وانكساره.

يقول ابن القيم: والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون، قال الله تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت: ٣٩][3].

ومنها: حضور القلب في الذكر والصلاة، وحصول المواطأة بينه وبين اللسان.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٧٧ برقم: ٣٤٣١٥) والبيهقي في الزهد (ص: ٣٥٦ برقم: ٩٧٤).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٨٢ برقم: ١٠٩٨).
(٣) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢٧٥).

ومنها: أن صاحب هذا القلب يجده حاضراً معه عندما يريده ويستدعيه، وهذا ليس قاصراً على الصلاة، وقراءة القرآن، والذكر، والدعاء... وحسب، بل متى أراده وجده معه نابضاً خاشعاً رقيقاً وجلاً...

ومنها: زيادة خشوع القلب بعد كل عبادة كان فيها حاضراً، كما قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

حلاوة الإيمان:

ومن علامات القلب الحي: تذوق صاحبه طعم حلاوة الإيمان، وهي حلاوة لم يشعر بمثلها في حياته، يقول رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذَف في النار»[١].

يقول الحسن البصري: «تفقدوا الحلاوة في ثلاث: في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، فإن لم تجدوها فاعلم أن بابك مغلق»[٢].

ومن هذه العلامات أيضا: شعور صاحبه بالقرب الحقيقي من الله عز وجل، ويظهر ذلك في دعائه ومناجاته... ويزداد هذا القرب يوماً بعد يوم، حتى يصل إلى درجة الأنس به سبحانه، والتلذذ بمناجاته، وترقب أوقات الخلوة به.

يقول ابن القيم: اعلم أن القلب إذا خلا من الاهتمام بالدنيا، والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة، وتعلَّقَ بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العُدَّة، والتأهب للقدوم على الله عز وجل، فذلك أول فُتوحه، وتباشير فَجره، فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه فيفعله ويتقرب به إليه، وما يسخطه فيجتنبه، وهذا عنوان صدق إرادته...

فإذا تمكن من ذلك فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ

(١) رواه البخاري (١/ ١٢ برقم: ١٦)، ومسلم (١/ ٦٦ برقم: ٤٣) واللفظ له.
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٧١).

فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك؛ فإنها تجمع عليه قوىٰ قلبه وإرادته، وتسد عليه الأبواب التي تُفَرِّق همه، وتشتت قلبه، فيأنس بها، ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة، بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات، بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ودَّ ألا يخرج منها.

ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله، فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به، كما يهدأ الصبي إذا أُعطىٰ ما هو شديد المحبة له... [1].

فهذه وغيرها علامات لعودة الحياة إلىٰ القلب جاء ذكرها – كما رأينا – في القرآن وفي سنة الرسول ﷺ.

أين نحن؟!

تبقىٰ نقطة جديرة بالملاحظة وهي: أننا وإن لم نشعر بمثل هذه العلامات، فليس معنىٰ هذا أننا لسنا مؤمنين، فالإيمان موجود – بفضل الله – في قلوبنا، بل تأتي على البعض منا لحظات يشعر فيها بقرب حقيقي من الله، إلا أن هذه اللحظات لا تستمر طويلاً، وهذا ما يؤكد ضرورة المضي قدماً في طريق هذه التربية، لعلنا نصل من خلالها إلىٰ اليقظة المستمرة لقلوبنا... يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إن الذي لا يحمل قلباً حياً يقظاً قد يتأثر بالطاعات والعبادات، خاصة عند أدائها في أجواء خاصة – كرمضان والعمرة والحج –، وقد يشعر في هذه الأوقات بلذة وراحة وسعادة، ولكنه تأثر وقتي سرعان ما يزول بعد الدخول في دوامة الحياة، ويمكن أن نشبهه بالنائم المستغرق في نومه، الذي قد ينتبه منه نتيجة تعرضه لمؤثر خارجي مفاجئ؛ فيفيق لحظات ثم ما يلبث أن يعود لنومه، أما صاحب القلب الحي فهو دائم اليقظة والانتباه... وهذا هو مستهدف التربية الإيمانية.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٦٣١، ٦٣٢).

الباب الأول

لماذا الإيمان أولاً؟

- الفصل الأول: دوافع الأعمال.
- الفصل الثاني: حقيقة الإيمان.
- الفصل الثالث: عندما يضعف الإيمان.
- الفصل الرابع: إصلاح الإيمان أولاً.

الفصل الأول
دوافع الأعمال

ما من عمل إرادي يقوم به الإنسان إلا له دافع يدفعه إلى فعله، هذا الدافع ينطلق دائماً من مشاعر الحب أو البغض أو الحاجة إليه، فعلى سبيل المثال: حب الواحد منا لشخص ما، من شأنه أن يدفعه لجلب ما يسعده، ودفع ما يؤذيه، فالأم تسهر من أجل رعاية وليدها، وتضحي بنومها وراحتها، وما ذلك إلا لشدة حبها له، واستشعارها مدى حاجته إلى هذا السهر، والمريض الذي يتناول دواء مراً... ما الذي يدفعه إلى تحمل تلك المرارة؟ إنه حب العافية وكراهية المرض.

فمدار أفعال العباد تنطلق من مشاعر الحب أو البغض، ففعل الطاعات وترك المنكرات – على سبيل المثال – لن يقوم بها العبد بسهولة ويسر إلا إذا انطلقت من هذه المشاعر، يقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وعندما تنطلق جميع أفعال المرء من منطلق حبه لما يحبه الله وبُغضه لما يبغضه سبحانه، فإنه يكون بذلك قد استكمل الإيمان؛ لأن جميع دوافعه أصبحت على مراد الله، ليس لنفسه فيها حظ ولا نصيب.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»(١).

وإذا ما تعارض حبان لشيئين مختلفين أمام الشخص، فإن الحب الأقوى هو الذي سينتصر في النهاية، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فالذي يريد التفوق في دراسته لما في ذلك من شهرة وتميز على الأقران، والعلو في الدنيا؛ تجده يضحي براحة نفسه واستمتاعها بكثير من اللذات، لأن حبه لما سيؤول إليه هذا التفوق أقوى من حبه لتلك اللذات.

---

(١) رواه أبو داود (٧/ ٦٩ برقم: ٤٦٨١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٨٠).

وبعبارة أخرى؛ فإن شدة حاجته إلى التفوق، جعلته يضحي بكل ما من شأنه أن يعطله عن الوصول إلى هدفه؛ فالحاجة إلى الشيء هي التي تولد الرغبة والعزيمة داخل الإنسان، وتدفعه للقيام بكل وسيلة من شأنها أن تقربه إلى مقصوده، وبقدر الحاجة إلى الشيء تكون الرغبة في تحصيله.

علاقة الإيمان بالحاجة:

إن السبب الرئيس لعدم إيمان الكثير من الناس بالله عز وجل، وعدم قيامهم بحقوق عبوديتهم له، هو عدم استشعارهم حاجتهم إليه، يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞﴾ [العلق: ٦ – ٧].

ففي ظنهم أنهم يمتلكون من أسباب القوة، ما يجعلهم في غنى عنه سبحانه، وعندما يُستبدل حالهم من اليسر إلى العسر، ومن السعة إلى الضيق، ومن الأمن إلى الخوف والكرب؛ فإنهم يتجهون بكُلِّيَّتِهم إلى الله عز وجل، بعد أن زالت عنهم عوارض القوة، وعاشوا في حقيقة فقرهم وضعفهم، واستشعروا حاجتهم الماسة إليه سبحانه... فتراهم يعودون إليه متضرعين، منكسرين، مخلصين له الدين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ولقد كان الرسل جميعا يُرَكِّزون في دعوتهم للناس على إشعارهم بحاجتهم إلى الله، فيذكرونهم بحجم النِّعَم التي أنعمها عليهم سبحانه، ويخوفونهم من سوء مآلهم إن هم عصوه وكفروا به، يقول الله تعالى على لسان هود عليه السلام وهو يخاطب قومه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞﴾ [الشعراء: ١٣٢ – ١٣٥].

فأي توجيه أو نصح لا يقع موقعه الصحيح في نفس مستمعه، إلا إذا استشعر حاجته إليه، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: ٥٢].

كيفية إنشاء الرغبة:

ولأن الأعمال تنطلق من إيمان صاحبها بجدواها ومدىٰ حاجته إليها، يصبح التركيز علىٰ فضل العمل، والآثار المترتبة علىٰ القيام بفعله من الأهمية بمكان، لإنشاء الحاجة، وتوليد الرغبة داخل النفس.

ومثال ذلك: استجابة الكثير من الناس للدعوة إلىٰ الإنفاق في سبيل الله، عندما تصل إلىٰ مسامعهم كلمات صادقة عن فضله، وحاجة المسلمين إليه .. من هنا كانت التربية باستشعار الحاجة من وسائل تغيير السلوك، والقيام بالأفعال المرغوب فيها، والمتأمل لأحاديث الرسول ﷺ في فضائل الأعمال يجد الارتباط الوثيق بين العمل والثواب المترتب عليه؛ لتتولد – بإذن الله – الحاجة داخل النفس لفعله.

وكما نعلم أن من طبيعة البشر النسيان كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥]؛ لذلك فإن استشعار الواحد منا حاجته للشيء، قد يضعف بمرور الوقت؛ لذلك كان من الضروري دوام التذكير بأهمية ما نقوم به من أعمال ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

ولابد كذلك من وضوح الهدف الأسمىٰ الذي نسعىٰ جميعا لتحقيقه، ألا وهو رضا الله ومغفرته ودخول الجنة والنجاة من النار، وكل ما ينبغي أن نقوم به من أعمال ما هي إلا وسائل تعيننا علىٰ الوصول إليه، وعندما يصبح هذا الهدف ماثلا بوضوح أمام أعيننا؛ فإن من شأنه بإذن الله أن يصوغ حياتنا بطريقة مختلفة عما إذا كان غير ذلك... بمعنىٰ أننا سنتعامل مع كل شيء يقابلنا في الحياة من خلال علاقته بهذا الهدف، فما نراه يقربنا إليه نتمسك به، وما نجده يبعدنا عنه نتركه غير آسفين عليه.

والمتأمل لآيات القرآن يجد الحث المتكرر، والترغيب الشديد في العمل علىٰ التعرض لمغفرة الله ودخول الجنة؛ كي يزداد السعي إليها، ولا يغفل عنها أحد، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ويقول تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي مقابل الترغيب في السعي للمغفرة ودخول الجنة، كان الترهيب والتخويف من النار بصور متكررة، كي تشتد الحاجة للهروب منها: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ: ٢١ – ٢٦].

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المزمل: ١٢ – ١٣].

الفصل الثاني
حقيقة الإيمان

من معاني الإيمان بالله: التصديق الجازم، واليقين الصادق بأسمائه وصفاته، ووعده ووعيده، والإقرار بأنه سبحانه لم يخلقنا عبثاً، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ – ١١٦].

بل خلقنا لأمر عظيم.. خلقنا لعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

هذه العبودية، وما تستلزمها من معاني الذل والخضوع والاستسلام، تشترك في معانيها مع عبودية سائر المخلوقات لله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إلا أن عبودية البشر تختلف عن عبودية بقية المخلوقات في كونها تنطلق من إرادة الإنسان واختياره، وأنه مطالبٌ بها في ظل وجود النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الرجيم، الذي أقسم بعزة الله أن يعمل جاهداً على غواية الناس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ – ٨٣].

ولقد بين لنا سبحانه وتعالى أنه لا قيمة لأحد في هذه الحياة إلا بعبادته له ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

قال ابن عباس: لولا دعاؤكم: لولا إيمانكم[١].

المشهد العظيم:

أخذ الله العهد من جميع بني آدم – وهم في عالم الذر – على عبادته، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٨٦) لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وجعل سبحانه وتعالىٰ هذا العهد مركوزاً في الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يُمجسانه»(١).

ولقد بين لنا عز وجل أنه لن يتركنا دون حساب علىٰ تلك المهمة التي أمرنا بالقيام بها، يقول تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ويقول: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

وجعل الله عز وجل القلب محلا للعبودية، ففيه تجتمع المشاعر والوجدانات داخل الإنسان من حب، وكره، وخوف، ورجاء، وفرح، وحزن، ورغبة، ورهبة، وفزع، وسكينة،... وغير ذلك من العواطف.

القلب والعقل والنفس:

خلق الله عز وجل لكل عبد من عباده قلباً، وجعله مَلِكاً علىٰ الجسم كله، فما من حركة إرادية يقوم بها أي عضو إلا تأتي استجابة لأوامره... فهو محل الإرادة واتخاذ القرار، وما علىٰ الجميع إلا التنفيذ، يقول رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٢).

ومن جنود هذا القلب: العقل، ومن أهم وظائفه أنه محل العلم وأداة التفكير، وبه تُدرَك العواقب، وتُلجم العواطف، لذلك فهو مستشار القلب ووزيره.

أما النفس فمن تعريفاتها أنها مجمع الغرائز والشهوات داخل الإنسان، وكل ما تميل إليه يسمىٰ الهوىٰ.

هذه النفس وإن كانت من جنود القلب إلا أنها تحاول دائماً الاستئثار به،

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٤ برقم: ١٣٥٨) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧ برقم: ٢٦٥٨).

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

والسيطرة عليه؛ لتتمكن من مركز الإرادة، فتنطلق القرارات خادمة لهواها، وموافقة لحظوظها.

ولقد جعل الله عز وجل لكل عبدٍ من عباده مَلَكاً من ملائكته، يحثه على فعل الخير، ويذكره به، وينهاه عن الشر، ويحذره منه، وجعل له كذلك شيطاناً يمنّيه الأماني الباطلة، ويوسوس له، ويزين له فعل المحظورات، مستغلاً جهل النفس وولوعها بالحصول على ما فيه متعتها.

يقول رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم وللملك لَمَّةً فأما لَمَّةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لَمَّةُ الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]»[(١)].

الإيمان والهوى:

من تعريفات القلب أنه مجمع المشاعر والعواطف داخل الإنسان من حب وكره، وفرح وحزن، و... إلخ، ويخاطبه داعيان: إيمان وهوى.. أما داعي الإيمان فيدعوه للرضى والتصديق بالحقائق التي قررها العقل، ومن ثَّم فِعْلُ مقتضاها.

فاستجابة القلب لداعي الإيمان تعني اتجاه المشاعر لما قرره العقل من حقائق.

وأما داعي الهوى فيدعو القلب للاستجابة لطلبات النفس من شهوات حسية أو معنوية.

واستجابة القلب لداعي الهوى تعني اتجاه المشاعر لما تحب النفس وتهوى.

وعلى قدر قوة أحد الطرفين – الإيمان والهوى – ومقدار سيطرته على المشاعر تكون له الغلبة على إرادة القلب، ومن ثَّم يكون من نصيبه الأمر الصادر للجوارح.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢١٩ برقم: ٢٩٨٨)، وقال: حسن غريب، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٧٨ برقم: ٩٩٧).

القرار لمن؟!

ما من قرار يصدر من القلب إلىٰ الجوارح إلا ويترجم: انتصار الإيمان علىٰ حب النفس وهواها، أو العكس.

فالصراع بين الإيمان والهوىٰ لابد وأن يُحسم لصالح أحدهما لحظة اتخاذ القرار، فإن انتصر الإيمان انقادت الجوارح لأوامره من طاعات وقربات، أما إذا انتصرت النفس في هذه المعركة كان القرار قرارها، فتأمر الجوارح بفعل ما يوافق هواها.

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»(١).

فلحظات الزنىٰ أو السرقة أو القتل تعكس انتصار الهوىٰ علىٰ الإيمان، وقوة سيطرته علىٰ القلب.

صلاح الظاهر:

إذن ففعل الجوارح يعكس حجم الإيمان أو الهوىٰ في القلب.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وفي الدعاء: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك»(٢).

فمن أراد أن يُعظِّم شعائر الله فليعمل علىٰ زيادة الإيمان والتقوىٰ في قلبه، وهذا ما يؤكده قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٠٤ برقم: ٥٥٧٨)، ومسلم (١/ ٧٦ برقم: ٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥٢٨ برقم: ٣٥٠٢) وقال: حسن غريب، والحاكم (١/ ٧٠٩ برقم: ١٩٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

فكلما ازدادت خشية الله في القلب كانت المسارعة إلىٰ الخيرات بالجوارح.

ولقد رأىٰ بعض السلف رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه(١).

من هنا قال العلماء: إن الدافع لفعل الطاعة هو الإيمان، كما أن الطاعة من ثمراته ونتائجه، وفي المقابل فإن الدافع لفعل المعصية – بعد انتفاء الجهل والإكراه والخطأ والنسيان – هو الهوىٰ(٢).

يقول تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

الإيمان يزيد وينقص:

مما سبق يتبين لنا أن الدافع لفعل الطاعات هو الإيمان، أما المعاصي فدافعها هو الهوىٰ.

وفي نفس الوقت فإن فعل الطاعة يؤدي بدوره إلىٰ زيادة الإيمان من خلال أثرها علىٰ القلب، كما أن فعل المعصية يزيد مساحة الهوىٰ في القلب مما يؤدي إلىٰ نقصان الإيمان فيه.

فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال رسول الله ﷺ: «تُعرَض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عُوداً عُوداً، فأي قلب أُشربها، نُكت فيه نُكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نُكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين، علىٰ أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز، مُجَخِّيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أُشرِب من هواه»(٣).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب (٢/ ٨٦ برقم: ٦٧٨٧).

(٢) الإيمان، لابن تيمية (ص: ٦٨).

(٣) رواه مسلم (١/ ١٢٨ برقم:١٤٤)، ومعنى مُجَخِّيا: أي مائلا؛ والمجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال، فشبه القلب الذي لا يعي خيرا بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه.

فكلما ازداد القلب بياضا ونورا كانت الغلبة لداعي الإيمان، فيثمر ذلك طاعات تُزيد القلب بياضا ويقوىٰ بها الإيمان، وهكذا...

وكذلك المعصية فإنها تؤثر في القلب بزيادة السواد والظلمة فيه، فتَقِلُّ مساحة الإيمان تبعا لذلك، ويقوىٰ داعي الهوىٰ ليثمر معاصيَ أُخَر.

يقول ابن القيم: فإن العمل السيئ مصدره فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة، فيزداد مرضا علىٰ مرضه حتىٰ يموت، ويبقىٰ لا حياة فيه ولا نور[1].

فلابد إذن من تعاهد الإيمان، والعمل الدائم علىٰ زيادته في القلب.

ولقد كان الصحابة ﭬ ومن تبعهم بإحسان يدركون هذا الأمر جيدا.

فهذا عبد الله بن رواحة يقول لصاحب له: «تعالَ حتىٰ نؤمن ساعة، قال: أوَلسْنا مؤمنين؟ قال: بلىٰ، ولكنَّا نذكر الله فنزداد إيمانا»[2].

وعن عمير بن حبيب قال: الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته، وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا ربنا وخشينا فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيَّعنا فذلك نقصانه[3].

علاقة العبودية بالإيمان:

عبودية المرء لله تتمثل في إخضاع جميع مشاعره له، فيحب فيه ويبغض فيه، ويطيع أوامره ويجتنب نواهيه، ويفرح بفضله ويحزن من التقصير في جنبه، ويتحاكم إليه ويتخاصم من أجله.

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٨).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٥٢ برقم: ٤٩).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٥٤ برقم: ٥٥).

إنه الاستسلام المطلق له سبحانه في كل شيء مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

هذه العبودية تتأثر سلبا وإيجابا بحجم الإيمان الموجود في القلب؛ فكما أشرنا سابقا أن منشأ ومنطلق أي فعل يقوم به الإنسان هو الحب أو البغض أو الحاجة إليه، والحب قد يكون حبا لله وابتغاء مرضاته، وقد يكون حبا للنفس وابتغاءً لرضاها، والعبد مطالب بنصرة الله على نفسه وتقديم رضاه على رضاها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ففعل الجوارح يعكس حجم الإيمان الموجود في القلب: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وكذلك فإن فعل المعاصي يترجم حجم الهوى فيه ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

الفصل الثالث
عندما يضعف الإيمان

عندما يضعف الإيمان في القلب، وتقل مساحته فيه؛ فمن المتوقع أن ينعكس أثره على السلوك، حيث تنطلق الأفعال مستجيبة لداعي الهوى.

ولمعرفة حجم هذا الضعف علينا النظر إلى السلوك الخارجي، ورصد ما يبتعد منه عن هدي الإسلام.

مظاهر ضعف الإيمان:

لضعف الإيمان مظاهر عديدة، تختلف نسبة تحققها من شخص لآخر، حسب درجة هذا الضعف.. ومن هذه المظاهر:

- التكاسل عن أداء الطاعات بالكيفية المطلوبة، فترى صاحب الإيمان الضعيف يتأخر عن صلاة الجماعة، وقلما يحضر أولها مع الإمام، وفي أثنائها تتزاحم عليه الخواطر والأفكار الدنيوية، فلا يفيق منها إلا والإمام ينهي صلاته بالتسليم.
- لا يستيقظ لصلاة الصبح في موعدها بالمسجد، وعندما يفتح عينيه فيجد ضياء الشمس قد ملأ الكون حوله دون أن يصلي الفريضة، لا تجده مستشعراً حجم المصيبة التي لحقت به، فلا يكون حزيناً ولا مكتئباً، ولا خائفاً من حدوث بلاء له في يومه بسبب تفريطه في صلاة الفجر... بل يمارس حياته بصورة طبيعية، كأن شيئاً لم يكن.
- يذهب إلى صلاة الجمعة متأخراً، بعد أن يصعد الإمام المنبر، وتغلق الملائكة سجلاتها التي كتبت فيها أسماء المبكرين في الصلاة.
- يترك الكثير من السنن بدعوى أنه لا حساب على تركها، فلا تراه يصلي الرواتب، ولا صلاة الضحى، ولا صلاة التوبة، وكذلك قيام الليل، وصلاة الاستخارة.
- هجر القرآن: في مثل هذه الأجواء يُهْجر القرآن، فإذا ما قُرِئ فباللسان فقط... يمر القارئ بآيات الوعد والوعيد، فلا يتأثر بها قلبه، ولا تدمع لها

عيناه، ولم لا والقرآن لم يجاوز حنجرته؟!

- ومع هجر القرآن قراءةً وتدبراً تُترك الأذكار، وكذلك الدعاء، ويشعر صاحب هذا القلب بثقل اللسان، فإذا ما رفع يده بالدعاء سرعان ما يقبضها؛ لأن قلبه في وادٍ ولسانه في وادٍ آخر[1].
- ومن مظاهر ضعف الإيمان في القلوب: النظر إلى الأمور من جهة وقوع الإثم فيها أو عدم وقوعه فقط، وغض النظر عن فعل المكروه فيقترب صاحب هذا القلب من دائرة الحرام شيئاً فشيئاً، وهذا عين ما أخبر به النبي ﷺ: «... ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه...»[2].
- قلة الورع؛ فمن نتائج ضعف الإيمان: قلة الورع، وعدم تحري الحلال والحرام في الأقوال والمعاملات، والطعام والشراب، ويدخل في هذا الباب عدم إتقان الفرد لعمله، وعدم وفائه بوعوده ومواعيده.
- يضعف سلطان الدين في القلب فيبدأ صاحبه في التنازل شيئاً فشيئاً عن كثير من الثوابت، فلا تراه يغضب إذا انتهكت محارم الله، ولا يفكر في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- يضعف شعوره بالمسئولية تجاه هذا الدين، فلا يقوم بواجب الدعوة إليه، ولا يؤثِّر فيمن حوله.
- تضعف مقاومته أمام التلفاز، فيشاهد فيه الكثير مما يغضب الله عز وجل، من نساءٍ كاسياتٍ عارياتٍ، مائلاتٍ مميلاتٍ.
- ومن مظاهر ضعف الإيمان في القلوب: عدم غض البصر بين الرجال والنساء، وكثرة الكلام بينهم لضرورة وغير ضرورة.
- وعندما يضعف الإيمان يكثر اللغو، وتزداد جلسات السهر والسمر واللهو، وفيها يزداد الحرص على الاستئثار بالحديث، والإجابة عن كل تساؤل،

---

(١) ظاهرة ضعف الإيمان، للمنجد (ص: ١٢).

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢) ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩) واللفظ له.

ومقاطعة المتحدث، ويأخذ كلام الأشخاص الطابع العقلي، ويفقد السمة الإيمانية، حتى لا تكاد تجد في كلام الحاضرين نصاً من القرآن، أو السنة، أو كلام السلف رحمهم الله(١).

- وفي مثل هذه المجالس تُنتهك حرمات الأشخاص، فتكثر الغيبة والنميمة، والسخرية والاستهزاء، والغمز واللمز.
- التعلق بالدنيا: فمن نتائج ضعف الإيمان: تعلق القلوب بالدنيا، فيستبد بها الفرح إذا زاد الرصيد من المال والذهب، ويتملكها الحزن عند نقصانه.
- ازدياد الحرص على التمتع بمباهج الحياة، ويظهر ذلك جلياً في الملبس والمأكل، والمسكن، والأثاث، وفي السعي للحصول على الكماليات، وفي كثرة الذهاب للمصايف والمنتزهات.

ومنشأ هذا الحرص إصابة القلب بمرض حب الدنيا، فينعكس ذلك على تصورات صاحبه، وعلى أحلامه وتطلعاته، فالفقير يحلم بالثراء، والغني ينظر إلى من هو أغنى منه، ولا يكتفي أحد بما عنده، بل يريد المزيد والمزيد من أسباب الترف في الدنيا، مما يؤدى إلى زيادة التنافس على امتلاك زينتها، من أراضٍ وعقاراتٍ ودوابَّ... إلخ.

- وعندما يضعف الإيمان في القلوب يتغير تفكير الآباء تجاه أبنائهم، فبدلاً من أن يهتموا بتعليمهم أمور دينهم يصبح جُلُّ اهتمامهم هو تعليمَهم اللغات الأجنبية، فيعملون على إلحاقهم بمدارسها، وفي أغلبها الكثير مما يهز العقيدة في نفوس الأولاد، ويكسبهم سلوكيات عديدة منافية للإسلام، فينشأ الكثير منهم في وادٍ وآباؤهم في وادٍ آخر.
- يضعف تعظيم شعائر الله وحب السنة، ويصبح المنادي بضرورة التمسك بها غريباً، لا يكاد يجد صدى لندائه، وفي المقابل يزداد البحث عن الرُّخَص لاتباعها، والتنصُّلُ من تكاليف الإيمان.
- عندما يضعف الإيمان: يقل العفو والتسامح، وتزداد المشاحنات بين الناس،

---

(١) ظاهرة ضعف الإيمان للمنجد (ص: ٢٢).

وتتوتر العلاقات بين أصدقاء الأمس؛ فيكثر الخصام، ويعمل الواحد منهم على تصيد أخطاء صاحبه، وتشويه صورته أمام الآخرين.

- في هذا الجو تتضخم الذات، ويكثر الاعتداد بالرأي، ويزداد الحرص على الانتصار للنفس، وحب الظهور، والتصدر، والسعي للإمارة.
- وفيه يقل البذل والعطاء، والإنفاق في سبيل الله، ويزداد الحرص والشح، ويقل حب الجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل، ويزداد الخوف من الابتلاء والمحن التي تصيب العاملين للإسلام.
- وعندما يضعف الإيمان: تسوء الأخلاق، ويقل الحلم والعفو، والصفح بين الناس، وتكثر الفظاظة والغلظة، ويقل التراحم والذلة بين المؤمنين، ويزداد التقصير في القيام بالحقوق: كَبِرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار.
- تسوء المعاملات بين الناس، ويظهر ذلك جلياً في البيع والشراء والتجارة، فالكل يحاول الاستئثار بالخير لنفسه.
- ومن مظاهر ذلك أيضا: قلة الثقة فيما عند الله، وازدياد الطمع فيما في أيدي الناس، وعدم الرضى بالقدر، فيكثر التسخُّط والتشكِّي، ويظهر ذلك بوضوح عند مواجهة أدنى مصيبة.
- ظهور حالة السلبية، وعدم المبالاة بهموم الآخرين ومشاكلهم، فيقل السعي في قضاء حوائج المحتاج، أو نجدة الملهوف، أو مساعدة الفقراء والمساكين.
- الهروب من التكاليف: في مثل هذه الأجواء التي قد تعيشها بعض القلوب تزداد حالات الفتور، والابتعاد عن صفوف العاملين للإسلام، وتقل سرعة تلبية الأفراد للتكليفات الإيمانية، وتُختلق الأعذار للهروب من الواجبات.
- وعندما يضعف الإيمان تقل درجة الأُخُوة بين الأفراد، ويضعف الحب فيما بينهم، فينظر الواحد منهم إلى حقوقه، ولا يقبل من أحد أن يقصر في أدائها، وينسى في المقابل واجباته، ويسوق دائماً مبررات هروبه منها.

الفصل الرابع
إصلاح الإيمان أولاً

عندما تتعدد مظاهر ضعف الإيمان في الاهتمامات والسلوك؛ فإن ذلك يدل دلالة قاطعة على قلة مساحته في القلوب.

حينئذ لا يكمن العلاج في مواجهة المخطئ بخطئه، أو الكشف عن ضعفه، والعمل على تخطئته، ولا يجدي نفعاً إلزامه بانتهاج السلوك المضاد؛ لأن الحالة التي وصل إليها تعكس – أول ما تعكس – ضعفاً إيمانياً في قلبه، ووهنا في إرادته، فانعكس ذلك على سلوكه، فإذا ما ألزمته بتغيير سلوكه دون أن تبدأ بإيقاظ الإيمان في قلبه فكأنما تحرث في الماء، فهو في وادٍ وأنت في وادٍ آخر، وذلك لأنه ليس لديه دافع ذاتي يقوده إلى مثل هذا التغيير.

من هنا نؤكد: إن بداية الخروج من هذا الواقع، وعلاج مثل هذه الظاهرة، ليست في تكليفات جديدة يتثاقل عن أدائها القلب الضعيف، وإنما يكون بالإيمان.

فالإيمان قبل التكليفات... والإيمان قبل القرآن!

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[(١)].

وهذا جندب بن عبد الله رضي الله عنه يقول: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة (أي شباب كلهم نشاط وقوة) فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٨٥ برقم: ٤٩٩٣).

(٢) رواه ابن ماجه (١/ ٤٢ برقم: ٦١)، وصححه البوصيري (١/ ١٢)، والألباني في صحيح ابن ماجه.

ويؤكد على هذا المعنى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بقوله: «لقد عشنا برهة من دهر وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ولا يدري ما آمره، ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه وينتثره نثر الدقل»(١).

ولقد وصف لنا القرآن حالة من يرث الكتاب قبل أن يؤتى الإيمان بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فهؤلاء الذين تصفهم الآية قد تعلموا معاني الكتاب ممن سبقهم، وورثوها منهم دون أن يسبق ذلك ويصحبه تقوية وإصلاح الإيمان في قلوبهم، فبدلا من أن تكون هذه المعاني هادية لهم ومقربة إلى ربهم؛ صارت سبباً لتسرب الشعور بالأمان تجاه عذاب الله، ووسيلة للتكالب على الدنيا وطلب العلو فيها.

إعادة ترتيب الأولويات:

أخي: إن من الواجب علينا أن نعيد ترتيب أولوياتنا، وتشكيل عقولنا مرة أخرى، وأن تحتل فيها معاني الإيمان المساحة العظمى ليصبح أساس التفكير ومنطلق الأعمال، وأن يصحب ذلك الاجتهاد في إصلاح القلب بها حتى لا يتخلف العلم عن العمل والقول عن الفعل.

وليس معنى هذا أن نهمل الجوانب الأخرى، ولكن المطلوب هو التركيز على هذا الجانب؛ فبه ستحل البركة على جميع الأعمال، وسيسهل على الواحد منا القيام بجميع الواجبات، وترك المنهيات.

والقارئ المتدبر للقرآن يجد فيه العديد من الآيات التي تقرر هذه الحقيقية:

---

(١) رواه محمد بن نصر المروزي في مختصر قيام الليل (١/ ١٧٩)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ١٥٤ برقم: ١٤٥٣)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (١/ ٩١ برقم: ١٠١)، والدقل: رديء التمر.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فتعظيم شعائر الله يعكس حجم الإيمان والتقوى في القلوب، وبقدر هذا الحجم يكون قدر التعظيم.

ويقول تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤].

فإيمانهم بالله واليوم الآخر هو الذي دفعهم للجهاد بأموالهم وأنفسهم دون الحاجة إلى من يحثهم على ذلك.

نموذج عملي:

لقد عاش صحابة رسول الله ﷺ هذه المعاني الإيمانية، وتمكنت منهم، فصنعوا المعجزات.

فالمهاجرون تحملوا الضيق والحصار الذي ضُرب عليهم، ثم هاجروا إلى المدينة، تاركين أموالهم وديارهم حباً لله عز وجل، وابتغاءً لمرضاته ومثوبته، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

أما الأنصار فلقد تمكن الإيمان من قلوبهم تمكناً شديداً، حتى وصلوا إلى الدرجة التي قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩].

فكأنهم دخلوا بكليتهم في الإيمان، ولم يدخل الإيمان قلوبهم فحسب، وشتان بين الأمرين.

لقد اختلط الإيمان بلحومهم ودمائهم، فضلاً عن تمكنه من قلوبهم، فانعكس ذلك على تصرفاتهم، فكانت منهم الأفعال التي لا تصدر عن أي بشر عادي.

لقد كان التنافس فيما بينهم شديداً على ضيافة المهاجرين ومؤاخاتهم، فقد روي أنه: ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة[1].

---

(١) اقتراع الأنصار سكنى المهاجرين عندهم في صحيح البخاري (٢/ ٧٢) وغيره.

تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

يقول القرطبي: كان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم ﷺ أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم منازلهم، وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليَّ من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكن في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم»، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار»(١).

فكل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلىٰ إزالته فهو حاجة، والأنصار لم يجدوا في صدورهم أي حاجة تجاه المهاجرين عندما خُصُّوا بمال الفيء وغيره(٢).

لقد آثروهم علىٰ أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غنىً، بل مع احتياجهم إليها(٣).

من ثمار الإيمان:

أخرج الامام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلىٰ بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلىٰ رَحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: فعَلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوىٰ ليأكل فقومي إلىٰ السراج حتىٰ تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ١٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

على النبي ﷺ فقال: «قد عجب الله عز وجل من صنيعكما بضيفكما الليلة»[(١)].

أي قدر من الإيمان كان عليه هؤلاء الأنصار؟!

ولكي نعرف حجم التغير الضخم الذي أحدثه الإيمان في حياة الأنصار علينا أن نعرف حالهم قبل الإسلام، وكيف كانوا منقسمين إلى فريقين متباغضين، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

من هنا تبرز الحقيقة بأنه من أراد تحصيل أي وجه من أوجه الخير فليوجه اهتمامه إلى الأصل العظيم، والشجرة المباركة.. شجرة الإيمان، ومنها ستتفرع الفروع، وتقطف الثمرات في كل الاتجاهات، وعلى مدار الأوقات: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هناك أمر آخر يؤكد حقيقة أن البدء بالإيمان والتركيز عليه من شأنه أن يحل الكثير من المشكلات، ويُظهر الكثير من الثمرات الطيبات.

هذا الأمر هو ما أكد عليه القرآن في عدة مواضع بأن: الأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر، فالنهي عن المنكر قبل الأمر بالمعروف بصفة عامة قد يؤدى إلى نتائج عكسية؛ لغلبة الهوى وتمكن سلطان النفس من القلب.

فإذا ما أردنا أن نجعل أنفسنا، ومن حولنا من الناس يترك، وبصورة تلقائية، ما يفعله من آثام، فليكن جُلُّ اهتمامنا العملُ على زيادة الإيمان في القلوب.

وليس معنى هذا هو ترك النهي عن المنكر؛ بل المقصد هو ترتيب الأولويات والبدء بالإيمان كخطوة أولى ننشد من ورائها انحصار المنكر بإذن الله..

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٦٢٤ برقم: ٢٠٥٤).

لباس التقوى:

النفوس لها عورات كما أن للبدن عورات.. وخير لباس لعورات النفس هو الإيمان والتقوىٰ، وعندما يقل مستوىٰ الإيمان في القلوب تنكشف العورات كالنهر الذي يجف ماؤه، تظهر فيه النُتوءات والحفر ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولقد ضرب لنا القرآن مثالاً لذلك بالصلاة، فعندما تقام بالهيئة التي أمر الله بها عباده – ظاهراً وباطناً – فإنها تزيد الإيمان في القلب بالدرجة التي يستطيع المؤمن من خلالها أن يقهر الهوىٰ، فلا يأتي بفاحشة، ولا يرتكب منكراً ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال أبو بكر بن عياش: «من قام الليل لم يأت فاحشة، ألا تسمع إلىٰ قول الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾»[(١)].

وعن أبي هريرة ﭬ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ، فقال: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما تقول»[(٢)].

تطبيقات عملية من السيرة:

المشكلات ليست ببعيدة عن أي مجتمع، ولكن يختلف الناس في كيفية التعامل معها، ولقد واجه المجتمع المسلم في عهد الرسول ﷺ بعضاً منها، فكان حلها يبدأ دائماً بالتذكير بقضية الإيمان ومقتضياته.

فعندما انتصر المسلمون علىٰ المشركين في غزة بدر كانت هناك غنائم كثيرة، كانت سبباً في اختلاف البعض حول كيفية توزيعها، وظن بعض الشباب أنهم أحق من الشيوخ بها، فكيف تمت معالجة هذه المشكلة؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (برقم: ٣٨٣).

(٢) رواه أحمد (١٥/ ٤٨٣ برقم: ٩٧٧٦)، والبزار (١٦/ ١٣٠ برقم: ٩٢١٧)، وابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٠٠ برقم: ٢٥٦٠)، وصححه الأرنؤوط.

نزلت سورة الأنفال وبدأت بقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١]، فخرجت الغنائم من أيديهم تماماً، وأصبحت لله ورسوله، فليس لأحد فيها شيء.

ثم بدأت الآيات تذكرهم بالإيمان وعلاماته، وأوردت صفات المؤمنين ليعرض كل منهم نفسه عليها، وأول هذه الصفات ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]، أي اهتزت واضطربت، وخافت قلوبهم عند ذكر الله، وهي صفة يسهل إدراكها، فمن لم يشعر بذلك فليعمل على زيادة إيمانه ليكون مؤمناً حقاً.

واستمرت الآيات في سرد صفات المؤمنين ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤]، فهل يفكر أحد بعد هذه الآيات في الغنائم أم أنه سيفكر في نفسه؟ وأين هو من هذه الصفات؟ وهل هو مؤمن حقاً أم لا؟

ثم تمضي السورة فتذكرهم بما منَّ الله عليهم من نصر عظيم في هذه الغزوة المباركة، وأن هذا النصر من عند الله لا من عند أنفسهم، فلقد غشَّاهم بالنعاس، وأنزل عليهم الغيث، وأمدهم بالملائكة، وسدد رميهم، وثبتهم، وأوهن كيد الكافرين.

ثم تذكرهم السورة بضرورة الاستجابة لله والرسول، وتخوفهم بأن الله يحول بين المرء وقلبه.

وتعود الآيات بذاكرتهم إلى أيام مكة حين كانوا مستضعفين ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وبعد ذلك في الآية الواحدة والأربعين من السورة، بعد أن تجردت القلوب لله، وراجع كل واحد منهم إيمانه، ونسي أمر الغنائم، تحدثت الآية عن كيفية تقسيمها ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ

ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

موقف حنين:

(وفي غزوة حنين بعد الفتح العظيم لمكة، وفيها كان عدد الجيش الإسلامي كبيراً لدرجة أن العُجب بهذا العدد قد دخل إلى بعض النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وبينما هم ينحدرون في وادي حنين، وهم لا يدرون بوجود كمائن العدو في مضايق هذا الوادي، إذ بكتائب العدو قد شدَّت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سفيان بن حرب – وهو حديث عهد بالإسلام –: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر (أي البحر الأحمر).

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: «هلموا إليَّ أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وبعض أهل بيته)(١).

في صحيح مسلم أنه ﷺ قال للعباس رضي الله عنه: «نادِ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة (أي شجرة الرضوان التي بايعوا تحتها على ألا يفروا حتى يموتوا بين يده أو ينتصروا على المشركين) يا أصحاب سورة البقرة» – وكان العباس رضي الله عنه رجلاً صَيتاً، جهير الصوت، قوي الصرخة – فنادى بما أمره به رسول الله ﷺ، وبلغ نداؤه مسامع المسلمين وهم على مسافات بعيدة، فأقبلوا سراعاً كأنهم الإبل إذا حنَّت على أولادها، وهم يقولون: «لبيك، يا لبيك»، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، انحدر عنه، وأرسله، وأخذ درعه يقذفها في عنقه، وأخذ سيفه وترسه، يؤم الصوت،

---

(١) الرحيق المختوم (ص:٤٦٧، ٤٦٨) بتصرف يسير.

وازدحموا على رسول الله ﷺ ازدحاماً شديداً، حتى كأنه ﷺ في حرجة، فقال العباس رضي الله عنه: «فلرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار، لشدة ما أحاط الأنصار برسول الله ﷺ وهم يقاتلون عنه، ويمحون ما كان من هفوتهم في التولي عنه ﷺ».

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة على أعدائهم المشركين، فقاتلوا قتالاً شديداً، جعل رسول الله ﷺ يشرف عليهم مبتهجاً بشجاعتهم وبطولتهم، وقال: «الآن حمي الوطيس»، وتناول حفنة من الحصباء بيده الشريفة، — أو ناولها له عمه العباس، أو غيره من أصحابه رضي الله عنهم — ورمى بها وجوه الأعداء المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فهزمهم الله تعالى هزيمة منكرة، فرقت جموعهم، وأرسلوا أرجلهم بالفرار لا يلوون على شيء[1].

بعد أن انتهت غزوتا حنين والطائف، التي غنم المسلمون منها غنائم كثيرة، أعطى رسول الله ﷺ النصيب الأكبر منها لرؤساء القبائل، والمؤلفة قلوبهم حديثي العهد بالإسلام، ولم يعط الأنصار منها شيئاً.

وهذه السياسة لم تُفْهَم أول الأمر، فأطلقت ألسنة شتى بالاعتراض[2]، «وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، لقد حُرموا جميعاً أَعطية حنين، وهم الذين نُودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول الله ﷺ حتى تبدل الفرار انتصارا، وهاهم أولاء يرون أيدي الفارين ملأى، وأما هم فلم يُمنَحوا شيئاً قط.

روى ابن اسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من

---

(١) من كتاب محمد رسول الله ﷺ لمحمد الصادق عرجون (٤/ ٣٧٤)، والحديث رواه مسلم (٣/ ١٣٩٨ برقم: ١٧٧٥).

(٢) فقه السيرة لمحمد الغزالي (ص: ٢٩٥).

الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال رسول الله: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجِدَة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكَذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا»[1].

أخي.. ألا ترى كيف عالج رسول لله ﷺ هذه المشكلة الطارئة؟! وكيف كان التذكير الإيماني هو الحل لها؟!

الإيمان هو الحل:

إن العمل على زيادة الإيمان في القلوب هو الحل لكثير من المشكلات؛ ففي ظل الأجواء الإيمانية تذعن القلوب لداعي العفو والتسامح، والتغاضي عن الهفوات، فالإيمان

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠)، نقلا عن الرحيق المختوم (ص: ٤٧٣، ٤٧٤).

يصنع المعجزات، ويروض النفوس المستأسدة، لذلك فإنه ليس من المناسب أن نحكم على شخص ما حكماً نهائياً من خلال سلوكياته التي قد تبدو منه في حالة ضعف إيمانه، وليس من المناسب كذلك أن تجرنا تلك التصرفات إلى مواجهته، واتخاذ موقف مضاد منه؛ لأن ذلك سيؤدي به إلى العمل على الانتصار لنفسه، وإثبات صحة موقفه، فتزداد الأمور تعقيداً، بل إن المقترح في مثل هذه الحالات أن تكون البداية بالعمل على إيقاظ الإيمان في القلوب، وتحويل الأجواء المحيطة إلى أجواء صحية، يسعى فيها الجميع إلى مرضاة الله عز وجل.

ففي مثل هذه الأجواء الإيمانية قد تصبح نفس كل واحد منا وراءه وليست أمامه، وفارق كبير بين الموقفين، عند ذلك ستتغير الدوافع، وتنتهي الكثير من المشاكل تلقائياً دون مواجهات.

ليتأمل كل منا حال الصحابة قبل الإسلام وبعده، وليتفكر في الأسباب التي غيرتهم هذا التغيير الجذري، لقد كانوا يقولون عن عمر بن الخطاب في الجاهلية: لن يؤمن عمر حتى يؤمن حمار الخطاب، فعلى أي أساس كان هذا التقييم؟

كان — بلا شك — من واقع الحالة التي كان عليها وقتذاك، لكن عندما دخل الإيمان قلبه تحولت الدفة، وأصبح عمر أحد رموز الإسلام الشامخة.

خطورة طغيان النفس:

إن النفس هي النفس، خلق الله فيها الاستعداد للتقوى، والاستعداد للفجور: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ — ١٠].

وعندما تُترَك النفس دون أن تُلجم بلجام الإيمان والتقوى، فإن طغيانها لا حدود له، تأمل ماذا فعلت النفس بثمود قوم صالح، لقد كذبوا نبوته، وأبوا أن يؤمنوا بالله، وطلبوا منه آية تدل على صدقه، فأخرج لهم الله عز وجل ناقة من بين الصخر آية مبصرة، تدل دلالة واضحة على صدق هذا النبي، يقول تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

فماذا فعلوا؟ هل استسلموا لربهم وآمنوا بنبيهم؟ ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

فماذا حدث لهم؟ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف: ٧٨ – ٧٩].

كيف وصل طغيانهم إلى هذا الحد؟!

يجيب القرآن على هذا التساؤل، ويُشَخِّص حالتهم بأنهم تركوا نفوسهم دون تزكية، حتى وصلت إلى درجة من الطغيان، دفعتهم إلى عقر الناقة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾ [الشمس: ٧ – ١١].

وتأمل ماذا فعلت النفس بإخوة يوسف ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وكذلك فعلت فعلتها مع السامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦﴾ [طه: ٩٥ – ٩٦].

وليس أدل على ذلك من حال ابني آدم، فهما أخوان شقيقان تربيا في نفس البيئة، لكن أحدهما ألجم نفسه بلجام الخوف من الله عز وجل، والآخر تركها دون هذا اللجام؛ فألجمته وأسرته، ثم أرغمته على قتل أخيه – انتصاراً لها وتحقيقاً لرغبتها – فأطاعها ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: ٣٠ – ٣١].

فلابد إذن من الإيمان لنلجم به أنفسنا ونروضها على القيام بطاعة الله.

لقد خلق الله عز وجل في النفوس القابلية للهداية، والقابلية للفجور، فلا يولد شخص على ظهر الأرض إلا وفي نفسه هذه الخاصية، بل تظل معه، وليس معنى أن أغلب الناس قد ساروا وراء أهواء أنفسهم ورغبتها في الفجور؛ أن تنعدم قابليتهم

للهداية.. نعم قد تضعف بمرور الوقت، وطول الأمد، نتيجة لقسوة القلب، إلا أن هذا لا يعني استحالة تزكية نفوسهم؛ فالله عز وجل كما أنه يحيي الأرض بعد موتها؛ فإنه سبحانه يحيي القلوب كذلك ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

لا تكن كالشمعة:

الانشغال بالعمل والحركة وسط الناس لحل مشاكلهم، والسعي في خدمتهم أمر عظيم، ومطلوب من الجميع، ولكن عندما تكون هذه الحركة بلا دافع إيماني، بل بدافع العادة، أو الحياء، أو غير ذلك من الدوافع فإن من شأنها أن تحدث أثراً سلبياً في نفس صاحبها.

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الأمر بقوله: «مثل الذي يعلم الناس الخير، وينسى نفسه، مثل الفتيلة، تضيء للناس وتحرق نفسها»(١).

ويقول الرافعي: إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك(٢).

من هنا تشتد الحاجة إلى الإيمان..

الإيمان مفتاح كل خير:

عندما نؤكد – بفضل الله – بأن الإيمان هو مفتاح النجاح، وبداية الحل لأي مشكلة، فإننا لا نأتي بجديد، فالقرآن مليء بالآيات التي تحثنا على الإيمان والتقوى، وتُرَغِّبُنا في النتائج المترتبة على ذلك.. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

---

(١) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (برقم: ٧١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (برقم: ٥٨٣٧).
(٢) وحي القلم للرافعي (٢/ ٤٢).

ويقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

فمن أراد التحلي بحسن الخلق فليبدأ بالإيمان، يقول رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[١].

ومن أراد ترك الآثام فليلتحق بمدرسة الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلىٰ ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم»[٢].

فالمواظبة علىٰ فعل الخيرات لا تكون إلا من مؤمن، يقول رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا عليه بالإيمان»[٣].

الإيمان يصنع المعجزات:

عندما يدخل نور الإيمان القلب فإنه يبدد الظلمات، ويحرق الشهوات بقدر ذلك النور ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء: ١٨].

لقد جاء سحرة فرعون من أجل المال والرفعة ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، وعندما دخل الإيمان قلوبهم حولهم إلىٰ ربانيين، تسمو نفوسهم نحو السماء؛ فاستهانوا بالدنيا ومن عليها، وندموا علىٰ ما فعلوه في حق الله، وتطلعوا إلىٰ ما عنده من نعيم مقيم ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

إن الإيمان يصنع المعجزات، ويتخطىٰ كل الحدود... حدود السن، والإمكانات، والقدرات، والمقاييس الأرضية.

---

(١) رواه أحمد (١٢/ ٣٦٤ برقم: ٧٤٠٢)، وأبو داود (٤/ ٢٢٠ برقم: ٤٦٨٢)، والترمذي (٣/ ٤٥٨ برقم: ١١٦٢)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٨٤).

(٢) رواه الترمذى (٥/ ٥٥٢ برقم: ٣٥٤٩)، وابن خزيمة (٢/ ١٧٦ برقم: ١١٣٥)، والطبرانى (٨/ ٩٢ برقم: ٧٤٦٦)، والحاكم (١/ ٤٥١ برقم: ١١٥٦)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١٢٢٧).

(٣) رواه أحمد (١٨/ ١٩٤ برقم: ١١٦٥١)، وابن ماجه (١/ ٥١٣ برقم: ٨٠٢)، والترمذي (٥/ ١٢ برقم: ٢٦١٧) وقال غريب حسن، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٦ برقم: ١٧٢١).

انظر إلى قصة أصحاب الأخدود، ما الذي جعل المؤمنين لا يبالون بالموت بهذه الطريقة المفزعة؟!

وتأمل حال الصحابة ﵃... ما الذي دفعهم إلى ترك أوطانهم، وأموالهم، وعشائرهم، وهاجروا إلى وطن جديد لا يعرفون فيه أحداً ولا يملكون فيه مالاً؟!

تأمل حال صهيب الرومي عندما أراد الهجرة، فأرادت قريش أن تمنعه، فقالوا له: أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: ربح صهيب، ربح صهيب، وفيه وأمثاله نزلت الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧][(١)].

مثال الخنساء:

من النماذج العجيبة التي تُبين أثر الإيمان في النفوس وقدرته على التغيير، ما حدث للخنساء (المرأة التي فقدت في جاهليتها أخاها لأبيها: صخراً، فملأت الآفاق عليه بكاءً وعويلاً، وشعراً حزينا) فكان مما قالت:

يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره بكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولكننا بعد إسلامها نراها امرأة أخرى... نراها تقدم فلذات الأكباد إلى الموت راضية مطمئنة، بل محرضة دافعة[(٢)].

روى المؤرخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفرس، تحت راية القائد سعد بن أبي وقاص ﵁، وكان معها بنوها الأربعة، فجلست إليهم في ليلة من الليالي

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٧٧)، وسبب النزول ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٧٥).

(٢) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي.

الحاسمة تعظهم وتحثهم على القتال والثبات، وكان من قولها لهم: أي بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجّنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال في سبيل الله مستبصرين، وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، تظفروا بالغنم في دار الخلد.

فلما أصبحوا باشروا القتال بقلوب فتية، حتى استشهدوا واحداً بعد واحد، وبلغ الأم نعي الأربعة في يوم واحد، فلم تلطم خداً، ولم تشق جيباً، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[1].

سرعة التغيير:

«وفي القصة القصيرة التي رواها مسلم في صحيحه برهان مبين على مبلغ أثر الإيمان... ذلك أن رجلاً كان ضيفاً على النبي ﷺ فأمر له بشاة فحُلبت، فشرب حلابها، ثم أمر له بثانية فشرب حلابها، ثم بثالثة، ثم برابعة... حتى شرب حلاب سبع شياة، وبات الرجل، وتفتح قلبه للإسلام، فأصبح مسلماً، معلناً إيمانه بالله ورسوله ﷺ، وأمر الرسول له في الصباح بشاة فشرب حلابها ثم أخرى فلم يستتمه، وهنا قال الرسول ﷺ: « المؤمن يشرب في معيٍّ واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء»[2]، فما بين يوم وليلة استحال الرجل من شره ممعن في التشبع، حريص على ملء بطنه، إلى رجل قاصد عفيف قنوع، ماذا تغير فيه؟

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي النبي ﷺ والثلاثة الخلفاء للكلاعي (٢/ ٤٧٥).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٦٣٢ برقم: ٢٠٦٣).

تغير فيه قلبه، كان كافراً فأصبح مؤمناً، وهل هناك أسرع أثراً من الإيمان؟»[1].

دور الإيمان في تقويم السلوك وحل المشاكل:

من هنا يتأكد أن بداية الحل لأي سلوك خاطئ يقوم به الفرد إنما يكون بالإيمان، سواء كان هذا الفرد صغيراً أو كبيراً، وسواء كان هذا السلوك عارضاً أو متأصلاً.

فالسلوكيات الخاطئة التي يمكن أن تصدر من المسلم على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

سلوكيات عارضة، وجديدة عليه لم تكن ملازمة له من قبل، مثل التكاسل عن أداء الصلوات في المسجد، والنوم عن صلاة الفجر، والاهتمام الزائد بالمظهر الخارجي، والحرص الشديد على اقتناء الكماليات، وعدم تحري الدقة في الكلام، وكثرة اللغو والغيبة، وعدم تحري الحلال والحرام في سائر الأمور، والفتور في أداء الواجبات الدينية، واستثقال قراءة القرآن وأداء النوافل، وضعف روابط الأخوة، وعدم القيام بحقوقها، والتقصير في القيام بحقوق الآخرين كبر الوالدين وصلة الأرحام.

القسم الثاني:

سلوكيات تعكس صفات متأصلة في نفس الإنسان، إما أنها انتقلت إليه بالوراثة والبيئة الأولى، أو أنه اكتسبها بكثرة تكرارها على مدار الأيام والسنين، حتى انتقلت إلى منطقة اللاشعور في عقله؛ فاكتسبت القدرة – بإذن الله – على الفعل التلقائي، وذلك مثل البخل، والجبن، والأنانية، والحِدَّة، وسرعة الانفعال، والحساسية، والتهور، وقلة الصبر والتحمل، وعدم حب القيام بخدمة الآخرين.

القسم الثالث:

سلوكيات تعكس أمراضاً أصابت القلب، مثل الكبر، والعجب، والغرور، والرياء، والنفاق، وكفران النعم والمعروف..

---

(١) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي (ص: ٢٦٨).

فهذه هي الأقسام الثلاثة، التي يمكن أن تندرج تحتها جميع السلوكيات الخاطئة، التي قد تصدر من المسلم... والله أعلم.

فما هو دور الإيمان معها؟!

الإيمان والإرادة:

فيما يخص القسم الأول فإن التشخيص الغالب لهذه الحالة أنها حالة من حالات الضعف النفسي، واتباع الهوىٰ وبخاصة في معاصي الجوارح حيث يضعف المرء أمام رغبات نفسه في ارتكاب تلك المعاصي.

والمراد بالضعف النفسي هو: الضعف أمام رغبات النفس، والانهزام الدائم أمامها.

أو بعبارة أخرىٰ فإن هذه الحالة تعكس ضعفاً في إرادة الشخص، يجعله دائم التراجع أمام نفسه.

وعلاج مثل هذه الحالة هو تقوية الإرادة إلىٰ الحد الذي يجعلها تقاوم رغبات النفس، وتنتصر عليها.

ولكي تقوىٰ إرادة الإنسان لابد له من وجود هدف واضح، يضعه نصب عينيه، ويسعىٰ إليه، وقضية يؤمن بها، وأمر يستشعر حاجته إليه فيسعىٰ إلىٰ تحقيقه.

فعندما يؤمن الإنسان بقضية ما فإنه يضحي في سبيلها بكثير مما يحب، فما بالك لو كانت هذه القضية هي الإيمان؟ الإيمان بالله، وطلب مرضاته، والطمع في جنته، والخوف من ناره،... ماذا سيكون حال صاحبه؟!

لذلك فإن العلاج الناجع لمثل هذه الحالات هو إيقاظ الإيمان بالله، والعمل علىٰ زيادته في القلوب.

فإذا ما استيقظ الإيمان فإن الكثير والكثير من هذه السلوكيات تزول تلقائياً، دون الحاجة إلىٰ وضع خطط لمعالجتها، ودون الحاجة إلىٰ مواجهة صاحبها، ودوام ذمه، وتقريع مسمعه بالكلام اللاذع، الذي قد يؤدي إلىٰ نتيجة عكسية، بأن يتمادىٰ في أخطائه، ولا يبالي بالآخرين، ويفر من كل من يواجهه بهذه الأخطاء.

ويمكن أن نشبه صاحب هذه الحالة بشخص سليم، أصابته جرثومة سببت له مرضاً حاداً، أثّر على مزاجه وتصرفاته، وظهرت عليه الكثير من الأعراض المصاحبة له.

هذا الشخص يحتاج إلى دواء يقوي جهاز المناعة لديه ليصل إلى الحد الذي يستطيع عنده أن يهزم هذه الجرثومة، ويقضى عليها، وبالقضاء عليها تختفي تلقائياً أعراض المرض.

يقول الحليمي رحمه الله – تعليقاً على حديث رسول ﷺ «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً...»[1] –: «فدل هذا القول على أن حسن الخلق إيمان، وأن عدمه نقصان إيمان»[2].

إن صلاح الجوارح وما تظهره من أفعال يرتبط بصلاح القلب، كما قال معلم البشرية ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[3].

كيفية تغيير الصفات:

في الحالة الثانية من حالات السلوكيات المعوجة نجد صاحبها شخصا قد ترك نفسه دون تهذيب ولا تزكية مما ورثه عن أبويه، أو اكتسبه من البيئة المحيطة به، فنمت داخله هذه السلوكيات المعوجة، حتى رسخت في نفسه، وانطلقت بصورة تلقائية دون أدنى مقاومة منه.

هذا الشخص يعترف بينه وبين نفسه – بل أمام الآخرين في بعض الأحيان – بما فيه، فهو قد يرى – على سبيل المثال – أنه جبان، ويتمنى أن يكون شجاعاً، وقد يرى أنه كسول، ويحلم بأن يصبح نشيطاً، وقد يُشَخِّص نفسه على أنه حسَّاس سريع التأثر بالكلمات والمواقف، ويتمنى أن يصبح طبيعياً في تعامله مع الناس، وقد يرى أنه حاد

---

(١) رواه أحمد (١٢/ ٣٦٤ برقم: ٧٤٠٢)، وأبو داود (٤/ ٢٢٠ برقم: ٤٦٨٢)، والترمذي (٣/ ٤٥٨ برقم: ١١٦٢)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٨٤).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٢٨).

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

الطباع سريع الغضب، ويتمنى أن يكون حليماً.

هذا الشخص لن يكتسب ما يريد من صفات حميدة، ولن يتخلى عما رسخ بداخله من صفات ذميمة إلا إذا تكلف فعل الصفة التي يريدها فترة طويلة، حتى تصير خلقاً راسخاً فيه، وتدخل منطقة اللاشعور.

الشعور واللاشعور:

يقول جودت سعيد: الإنسان الذي يحاول تعلم ركوب الدراجة الهوائية يعاني كثيراً في بداية تعلمه، والمشكلة التي يعاني منها هي الكيفية التي تحفظ له توازنه، ولكن بعد أن تترسخ لديه هذه المهارة "بطول التدريب"، يستطيع أن يثق بلاشعوره، ويمكنه أن يتحدث دون أن يكون قلقاً من مشكلة توازنه.

هذا الذي يحدث عند ركوب الدراجة الهوائية، هو الذي يحدث عند تعلم قيادة السيارة، أو الكتابة على الآلة الكاتبة، وهو الذي يحدث معنا في موضوع اللغة، ففي كل هذه الأحوال يتحول الأمر من الشعور إلى آلية فوق الشعور، أي إلى اللاشعور[1].

والمتدبر لآيات الله في كتابه العزيز يجد أن تكرار المعاني بأساليب مختلفة سمة من سمات القرآن، حتى يترسخ المعنى في اللاشعور فيصبح علماً يقينياً عند متدبره.

فلابد من تكرار الفعل المراد اكتسابه فترة طويلة؛ حتى يصبح من الصفات الراسخة في النفس، فمهما اقتنع الإنسان بأهمية النظام والترتيب في جميع شؤونه فإنه لن يتخلق بهذه الصفة إلا إذا تكلف ذلك فترة طويلة حتى تصير عنده عادة.

يقول رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتحلُّم، ومن يتحر الخير يُعطه، ومن يتق الشر يُوقَه»[2].

ويقول الرسول الله ﷺ: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن

---

(١) كن كابن آدم لجودت سعيد (ص: ٣٣، ٣٤).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الحلم (برقم: ٤)، والخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٤ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٤٢).

يتصبَّر يُصبِّره الله»[1].

فالنفس وما عودتها تتعود...

إذن فالأمر –كما يقول جودت سعيد – لا يقتصر على وجود الفكرة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تحويل الفكرة إلى إيمان يتدخل في سلوك الإنسان... والناس كثيراً ما يتحدثون عن العدل والمساواة، ولكنهم عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية الأكثر عمقاً في داخلهم[2].

التربية فعل مكرر:

يقول أبو حامد الغزالي: الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً؛ لتصير طبعاً انتهاءً، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح.

ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحِذْق في الكتابة له صفة نفسية (حتى يصير كاتباً بالطبع) فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق، ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن... فيتشبه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً.

وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس، حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً، حتى يصير ذلك طبعاً له، فلا علاج له إلا ذلك[3].

انفصال العلم عن العمل:

إن من أهم المشكلات التي يعاني منها المسلمون هي انفصال العلم عن العمل، فترى الواحد منا عالماً بالحلال والحرام، والحقوق والواجبات، بل بكثير من الفضائل

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٢٢ برقم: ١٤٦٩)، ومسلم (٢/ ٧٢٩ برقم: ١٠٥٣).

(٢) كن كابن آدم لجودت سعيد.

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٩٦، ٩٧).

والمستحبات، حافظاً للعديد من النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التي كثيراً ما يذكرها لغيره كلما سنحت الفرصة لذلك، فإذا ما نظرنا إلى واقعه، نجد أنه يختلف عما ينادي به؛ لأنه لم يروض نفسه ويعودها على ذلك، فالتربية ليست فقط هي التعلم، بل تحويل العلم إلى سلوك، ولن يكتسب شخص صفة ما إلا بممارستها فترة طويلة حتى تصير طبعاً فيه.

دور الإيمان في التربية السلوكية:

إن إلزام النفس القيام بأفعال لم تتعود عليها من قبل فيه الكثير من المعاناة لها، وستحاول أن تتنصل من الالتزام بها بشتى الطرق، من هنا تأتي أهمية وجود دافع ذاتي، وغاية تجعلها تتحمل هذه المعاناة.

هذا الدافع الذاتي هو الإيمان بالله؛ فعندما يوجد في القلب وتزداد مساحته فيه، فإنه من شأنه أن يوجه صاحبه إلى كل خير.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ في كثير من توجيهاته يسبقها بقوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر..."؟

فالحبيب المصطفى ﷺ يريد أن يلفت انتباهنا إلى أن فعل الخيرات وترك المنكرات يحتاج إلى قوة دافعة، هي الإيمان والتقوى، وبدونهما تصعب علينا تلك الأعمال.

ومثال ذلك ما رواه أبو شريح الخزاعي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت»(١).

والقرآن كذلك ينبه على أن الإيمان هو القوة الدافعة لفعل الخيرات.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ويقول تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ

(١) رواه البخاري (٨/ ١١ برقم: ٦٠١٩) ومسلم (١/ ٦٩ برقم: ٤٨)، واللفظ له.

كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الإيمان وأمراض القلوب:

في القسم الثالث من أقسام السلوكيات الخاطئة نجد أن هناك مرضاً أو أمراضاً أصابت القلب، وتمكنت منه، وانعكس أثرها على السلوك.

وعلاج مثل هذه الحالات ليس بالأمر الهين؛ لأن الأمراض قد تمكنت من القلب، واستولت عليه ورسخت في العقل، وانتقلت إلى منطقة اللاشعور، والعلم اليقيني الراسخ.

ومن أهم هذه الأمراض: الإعجاب بالنفس وما يؤدي إليه من كبر وغرور.

هذا المرض العضال قد يكون من أسبابه طبيعة نشأة صاحبه في أسرة تعتز بنسبها، أو جاهها وتراثها، أو قد يكون تميزه على أقرانه وكثرة مدح الناس له، مع كثرة إنجازاته، ونجاحاته المستمرة في محيط عمله من أسبابه كذلك، مما رسَّخ في عقله تميزه عن الآخرين، فانطلقت تصرفاته بصورة تلقائية لتعكس هذه العقيدة، لذلك كان الكبر أكبر عائق يعوق العبد عن دخول الجنة، ففي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(١).

خطورة الكبر:

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «وإنما صار الكبر حجاباً دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها؛ لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحق وفيه العز، ولا يقدر على أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على

---

(١) رواه مسلم (١/ ٩٣ برقم: ٩١).

قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم وفيه العز... فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه»[١].

إن الكبر مرض عضال، وأخطر ما فيه هو رفض صاحبه للحق، وانتقاصه من الناس، كما قال رسول الله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[٢].

إنه «الإدمان المستعصي الذي يمسك بخناق الناس، ويسد عليهم منافذ الفهم... هو رفعهم لأنفسهم فوق مستواهم البشري، مما يجعلهم يعتقدون أنهم ليسوا مثل الناس، وأنهم مخلوقات أخرى، وهذا هو مذهب إبليس... وهو أن ترى نفسك وعشيرتك وقومك ومذهبك فوق الناس وأنكم أحباء الله وعياله المفضلون، سواء عملتم الصالحات أم لم تعملوها... وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان منكم، وأن الآخرين ليسوا على شيء!

الكبر هو الذي يجعلك تحتقر الآخرين وتحتفظ لنفسك بالامتيازات، وترفض أن يطبق عليك القانون الذي يطبق على البشر...»[٣].

أمثلة للمتكبرين:

وإذا ما أردت أن تعرف كيف يمكن أن يصنع الكبر بصاحبه، فانظر ماذا فعل بفرعون وملئه، لقد جاءتهم آيات واضحة من الله عز وجل لا تقبل الشك، فلماذا رفضوا وكذبوا موسى عليه السلام وحاربوه؟! ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل: ١٣ – ١٤].

لقد منعهم الكبر، وطلب العلو في الأرض من الإيمان بالله، وكذلك كان شأن المكذبين أمثال عاد قوم هود: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٢) جزء من حديث في صحيح مسلم (١/ ٩٣ برقم: ٩١).

(٣) كن كابن آدم (ص: ٢٥).

[فصلت: ١٥].

والرجل الذي رآه الرسول ﷺ يأكل بشماله، فطلب منه أن يأكل بيمينه، لعلمه ﷺ أنه يقدر على ذلك، فرفض الرجل الانصياع لأمر الرسول ﷺ مدَّعياً أنه لا يستطيع، فقال له رسول الله ﷺ: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر[١].

هذا المرض عندما يتمكن من شخص ما فإن علاجه غاية في الصعوبة... هذه الصعوبة تكمن في أن هذا الشخص عنده قناعة يقينية بأفضليته على غيره، فهو يُعَظِّم ذاته، ويعتقد في إمكاناته؛ لذلك لا يتقبل النصح من أحد، ولا يعترف بمرضه مهما واجهه الآخرون به، فما أسهل تبريره لدوافعهم في الاتجاه الذي يحافظ على قدسية ذاته.

ولكي تُعالج مثل هذه الحالة لابد أن يحدث زلزال شديد في تصورات هذا الشخص عن نفسه، فيهز الثوابت ويجعل سقف عزته وعلوه عن الناس يخر إلى القواعد.

لا بديل عن صدمة عنيفة، تشككه في علمه الراسخ عن نفسه وإمكاناته، وتخرج عقيدته تجاه نفسه من اللاشعور.... لابد من قوة خارجية تكسر كبرياءه.

يقول ابن القيم رحمه الله: فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفي به عباده شره، ويُنكس به رأسه، ويستخرج منه داء العجب والكبر والمنَّة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال[٢].

وإلى أن يحدث هذا يبقى وجوده في جو إيماني من الأهمية بمكان لأنه يخفف من آثار المرض، ويهيئه لمواجهة نفسه بإذن الله.

علاج الرياء:

علاج الرياء – وهو نوع آخر من الأمراض التي تصيب القلب – أيسر من علاج الكبر والله أعلم؛ لأن سببه الرئيسي هو حب الدنيا والشهرة والرفعة في أعين الناس.

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٥٩٩ برقم: ٢٠٢١).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٧٠).

وبقوة الإيمان وشدة الخوف من الله يتم علاج مثل هذه الحالة.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فضعف الإيمان بالله وعدم الخوف منه سبحانه جعلت الشخص المصاب بهذا المرض يرائي الناس؛ لتعلو منزلته عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ [النساء: ٣٨].

فعلاجه إذن يكون بزيادة الإيمان والخوف من الله.

فالطريق إلى إخلاص العمل لله، وعدم انتظار أي جزاء دنيوي مقابل له هو شدة الخوف منه سبحانه ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠﴾ [الإنسان: ٨ - ١٠].

فهؤلاء الأطهار عندما خافوا ربهم هذا الخوف الشديد؛ أطعموا الطعام مع حبهم له، دون انتظار أي مقابل لهذا الإطعام، ولو كان كلمة شكر أو ثناء.

وخلاصة القول: إن السلوكيات المنحرفة عن الإسلام قد يكفي الإيمان لعلاجها تماماً مع بعض التوجيه البسيط، أو تحتاج إلى الإيمان كقوة دافعة تعين صاحبها على تغيير ما بنفسه، وتحمل مرارة ترك المألوف وتغيير العادات.

ويبقى القسم الأخير حيث يشكل الإيمان بالنسبة إليه الجو الصحي الذي فيه تقل حدة المرض، ويتيح الفرصة لصاحبه لمواجهة نفسه والاعتراف بمرضه، والعزم على علاجه، والله المستعان.

خطورة عدم البدء بالإيمان:

رأينا فيما سبق أن الإيمان إما أن يكون هو العلاج المباشر لكثير من السلوكيات الخاطئة، وإما أن يكون هو الخطوة الأولى لعلاج الحالات المستعصية.

وكلنا يعلم أن الطبيب الناجح هو الذي يشخص المرض من خلال أعراضه، ولا

يتعامل مع كل عرض على حدة، بل يصف الدواء الذي يقضي على السبب فتختفي الأعراض نتيجة لذلك وليس العكس.

فقد تختفي الأعراض، وتخف حدتها بالمسكنات، ويبقى المرض كامناً، ومزمناً، ينتظر اللحظة المناسبة للظهور مرة أخرى.

وكذلك القلب عندما يمرض بالهوى، فإن الأعراض تظهر على الجوارح، فإذا ما أردنا أن نعالج هذه الآثار فعلينا أن نعالج السبب، ونخرج الشهوة من القلب.

معنى هذا أننا إذا ما رأينا سلوكاً معوجاً، أو تصرفاً خاطئاً من شخص ما، فلا ينبغي أن نسارع بنقده ومطالبته بتغييره؛ لأن هذا قد يؤدي به إلى العناد، ومحاولة إثبات صحة موقفه، وقد تأخذه العزة بالإثم، وبدلاً من أن يراجع نفسه، فإنه يعمل على تشويه صورة من حوله، كل هذا لأننا بدأنا بالفرع وتركنا الأصل، تركنا المنكر الأكبر – وهو غلبة الهوى – وتعاملنا مع المنكر الأصغر.

وقد يقول البعض أنه لا يستطيع رؤية المنكر دون أن ينهى عنه... هذا صحيح؛ فالنهي عن المنكر واجب شرعي، وله درجاته في الإنكار، ولكن ما نود أن نلفت الانتباه إليه هو تغيير طريقة الإنكار، والتركيز على علاج السبب الذي أدى إلى ظهور هذا المنكر.

فلنبدأ بالمعروف، ولنعمل على إصلاح القلب لتنصلح الأعمال.

الباب الثاني

كيف نبدأ بالإيمان؟

تمهيد: حول شروط البداية.

الفصل الأول: شدة الخوف من الله.

الفصل الثاني: حُسن التعامل مع القرآن.

الفصل الثالث: تعظيم أمر الصلاة بإدراك حقيقتها والاجتهاد في إقامتها.

الفصل الرابع: الفكر والذكر.

الفصل الخامس: مداومة الإنفاق في سبيل الله.

الفصل السادس: قيام الليل والتضرع بالأسحار.

الفصل السابع: الصيام.

الفصل الثامن: التعلق بالمساجد.

الفصل التاسع: اغتنام مواسم الخيرات.

الفصل العاشر: الصحبة الصالحة.

تمهيد
حول شروط البداية

تأكد لدينا بفضل الله أن الدافع الرئيس الذي يدفع الإنسان إلى القيام بعمل إرادي (ما) إما الإيمان أو الهوى، وأن سلوك الفرد وأفعاله تعكس حجم كل منهما في قلبه، وتأكد لدينا كذلك أنه في حالة وجود مظاهر لضعف الإيمان عند شخص ما فإن الأولى أن يتجه المصلحون إلى أصل الداء ليعالجوه، مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

فلقد دل هذا الحديث العظيم على أن صلاح أفعال الجوارح ناتج عن صلاح القلب، وفسادها كذلك ناتج عن فساده.

والمراد بصلاح القلب هو تحرره من الشهوات والشبهات، فيصبح قلباً سليماً.

وبداية إصلاح القلب إنما تكون بزيادة مساحة الإيمان بالله فيه، وارتفاع مستوى وقدر هذا الإيمان إلى الدرجة التي يعلو فيها على حجم الهوى داخله، ليتسلم منه مركز القيادة والإرادة فتنطلق الأعمال بسهولة ويسر، مستجيبة لأوامر قائدها.

أثر الجواذب الأرضية في غفلة الإنسان:

لكي ندرك حجم الشحنة الإيمانية التي تحتاجها قلوبنا، علينا أن نتفكر في خلق الإنسان، وأنه مركب من روح وطين... الروح نفخة من روح الله، والطين جزء من الأرض، يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ – ٧٢].

والمطلوب من الإنسان أن يتصل بالله، وأن يستمسك بالعروة الوثقى التي تربطه بالسماء، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

فإن فعل ذلك أصبح عبداً ربانياً منسوباً إلىٰ الله، متصلاً به... أما إذا ترك نفسه للأرض جذبته إليها، وكلما ازداد ارتباطاً بها، ضعفت صلته بالسماء.

وجواذب الأرض كثيرة، ذكرها القرآن في أكثر من موضع، منها قوله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالمال، والبنون، والنساء، والذهب، والأراضي، والعقارات، والسيارات... كلها جواذب تجذب الإنسان إلىٰ الأرض، وتعلق قلبه بها، فيفرح بحصوله عليها، ويحزن علىٰ فواتها منه، وكلما زاد حبه لها قل حبه لنصيبه في الآخرة، واشتدت غفلته عنها.

قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ»(١).

إن جواذب الأرض كثيرة، من استسلم لها أضعفت صلته بالله عز وجل حتىٰ يصل إلىٰ مرحلة ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومن تخلص منها كان العبدَ الرباني الموصولَ به سبحانه، المنسوب إليه ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إيقاظ القلب هو البداية:

إن البداية الصحيحة لسير القلب إلىٰ الله إنما تكون باليقظة؛ لينتبه الغافل، ويفيق السكران، ويستيقظ الراقد، فيستشعر الجميع حاجتهم إلىٰ الله، وإلىٰ النجاة من حسابه.

يقول ابن القيم: فأول منازل العبودية: اليقظة، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين... والله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها علىٰ السلوك! فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمر لله بهمته إلىٰ السفر إلىٰ منازله الأولىٰ، وأوطانه التي سُبي منها.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٢/ ٤٧٠ برقم: ١٩٦٩٧)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٨٦ برقم: ٧٠٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٣ برقم: ٧٨٥٣)، وحسنه الأرنؤوط في تخريج المسند.

واعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبه نائم وطرفه يقظان... فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم.... وكأنها هي القَومة لله المذكورة في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]، فالقومة لله هي اليقظة من سِنَة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة... [(١)].

فبدون هذه اليقظة يظل الراقد راقداً، والغافل غافلاً عما يحدث حوله، وعن المصير الذي ينتظره، وبدونها تؤدىٰ الطاعات بلا روح، فلا تُحدث في القلب الأثر المطلوب، وإن تأثر بها فتأثر لحظي سرعان ما يزول.

وهذا يفسر ما نلحظه علىٰ أنفسنا، وعلىٰ من حولنا، بأننا نكثر من الصلاة، ومن قراءة القرآن، ولكن لا نجد أثراً لذلك في قلوبنا، وعلىٰ سلوكياتنا والله أعلم.

وليختبر كل منا نفسه ليتأكد لديه هذا المعنىٰ، ولينظر إلىٰ الصلاة، وإلىٰ الذكر، وقراءة القرآن... هل يكون حاله بعد القيام بها أحسن من حاله قبلها؟

فمن المفترض أن تقوم هذه العبادات وغيرها بزيادة الإيمان في القلب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، ولكن واقعنا يُخبر بغير ذلك، فغالبا ما يكون حالنا قبلها كحالنا بعدها.

.. نعم، هذه هي حقيقة الأمر، فلكي تُحدِث الطاعات في القلب الأثر المطلوب، لابد من توافر الحياة فيه أولاً لتنطلق منه ثم يعود أثرها إليه بمزيد من الحياة والخشية.

فالبداية إذن ليست بالمزيد من الطاعات والأوراد التي تؤدَّىٰ بالجوارح فقط، بل بعودة الحياة إلىٰ القلب، وهذا يحتاج إلىٰ شحنة إيمانية كبيرة تقهر الهوىٰ وتحرر الإرادة من أسره.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٠١).

من علامات حياة القلب:

لدخول نور الإيمان في القلب علامات، يستطيع الفرد أن يفتش عنها، فإن لم يجدها فليعلم أنه مثلنا، يحتاج إلى بداية قوية تعيد الحياة لقلبه مرة أخرى:

- فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فقالوا: يا رسول الله وما هذا الشرح؟ قال: «نور يُقذَفُ به في القلب فينفسح له القلب»، قال: فقيل: فهل لذلك من أمارة يُعرَف بها؟ قال: «نعم»، قيل: وما هي؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»[(١)].
- ويبين الرسول ﷺ بعضا من هذه العلامات، فيقول لأبي ذر رضي الله عنه: «أي عُرى الإيمان أوثق؟ فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»[(٢)].
- ومن علاماته: أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى المرء مما سواهم ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].
- ومن علاماته أيضاً: كراهية الكفر بكل صوره، والخوف الشديد من الوقوع فيه، يقول الرسول ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذَف في النار»[(٣)].
- ومن علامات حياة القلب أيضاً: عدم الخوف من أحد من المخلوقين، يقول

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٧٧ برقم: ٣٤٣١٥) والبيهقي في الزهد (ص: ٣٥٦ برقم: ٩٧٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٢١٥ برقم: ١١٥٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٧٦ برقم ٩٠٦٨)، عن ابن عباس رضي الله عنه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٩٩٨).

(٣) رواه البخاري (١/ ١٢ برقم: ١٦)، ومسلم (١/ ٦٦ برقم: ٤٣) واللفظ له.

تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فالإيمان الصادق من شأنه أن يجعل صاحبه لا يخشىٰ سوىٰ الله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ولا يتوكل إلا عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

- ومن علاماته: الإذعان التام لحكم الشرع في كل الأمور ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، فالإيمان العميق هو الذي يحجز صاحبه عن ارتكاب المعاصي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وليس معنىٰ هذا أن المؤمن لا يخطئ، ولا يرتكب إثماً، بل هو بشر فيه ما يجذبه إلىٰ الطين، ولكن يختلف عن غيره في سرعة عودته، وتوبته إلىٰ الله... فلا يتمادىٰ في الخطأ، ولا يتعمد تكرار الذنب ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فهذه وغيرها علامات في ممارسات الإنسان وسلوكياته، وهي بجانب العلامات القلبية – التي أشرنا إلىٰ بعض منها في بداية هذا الكتاب – تُشكل مقياساً ومعياراً، يستطيع الواحد منا أن يقيس نفسه عليه، ليدرك مدىٰ حاجته لإيقاظ قلبه، وتقوية إيمانه.

شروط البداية:

لكي نبدأ بإذن الله في هذا الطريق .. طريق إصلاح القلب بالإيمان .. لابد من توافر شرط مهم في أنفسنا، وعند من نريد له الخروج من دائرة ضعف الإيمان.

هذا الشرط هو: وجود رغبة أكيدة، وعزيمة صادقة لتغيير حاله، وصلاح قلبه، وعودة الحياة إليه، فهي التي ستدفعه بقوة إلىٰ سلوك هذا الطريق بعد أن يتبين له ملامحه– بإذن الله –.

ومنطلق هذه الرغبة إنما يكون من قناعته بأنه لا يحمل قلباً حياً حياة حقيقية، وخوفه من الاستمرار علىٰ حاله هذا، ورغبته وطمعه في التغيير، فلا تغره كثرة أعماله

بالجوارح دون حضور القلب فيها.. يقول ابن القيم: ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة ولا إقبال على الله: قليل المنفعة دنيا وأخرى، كثير المؤنة، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود، فإنه – وإن كثر – متعب غير مفيد، فهكذا العمل الخارجي القشري بمنزلة النخالة، كثيرة المنظر، قليلة الفائدة، فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، وهكذا ينبغي أن تكون سائر الأعمال التي يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالطواف وأعمال المناسك ونحوها[1].

والقرآن يحوي العديد من الآيات التي تؤكد على أن الرغبة الأكيدة هي مفتاح البداية، يقول تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥].

ويذكرنا القرآن أن الكون وإن كان مليئاً بالآيات التي تُذَكِّر الناس بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته، فإن هذا كله لن ينتفع به إلا من يريد الهداية، أما المستغني عنها فلن تُحرك له ساكناً، مهما كان عددها وما تحمله من دلائل، يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فالبداية: رغبة أكيدة، فعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل نفر ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، قال فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه»[2].

مظاهر قوة الرغبة:

لقد بيّن القرآن مظاهر قوة الرغبة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس: ٨ – ١٠]، وهي:

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٥٣).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧١٣ برقم: ٢١٧٦).

- جاءك: بنفسه.
- يسعى متلهفاً من شدة الحاجة.
- وهو يخشى: يحذر فوات مطلوبة ويبحث عن طوق النجاة الذي يقوده إلى التعرض لمغفرة الله ورضوانه.

وبعون الله وتوفيقه يمكننا – كما قيل سابقا – استثارة الرغبة في إصلاح القلب وعودة الحياة إليه بدوام التذكير بمعنى الربانية، والقلب الحي، وحاجتنا الماسة إليه، مع الاستعانة الدائمة بالله عز وجل.

وسائل إحياء القلوب:

سيلحظ القارئ للصفحات التالية أن الوسائل المذكورة لإحياء القلوب ليست بجديدة عليه؛ فهي بفضل الله موافقة للكتاب والسنة، وكل ما حدث هو إعادة طرحها بشكل يغلب عليه الطابع العملي، وهي كذلك ليست على سبيل الحصر.

والمطلوب من الواحد منا السير المتوازي في هذه الوسائل، وبقدر همته في الأخذ بها – كما وكيفا – يكون طمعه ورجاؤه في رحمة الله بإحياء قلبه وإيقاظه من رقدته.

ومع أهمية السير المتوازي في هذه الوسائل؛ تبقى ضرورة الاهتمام أكثر وأكثر بالنعمة العظمى التي أكرم الله بها هذه الأمة ألا وهي القرآن الكريم، وكيف لا وهو الطريق السهل الآمن لإحياء القلب وإصلاحه بالإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولقد كان البدء بوسيلة «شدة الخوف من الله» قبل وسيلة «حُسن التعامل مع القرآن» لأن الخوف من الله يهيئ القلب لاستقبال القرآن استقبالا صحيحا ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

الفصل الأول

شِدَّة الخوف من الله

الفصل الأول
شدة الخوف من الله عز وجل

لكي يستيقظ الراقد، ويفيق من سكرة الهوى، وتنقطع صلة قلبه بالأرض، لابد من وجود مؤثر ضخم يزعجه وينبهه.

هذا المؤثر، وهذه الشحنة، هي الخوف من الله عز وجل .. خوفاً يصل بنا إلى درجة الانزعاج والفزع.

.. خوفاً يدفع إلى العمل والانتباه، لا خوفا يهز المشاعر، ويرسل العبرات، ثم يمضي إلى حال سبيله، فنعود بعد رحيله إلى ما كنا عليه من نوم وغفلة، وهذا هو حال الكثير منا عندما يستمع إلى موعظة من المواعظ، أو يقرأ في كتب الرقائق، أو يسير في جنازة، أو يرى حادثاً أمامه، وتفسير ذلك: أن الخوف القادر على أن يصبح دافعاً للعمل لابد له من قدر ودرجة يصل إليها، فإن لم يصل إلى هذه الدرجة؛ يصبح التأثر به ضعيفا لا يدعو للعمل، أو لا يحث على الاستقامة.

الخوف هو بداية الدعوات:

والمتأمل لسير الأنبياء والمرسلين، وأصحاب الدعوات، يجدهم قد بدأوا دعوتهم بتحذير قومهم من المآل الذي ينتظرهم إن استمروا على ما هم عليه، فهذا نوح عليه السلام: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [نوح: ١ – ٢].

وهذا إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات: ٨٣ – ٨٧].

وانظر ماذا قال هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وكذلك فعل موسى عليه السلام مع فرعون ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤١].

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عديّ» – لبطون قريش – حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدِّقيّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»(١).

وفي روايةٍ أخرى قال رسول الله ﷺ: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبُلُّها ببلالها»(٢).

ولقد كانت هذه الوسيلة هي بداية دعوة إمام الدعاة في هذا القرن "حسن البنا" عندما بدأ دعوته بالإسماعيلية – إحدى محافظات شمال شرق مصر – فوجد أنّ المساجد بها – على ندرتها – لا يؤمها إلا الشيوخ الفانون، وذوو العاهات، أما آلاف الشباب فلا مقر لهم بعد الخروج من عملهم إلا المقاهي... ولما كانت الدعوة محتاجة إلى الشباب، فلا بد إذن من الاتجاه إلى المقاهي.

دخل أحد المقاهي المكتظة، وعلى حين فجأة تناول جذوة من إحدى النراجيل، وألقى بها وهي ملتهبة من أعلى، فنزلت على إحدى المناضد وسط الجالسين، وتناثرت، فارتاع الحاضرون، وغادروا أماكنهم مذعورين، وتلفتوا يبحثون عن مصدرها، فرأوا شاباً واقفاً على كرسي يقول لهم: إذا كانت هذه الجذوة الصغيرة قد بعثت فيكم الذعر إلى هذا الحد، فكيف تفعلون إذا أحاطت بكم النار من كل جانب، ومن فوقكم، ومن تحت أرجلكم، وحاصرتكم فلا تستطيعون ردها؟... وأنتم اليوم استطعتم الهرب من

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١١١ برقم: ٤٧٧٠)، ومسلم (١/ ١٩٣ برقم: ٢٠٧).

(٢) رواه مسلم (١/ ١٩٢ برقم: ٢٠٤)، ومعنى «سأبلُّها ببلالها»: سأصلكم في الدنيا، ولا أغني عنكم من الله شيئا (لسان العرب ١١/ ٦٤).

الجذوة الصغيرة، فماذا أنتم فاعلون في نار جهنم ولا مهرب منها؟... وهكذا استمر في موعظته، يضرب على أسماع مرهفةٍ، وقلوب متفتحة، وأحاسيس في أشد حالات اليقظة من أثر المفاجأة، فكان لها أعمق الأثر في نفوس الحاضرين، واتجهوا إليه يسألونه عن نفسه، وعن عمله، وعن مقره، وبدأوا يلتفون حوله، ويغرمون بالاستماع إليه[1].

من خاف أدلج:

إنّ الخوف من الله هو الوسيلة الأكيدة لإيقاظ الراقدين، وتنبيه الغافلين، استخدمها الرسل أجمعون، والدعاة الصادقون، ففتح الله على أيديهم قلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً.

وهو الدواء الناجع لمن أسر الهوى قلبه وغلب عليه حب الدنيا.

وهو البداية الحقيقية لسير القلب إلى الله عز وجل، يقول رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إنّ سلعة الله الجنة»[2].

عن إبراهيم بن شيبان قال: «الخوف إذا سكن القلب أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه، وأسكت اللسان عن ذكر الدنيا»[3].

وقال ذو النون: «الناس على الطريق ما لم يزُل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطريق»[4].

ولم لا يكون على هذه الدرجة من الأهمية؟ وقد مدح الله أنبياءه عليهم السلام وأولياءه بمثل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ لمحمود عبد الحليم (١/ ٦٦).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٣٣ برقم: ٢٤٥٠) وقال حديث حسن غريب، ورواه الحاكم (٤/ ٣٤٣) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٩٥٤).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٢٦٨ برقم: ٨٦٠).

(٤) تهذيب مدارج السالكين (ص:٢٧).

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وأثنىٰ علىٰ ملائكته لخوفهم منه فقال تعالىٰ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ووبخ الكفار علىٰ غفلتهم عنه فقال علىٰ لسان نبيه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قيل في التفسير: ما لكم لا تخافون عظمة الله(١).

إن الخوف من الله هو الذي منع ابن آدم أن يقتل أخاه عندما همّ بقتله ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

وهو الذي دفع الرجلين من بني إسرائيل إلىٰ حثِّ قومهما علىٰ الدخول علىٰ الجبارين، وقتالهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وهو الذي يدفع العباد إلىٰ إخلاص العمل لله فلا يبتغون به جزاءً دنيوياً، ولا شكوراً ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] لماذا؟ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

وهو من أهم صفات جيل التمكين ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣ – ١٤].

وهو وصية الله عز وجل لعباده ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وهو سبيل الفوز يوم القيامة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ١٨٩).

وهو رأس الحكمة كما كان يقول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: «خير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل»[1].

ولقد بين القرآن أن التشخيص الصحيح لحال الكثير من المعرضين هو عدم الخوف من الآخرة، فليست القضية في آية يرونها، أو معجزة يقتنعون بها: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣].

فلو خافوها ما طلبوا هذه الطلبات ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ [المدثر: ٤٩ – ٥٣].

الخوف من الله مستهدف الطاعات:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالعباد ترتفع منزلتهم عند ربهم أو تهبط بمقدار التقوى في قلوبهم.

لذلك كان مستهدف الطاعات هو زيادة التقوى والخوف من الله عز وجل في القلوب، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فليس المطلوب من العباد أن يؤدوا الطاعات بجوارحهم دون أن تتأثر بها قلوبهم ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فالمراد من إراقة دماء الهدي في الحج زيادة التقوى في القلوب.

وكذلك الحال في سائر العبادات، فعلى سبيل المثال في الصيام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وتلاوة القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٢٠١ برقم: ٧٢٨).

والسجود: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

فالتقوى هي مقصود العبادات ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي ظلها يسهل قيادة القلوب والإذعان إلى أوامر الله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

الخوف من الله أصل كل خير:

يقول أبو سليمان: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله[١].

ويقول أحمد بن عاصم الأنطاكي: قلة الخوف من قلة الحزن في القلب، وإذا قلّ الحزن في القلب خرب كما يخرب البيت، إذا لم يُسكن خرب[٢].

وقال مالك بن دينار: الحزن تلقيح العمل الصالح[٣].

وعن إبراهيم التيمي قال: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

من أحوال الخائفين:

لقد كان الخوف الشديد من الله عز وجل هو سمة الأنبياء والصالحين، يقول الرسول ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد. لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[٤].

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٢٦٤ برقم: ٨٤٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٦٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٧٠).

(٤) رواه أحمد (٣٥/ ٤٠٥ برقم: ٢١٥١٦)، وابن ماجه (٥/ ٢٨٣ برقم: ٤١٩٠)، والترمذي (٤/ ٥٥٦ برقم: ٢٣١٢)، وقال حديث حسن غريب، والحاكم (٤/ ٦٢٣ برقم: ٨٧٢٦) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٧٢٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، أراك شبت! فقال: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوِّرت»[(١)].

ويقول عبد الله بن الشخير بن عوف رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء[(٢)].

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة، فقال: «علام اجتمع عليه هؤلاء؟» قيل: على قبر يحفرونه، ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعا حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه، قال البراء: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا قال: «أي إخواني لمثل اليوم فأعدوا؟»[(٣)].

وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يقول عنه القرآن: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥].

يقول ابن القيم: «ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق رضي الله عنه يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبدٍ مؤمن»[(٤)].

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي بكر رضي الله عنه وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مه، غفر الله لك، فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد[(٥)].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٥٢ برقم: ٣٠٢٦٨)، والترمذي (٥/ ٤٠٢ برقم: ٣٢٩٧)، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (٢/ ٣٧٤ برقم: ٣٣١٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٩٥٥).

(٢) رواه أحمد (٢٦/ ٢٣٨ برقم: ١٦٣١٢)، وأبو داود (٢/ ١٧٣ برقم: ٩٠٤) واللفظ له، والنسائي (٣/ ١٣ برقم: ١٢١٤)، وابن خزيمة (٢/ ٥٣ برقم: ٩٠٠)، والحاكم (١/ ٣٩٦ برقم: ٩٧١) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الأرنؤوط في تخريج المسند وأبي داود.

(٣) رواه أحمد (٣٠/ ٥٦٣ برقم: ١٨٦٠١)، وابن ماجه (٥/ ٢٨٦ برقم: ٤١٩٥)، وحسنه النووي في خلاصة الأحكام (٢/ ٨٩٤)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٧٥١).

(٤) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٥٦٠).

(٥) رواه الإمام مالك في الموطأ (٥/ ١٤٣٨ برقم: ٣٦٢١ – تحقيق الأعظمي).

وكان يبكي كثيراً ويقول: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»[1].

وقال قتادة: «بلغني أن أبا بكر رضي الله عنه قال: ليتني كنت خضرة تأكلني الدواب»[2].

وهذا عمر رضي الله عنه قرأ سورة الطور، حتى إذا بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور: ٧] بكى واشتد بكاؤه، حتى مرض وعادوه[3].

وقال لابنه وهو في الموت: «ضع خدي بالأرض، قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال: «ضع خدي بالأرض لا أم لك»، في الثانية أو في الثالثة، ثم شبك بين رجليه، فسمعته يقول: «ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي» حتى فاضت نفسه[4].

وكان رضي الله عنه يمر بالآية في ورده بالليلة فتخيفه، فيبقى في البيت أياماً يُعاد، يحسبونه مريضاً[5].

وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء[6].

وقال له ابن عباس رضي الله عنهما: «مصَّرَ الله بك المصار، وفتح الله بك الفتوح، وفعل، وفعل»، فقال: «وددت أني أنجو، ولا أجر ولا وزر»[7].

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته، وقال: «لو أنني بين الجنة والنار ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير»[8].

---

(١) رواه وكيع في الزهد (برقم: ٢٩).

(٢) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٨٠)، والأثر رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المتمنين (برقم: ١١).

(٣) عزاه ابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٦٠٧) لابن أبي الدنيا، وهو بنحوه في الرقة والبكاء (برقم: ١٠٠).

(٤) ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٦٠).

(٥) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (برقم: ٦٢٩).

(٦) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٦٣٨).

(٧) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٦٥٩).

(٨) حلية الأولياء (١/ ٦٠)، وروى ابن المبارك في الزهد (برقم ١٠٠٥) نحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذا أبو الدرداء ﵁ كان يقول: «إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت، فماذا عملت فيما علمت؟»(١).

وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ما أكلتم طعاما ولا شربتم شرابا على شهوة أبدا ولا دخلتم بيتا تستظلون في ظله أبدا ولبرزتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتبكون على أنفسكم ثم قال من حدث بهذا الحديث لوددت أني شجرة أعضد في كل عام وأؤكل»(٢).

وقرأ تميم الداري ﵁ ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح(٣).

وقال رجل عند عبد الله بن مسعود ﵁: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إلي، فقال عبد الله: «لكن ههنا رجل ود لو أنه إذا مات لم يبعث – يعني نفسه –»(٤).

ويبكي أبي هريرة ﵁ في مرضه، فقيل له: ما يبكيك يا أبا هريرة؟! قال: «أبكي لبعد سفري، وقلة زادي، أصبحت في صعود مهبطة على جنة أو نار، فلا أدري إلى أيتها يُسلَك بي»(٥).

وقالت فاطمة بنت عبد الملك – امرأة عمر بن عبد العزيز – لمغيرة بن حكيم: «يا مغيرة، قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة وصوما من عمر بن عبد العزيز، ولكن لم أر رجلا من الناس قط كان أشد فرقا من ربه من عمر بن عبد العزيز، كان إذا دخل بيته ألقى نفسه في مسجده، فلا يزال يبكي، ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ،

---

(١) الزهد لابن المبارك (برقم: ٣٩).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ٢٦٨ برقم: ٧١١١).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ١٠١٥).

(٤) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (برقم: ٨٦٩).

(٥) شعب الإيمان للبيهقي (١٣/ ٢٠٨ برقم: ١٠٢٠٢).

فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع»[1].

وبكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم العبر، قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: «ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله: فريق في الجنة، وفريق في السعير» ثم صرخ وغشي عليه[2].

وقال المروزي: كان أبو عبد الله – يعني الإمام أحمد بن حنبل – إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان عليّ أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئاً، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذكر[3].

لماذا الخوف من الله؟

قد يسأل سائل: لماذا كان خوف هؤلاء الصالحين، وهم على ما هم عليه من تقوى وصلاح؟!

إن للخوف من الله عز وجل أسباباً كثيرة، ومجالات متعددة، ينبغي أن نتفكر فيها بصورة مستمرة، ليستمر حزننا وخوفنا منه سبحانه وتعالى.

فمن الأمور التي تدفع إلى الخوف من الله عز وجل:

أولا: الخوف مهابة لله عز وجل:

يقول تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

«فكلما اقترب العبد من مولاه، وتعرف على أسمائه وصفاته، ونعوت كماله، ازدادت هيبته وإجلاله وخوفه منه.

(١) الزهد لابن المبارك (برقم: ٨٨٤).
(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (برقم: ٥٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥، ٢١٦).

فهو سبحانه يداول الأيام بين الناس ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦].

يقلب الدول، فيذهب بدولة ويأتي بأخرىٰ، والرسل من الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بين صاعد إليه بالأمر، ونازل من عنده به، وأوامره متعاقبة علىٰ تعاقب الآيات، نافذة بحسب إرادته، فما شاء كان كما يشاء، في الوقت الذي يشاء، علىٰ الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ في السماوات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها، وفي البحار، وفي الجو، وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها، ويصرفها، ويحدث فيها ما يشاء»[1].

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

فهو سبحانه لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات، ولا في قرار البحار، ولا تحت أطباق الجبال، قال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

يقول ابن القيم:

«وهو العليمُ أحاطَ علماً بالذي ... في الكونِ من سرٍّ ومنْ إعلانِ

وكذاكَ يعلمُ ما يكونُ غداً وما ... قد كانَ والموجودَ في ذا الآنِ

وكذاكَ أمرٌ لم يكُن لو كان ... كيفَ يكونُ ذا إمكانِ

أحاط بكل شيءٍ علماً، وأحصىٰ كل شيءٍ عدداً، ووسع كل شيءٍ رحمة وحكمة، وسع سمعه الأصوات باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات، لا تختلف عليه ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها علىٰ كثرة حاجاتها، لا يشغله سمع عن

(١) الوابل الصيب (ص: ١٢٦).

سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوي الحاجات»[1].

«وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به، لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسرَّ»[2].

يقول تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

وتقول الصديقة عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلىٰ النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول: فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١][3].

ولله در ابن القيم حين يقول:

وهوَ السميعُ يرىٰ ويسمعُ كلَّ ما	في الكونِ من سرٍّ ومن إعلانِ
ولكلِ صوتٍ منهُ سمع حاضرٌ	فالسرُ والإعلانُ مستويانِ
والسَّمعُ منه واسعُ الأصواتِ لا	يخفىٰ عليهِ بَعيدُها والدّانِ[4]

«الغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية.

أحاط بصره جميع المرئيات، فيرىٰ دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، يرىٰ خلقها... تكوينها وأعضاءها وحركتها، يرىٰ من البعوض جناحها في ظلمة الليل .. ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنّهم كانوا علىٰ قلب أتقىٰ رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن خلقه أولهم وآخرهم وإنسهم

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٦٢ – دار الحديث).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٤ – الدار السلفية).

(٣) رواه أحمد (٤٠/ ٢٢٨ برقم: ٢٤١٩٥)، وابن ماجه (١/ ١٢٩ برقم: ١٨٨)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٣) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٣٣٩)، والألباني في صحيح ابن ماجه.

(٤) النونية لابن القيم.

وجنّهم كانوا على قلب أفجر رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً»[1].

«ما من ظاهرٍ إلا والله فوقه، وما من باطنٍ إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فلا تواري عنه سماءٌ سماء، ولا أرض أرضا، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطناً»[2].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: ٣ - ٤].

(كل شيء هالك إلا وجهه وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل فضل منقطع إلا فضله، لن يُطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيشكر، ويُعصى فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجل الآثار، وكتب الآجال ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

أحقُّ من ذُكِر، وأحق من عُبِد، وأحق من حُمِد، وأحق من شُكِر، وأنصرُ من ابتُغي، وأرأف من مَلَك وأجود من سُئِل، وأعفى من قدر، وأكرم من قُصِد، وأعدل من انتقم، حلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعبادِ عليهِ حقٌّ واجبٌ   كلا ولا سعيٌ لديهِ ضائعُ

إنْ عُذّبوا فبعدلِه، أو نُعِّموا   فبفضله، وهو الكريمُ الواسعُ[3]

«أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل

(١) الوابل الصيب (ص: ١٢٨).

(٢) طريق الهجرتين (ص:٢٤).

(٣) الوابل الصيب (ص: ١٢٨).

شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء .. لا يعجزه أحد من خلقه، ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان»[1].

«تمت كلماته صدقاً وعدلاً... وجلّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً ومثلاً، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً، ووسعت الخليقة أفعالُه عدلاً، وحكمةً، ورحمةً، وإحساناً، وفضلاً .. صفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال .. تعرَّف إلىٰ عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم كل الآيات، ونوَّع لهم الدلالات»[2].

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥ – ٣٦].

فإن كان هذا كله شيء يسيرٌ عن صفاته، فما هو واجبنا نحوه سبحانه؟

يقول تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩].

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله جل ذكره أذِن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه في الأرض وعنقه منثنٍ تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، فرد عليه: ما يعلم ذلك من حلف بي كاذباً»[3].

فاستشعار عظمة الله وجلاله، ومعرفة أسمائه وصفاته، تولد عند العبد خشية وخوفاً ومهابة من هذا الإله العظيم الذي خضع له كل شيء ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

***

(١) طريق الهجرتين (ص: ١٢٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٤٤).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٢٠ برقم: ٧٣٢٤) والحاكم (٤/ ٣٣٠ برقم: ٧٨١٣) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٨٩)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٥٠).

ثانيا: الخوف من مغبّة التقصير في حق العبودية:

لقد خلقنا الله عز وجل وفضلنا على جميع خلقه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأسجد الملائكة لأبينا آدم، وطرد إبليس وأخرجه من رحمته عندما رفض السجود له، وخلقنا في أحسن صورة، وأمدنا بأسباب الحياة، وجعل علينا حفظة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، وتكفل لنا بالرزق ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وسخر لنا ما في السماوات والأرض من شمس وقمر وجبال، وأنهار وبحار ودواب وأشجار ومعادن ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

إنها نِعَمٌ لا تُعَدُّ ولا تحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

فلماذا كل هذا؟

هل يمكن أن يكون الله قد خلقنا بلا غاية ولا هدف...؟!

أخلقنا لنلهو ونعبث ثم نموت؟!

يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

هل خلق سبحانه هذه السماوات العظيمة البالغة الدقة والإبداع، والأرض وما فيها من شتى أنواع النِّعم... هل هذا كله بلا سبب؟! ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ [الدخان: ٣٨ – ٣٩].

يقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤].

فلينظر وليتأمل ما فيه من عجائب، وكم من الأمور المعقدة التي ترتب بعضها على بعض كي يصل إليه هذا الطعام.

ولينظر إلى جسده وما فيه من إبداع... لينظر إلى القلب وكيف يضخ الدم المحمل بالأكسجين إلى جميع أنحاء الجسم لتستمر الخلايا في أداء وظيفتها، ولو توقف عن الضخ لتوقفت الحياة.

ولينظر إلى العقل وما فيه من مراكز الإدراك والتفكير واتخاذ القرار... ولينظر إلى العين وما فيها من دلائل الإبداع، وليسأل نفسه: كيف ينظر؟! كيف يسمع؟! كيف يتكلم؟! بل كيف يشم الروائح ويميز بينها؟!

لينظر إلى جهاز المناعة وكيف يحميه من الأمراض، وليتفكر في سائر أجهزة الجسم التي خلقها الله بهذه الدقة وهذا الإبداع... لينظر إلى هذا كله ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولينظر إلى الكون حوله.. إلى الماء الذي ينزل من السماء، ولولا وجوده ما استمرت الحياة على ظهر الأرض ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

لينظر الإنسان إلى الشمس والقمر، ودقة دورانهما ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

الكل يسير وفق نظام محدد ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

لم تتأخر الشمس يوماً عن الإشراق، ولم يأت صيف قبل شتاء، ولم يستمر ليل ويحتجب نهار.

لينظر الواحد منا إلى هذا كله وغيره من النعم التي لا تعد ولا تحصى، ثم ليجب عن هذا السؤال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فالله هو الخالق وهو الرزاق ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

ولكن... لماذا خلقنا، وهيّأ لنا هذا كله؟

ما المهمة التي من أجلها سخر لنا كل شيء، وتكفل بإمدادنا بأسباب الحياة؟

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالغاية العظمى من خلقنا هي عبادته سبحانه وتعالى بإرادتنا واختيارنا.

إنها الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وحملها الإنسان، أمانة الاستسلام الاختياري لطاعة الله تعالى وعبوديته، في ظل وجود النفس ونوازعها والشيطان ووساوسه.

أخذ علينا جميعا العهد بذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ووضع في فطرة كل مولودٍ يخرج إلى الأرض ميلاً كبيراً إلى توحيده ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

جعل الكون كله يدل عليه سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

أرسل الرسل وأنزل الكتب لتُذَكِّر الناس بهذه الغاية ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فما ظنكم برب العالمين:

يقول تعالى ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٧].

ما ظنكم أيها الناس بربكم وقد ابتعدتم عنه، وتركتم عبادته، وانشغلتم بما ليس مطلوباً منكم؟

ما ظنكم أن يفعل بكم وقد أعطاكم ما أعطاكم من نِعَمٍ، فلم تقابلوا ذلك بالطاعة والشكر؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة – يعني العبد من النعيم – أن يقال له: ألم نُصح لك جسمك، ونرويك من الماء البارد؟»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٤٤٨ برقم: ٣٣٥٨) وقال: حديث غريب، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٦٥ برقم: ٧٣٦٤)، والحاكم (٤/ ١٥٣ برقم: ٧٢٠٣) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٦/ ٤٠٦)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٥٣٩).

إن الأمر جد خطير ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: ٦٧ – ٦٨].

يستدعي البكاء والنحيب ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النجم: ٥٩ – ٦١].

يقول رسول الله ﷺ: «لو أن رجلاً يُجرُّ على وجهه من يوم وُلِد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالى لحَقَرهُ يوم القيامة»(١).

ومن منا يستطيع أن يفعل ذلك؟!

يقول رسول الله ﷺ: «لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم...»(٢).

إن الغاية من وجودنا في هذا الكون هو عبادته وإقامة دينه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فإذا ما أعرضنا عن عبادته وتركنا طاعته فسيحق علينا العقاب ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

فهل بعد تقصيرنا في شكر نعمه وعدم قيامنا بحقوق عبوديته لا نخاف من نقمته؟!

***

---

(١) رواه أحمد (٢٩/ ١٩٧ برقم: ١٧٦٥٠)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٢٢، رقم ٣٠٣) واللفظ له، وصححه الأرنؤوط في تخريج المسند.

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٥/ ٤٨٦ برقم: ٢١٦١١)، وابن ماجه (١/ ٥٥ برقم: ٧٧)، وأبو داود (٧/ ٨٤ برقم: ٤٦٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٥ برقم: ٧٢٧)، وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١١٥).

ثالثاً: من الأسباب الدافعة للخوف من الله: الخوف من عاقبة الذنوب.

وهذا مجال عظيم من مجالات الخوف من الله عز وجل.

فمن منا لم يذنب؟!

من منا لم تقع عينه على ما حرم الله في يوم من الأيام؟!

ومن منا لم يسقط في مستنقع الغيبة أو النميمة، أو السخرية أو الاستهزاء، أو الهمز أو اللمز؟!

ومن منا لم يسئ الظن بمسلم طوال حياته؟

ومن منا لم يترك واجباً من الواجبات تهاوناً وكسلاً؟!

ومن منا لم يقصر في حق والديه أو أقاربه أو جيرانه بل وفي حق زوجته وأولاده؟!

ومن منا تحرى الحلال في كل ما طعم طوال حياته؟!

ومن منا لم يقصر في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح لكل مسلم؟!

ومن منا لم يظلم أحداً ولو مرة في حياته؟!

ومن منا لم يتبع هواه على حساب شرع الله في يوم من الأيام؟!

ومن منا لم يقصر في واجب نصرة المسلمين المضطهدين في كل مكان؟!

ومن منا لم يخلف وعداً ولم يكذب أبداً؟!

ومن منا لم يُعجب في يوم من الأيام بعمله أو قوله أو مواهبه أو طاعته؟!

ومن منا لم يحتقر مسلماً أو يزدره؟!

ومن منا لم يتهاون في الذب عن عرض أخيه والدفاع عنه في غيابه؟

ومن منا لم يقصر فيما عليه من الأمانات والحقوق؟

ومن منا لم يغتر بعلمه أو طاعاته أو حَسَبه أو نَسَبه، ولم يظن أن له عند الله منزلة بذلك؟!

ومن منا لم يستشعر في نفسه أنه أفضل من غيره عند الله في يوم من الأيام؟!

ومن منا لم يمنّ على غيره بخدماته أو إحسانه؟!

.. من منا لم يفعل ذلك كله أو بعضه؟!

فإن كنا لا نذكر شيئاً من الماضي فإن الله لم ينس ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة: ٦]، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

فأنا وأنت من ذنوبنا على يقين، ومن حسناتنا في شك.

عن عبد الله بن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقَّرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها[1].

وكيف لا نخاف من ذنوبنا، ورسول الله ﷺ يقول: «عُذِّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[2].

أم كيف لا نخاف من ذنوبنا والله عز وجل يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦/ ٣٧٦ برقم: ٣٨١٧)، والطبراني (١٠/ ٢١٢)، وله شاهد عن سهل بن سعد الساعدي ﵁ رواه أحمد في المسند (٣٧/ ٤٦٦ برقم: ٢٢٨٠٨)، والطبراني (٦/ ١٦٥)، وآخر عن عائشة ﵂ رواه أحمد (٤٠/ ٤٧٧ برقم: ٢٤٤١٥)، والدارمي (٣/ ١٧٩٢ برقم: ٢٧٦٨)، وابن ماجه (٥/ ٣١٥ برقم: ٤٢٤٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (برقم: ٣٨٩، ٢٧٣١).

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٧٦ برقم: ٣٤٨٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٠ برقم: ٢٢٤٢)، وخشاش الأرض يعني: من هوام الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها (لسان العرب ٦/ ٢٩٦).

وكان من دعاء الرسول ﷺ: «أعوذ بك من شر ما صنعت»[1].

ويقول ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»[2].

إن كلمة واحدة قد تهوي بقائلها في النار سبعين خريفاً، يقول رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يَهويْ بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب»[3].

فكم من هفوات وأعمال قمنا بها لا تساوىٰ شيئاً في أعيننا لكنها قد تكون عند الله عظيمة ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنَعُدُّها على عهد النبي ﷺ من الموبقات»[4].

وعن بلال بن سعد قال: «لا تنظر إلىٰ صِغَر الخطيئة ولكن انظر من عصيت»[5].

يقول ابن القيم: «وها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فيُنسىٰ، وسبحان الله! كم أهلكت هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالت من نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب يَنْقَضُّ ولو بعد حين، كما ينقض السُّم، وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل، وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتىٰ، واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلىٰ، وأن الإثم لا يُنسىٰ»[6].

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٧ برقم: ٦٣٠٦).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦/ ٢٦٢ برقم: ٣٧٢٠)، وابن ماجه (٣/ ٨٨ برقم: ١٨٩٢)، وأبو داود (٢/ ٣١٩ برقم: ١٠٩٧)، والترمذي (٣/ ٤٠٥ برقم: ١١٠٥)، وقال: حديث حسن، والنسائي (٣/ ١٠٤، برقم: ١٤٠٤)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٥٣١) والأرنؤوط في تخريج المسند.

(٣) رواه البخاري (٨/ ١٠٠ برقم: ٦٤٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠ برقم: ٢٩٨٨) واللفظ له.

(٤) رواه البخاري (٨/ ١٠٣ برقم: ٦٤٩٢).

(٥) الزهد لابن المبارك (برقم: ٧١).

(٦) الزهد لوكيع (برقم: ١٣).

هذا مع أن للذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه، قال سليمان التيمي: «إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته»(١).

وقال ذو النون: «من خان الله في السر، هتك الله ستره في العلانية»(٢).

يقول تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ويقول عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

والقرآن مليء بالآيات التي تقرر هذه الحقيقة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النحل: ٣٣ – ٣٤].

فعندما تحل بالعبد أي مصيبة، فعليه أن يوجه تفكيره إلى ذنوبه وكيف يتطهر منها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ويقول عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم: «فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه لأقبح من صورته وأشنع، وبُدِّل بالقربِ بُعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحا، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفراً، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينيه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه،

---

(١) التوبة لابن أبي الدنيا (برقم: ١٩٥).

(٢) الداء والدواء (ص: ١٠٢، ١٠٣).

ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قوّاداً لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة؟!

وما الذي غرّق أهل الأرض كلهم حتىٰ علا الماء فوق رؤوس الجبال؟

وما الذي سلط الريح علىٰ قوم عاد، حتىٰ ألقتهم موتىٰ علىٰ وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية...؟

وما الذي أرسل علىٰ قوم ثمود الصيحة حتىٰ قُطِّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرىٰ اللوطية حتىٰ سمعت الملائكة نبح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليها، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه علىٰ أمة غيرهم...؟

وما الذي أرسل علىٰ قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظىٰ؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتىٰ خمدوا عن آخرهم؟»[1].

يقول تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

عن جبير بن نفير قال: لما فُتحت قبرص فَرَق أهلها فبكىٰ بعضهم إلىٰ بعض، رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله؟! قال: «ويحك يا جبير، ما أهون الخلق علىٰ الله إذا هم تركوا أمره،

(١) الداء والدواء (ص: ٨٤ – ٨٦ بتصرف).

بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله عز وجل فصاروا إلى ما ترى»[1].

وفي المسند من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليُحرَم الرزق بالذنب يصيبه»[2].

ويقول بعض السلف: «إني لأعصي الله فأرى ذلك في خُلُق دابتي وامرأتي»[3].

إن الخوف من عاقبة الذنوب ينبغي أن يلازم المسلم فيدفعه إلى الفرار الدائم إليه سبحانه مردداً: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك...»[4].

هذا الخوف لا ينقطع أبداً حتى الموت، وسماع البشرى من الملائكة ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فنحن لا ندرى ماذا تم مع الذنوب الماضية؟ هل غفرها لنا سبحانه أم لا؟ فلم يصل إلى أحد منا منشور من السماء بالغفران، ولا توقيع بالأمان: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [القلم: ٣٩ – ٤٠].

فلتكن إذن وصية أويس القرني نصب أعيننا قال رحمه الله: «كن في أمر الله كأنك قتلت الناس كلهم»[5].

***

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٧٦٣).

(٢) رواه أحمد (٣٧/ ٦٨ برقم: ٢٢٣٨٦)، وابن ماجه (١/ ٦٧ برقم: ٩٠، ٥/ ١٥٢ برقم: ٤٠٢٢)، وابن حبان (٣/ ١٥٣ برقم: ٨٧٢)، والحاكم (١/ ٦٧٠ برقم: ١٨١٤)، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٩).

(٣) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٥٤).

(٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» رواه مسلم (١/ ٣٥٢ برقم: ٤٨٦).

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٥٨ برقم: ٥٧٢٣).

رابعاً: من الأسباب الدافعة للخوف الدائم من الله: الخوف من غضب الله عز وجل.

يقول تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ – ٩٩].

فحلم الله عز وجل سبق غضبه، ومغفرته سبحانه وتعالى سبقت عقوبته، ولكن هناك أفعال من شأنها أن تستدعي غضب الجبار، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

فهؤلاء لما أغضبوا الله عز وجل بعصيانه وتكذيب موسى وما جاء به من الآيات انتقم منهم بعاجل العذاب، فأغرقهم أجمعين[١].

لقد وصلت معاصيهم إلى الدرجة التي استدعت غضبه سبحانه عليهم فانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ولقد كان من دعاء الرسول ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك»[٢].

وليس معنى ابتعاد الإنسان عن ارتكاب المعاصي أنه في أمان من غضب الله عز وجل، فقد يكون هذا الطائع صالحاً في نفسه، منعزلاً في خلوته، تاركاً المنكرات تشيع في المجتمع دون أن يحاول إصلاحها.

يقول تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني، قال: «أوحى الله إلى يوشع بن نون، إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم، قال: يا

---

(١) التفسير الميسر (ص: ٤٩٣).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٧ برقم: ٢٧٣٩).

رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم»(١).

وعن مسعر قال: «إن ملكاً أُمِر أن يخسف بقرية، فقال: يا رب إن فيها فلاناً العابد، فأوحى الله عز وجل إليه: أن به فابدأ؛ فإنه لم يتمعر وجهه فيَّ ساعة قط»(٢).

وفي حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ، دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنَهلِك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»(٣).

فترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأسباب الرئيسية التي تستدعي غضب الله عز وجل.

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»(٤).

وقال العمري الزاهد: «إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله، أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ولا تأمر فيه، ولا تنهى عنه، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً»(٥).

ويحذركم الله نفسه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ضن الناس بالدينار

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (برقم: ٧٥).

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا (برقم: ٧٤).

(٣) رواه البخاري (٤/ ١٣٨ برقم: ٣٣٤٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧، رقم ٢٨٨٠).

(٤) رواه الترمذي (٤/ ٤٦٨ برقم: ٢١٦٩)، وقال حديث حسن، ورواه أحمد (٣٨/ ٣٣٩ برقم: ٢٣٣١٢) موقوفا على حذيفة رضي الله عنه بنحو هذا.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (برقم: ١٤).

والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتىٰ يراجعوا دينهم»[(١)].

وقد حدث زلزال بالمدينة علىٰ عهد عمر رضي الله عنه فقال: «يا أيها الناس ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم! لئن عادت لا أساكنكم فيها»[(٢)].

وقال كعب: «إنما تزلزل الأرض إذا عُمل فيها بالمعاصي، فترعدُ فرقاً من الرب جل جلاله أن يطلع عليها»[(٣)].

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلىٰ الأمصار: «أما بعد، فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله عز وجل به العباد، وقد كتبت إلىٰ الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق به، فإن الله عز وجل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝﴾ [الأعلى: ١٤ – ١٥]، وقولوا كما قال آدم عليه السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قال يونس عليه السلام: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧][(٤)]».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم ذو ريح وغيم عُرِف ذلك في وجهه صلى الله عليه وسلم فأقبل وأدبر، فإذا مُطرت سُرِّي عنه ذلك، فسألته عائشة رضي الله عنها في ذلك، فقال: «إني خشيتُ أن يكون عذاباً سُلِّط علىٰ أمتي»[(٥)].

وعن عبيد الله بن أبي النضير قال: حدثني أبي أنها كانت ظُلمةٌ علىٰ عهد أنس، حتىٰ كأن النهار مثل الليل، قال: فأتيته بعدما انجلت، فقلت: يا أبا حمزة، هل كان يُصيبكم مثلُ هذا علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: «مَعاذَ الله، إن كانت الريح لَتَشْتَدُّ

---

(١) رواه أحمد في المسند (٨/ ٤٤٠ برقم: ٤٨٢٥)، وأبو داود (٥/ ٣٣٢ برقم: ٣٤٦٢) وذكره الطبري في مسند عمر (١/ ١٠٨) في جملة ما صح عنده من الأخبار، وصححه الألباني في الصحيحة (برقم: ١١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (برقم: ٢٠).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (برقم: ٢١).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (برقم: ٢٣).

(٥) رواه البخاري (٤/ ١٠٩ برقم: ٣٢٠٦)، ومسلم (٢/ ٦١٦ برقم: ٨٩٩) واللفظ له.

فنَبْتَدِرُ إلى المسجد مخافةَ القيامة»[1].

وعن أبي زكريا الخلقاني قال: «كنا عند علي بن بكار، فمرت سحابة فسألته عن شيء، فقال لي: اسكت حتى تجوز هذه السحابة، أما تخشى أن يكون فيها حجارة نُرمى بها؟!»[2].

***

خامساً: من الأسباب الدافعة للخوف الدائم من الله: الخوف من الاستدراج.

يقول تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥ – ٥٦].

فالله عز وجل ينذر عباده مرةً تلو مرة ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فإن لم يعودوا إليه فإنه سبحانه وتعالى قد يفتح عليهم أبواب الدنيا ليزداد غرورهم وغفلتهم، استدراجاً لهم؛ ليظنوا أنهم على خير، فيستمروا فيما هم عليه حتى تحين منيتهم وهم على هذه الحال ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام: ٤٢ – ٤٥].

فأبواب الاستدراج كثيرة، ولا يستطيع أحد أن يجزم بأنه غير مستدرج.

يقول تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الأنبياء: ١١١].

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٤٨٣ برقم: ١٢٤١)، وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣١٢ برقم: ٩٦٥)، واللفظ له، وحسنه النووي في خلاصة الأحكام (٢/ ٨٦٥).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٣١٣ برقم: ٩٦٦).

يقول ابن القيم: «فعلى العبد أن يفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف ويُعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مُسْتَدرَج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه، وستره عليه! وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح... ذلك مبلغهم من العلم.

فليعلم العبد أن ما كان من نعم الله عليه يجمعه مع الله فهو نعمة حقيقية، وما فرَّقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة، فليحذر إنما هو مستدرج، ويميزه بذلك أيضاً بين المنَّة والحجة، فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!

فإن العبد بين منَّة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما، وذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منَّة، وإلا فهي حجة.

وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منَّة منه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منَّة، وإلا فهو حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد فهو منَّة من الله، وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به، وطمأنينتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك»[١].

***

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١١٦، ١١٧).

سادساً: ومن أسباب الخوف من الله: الخوف من محبطات العمل.

من مجالات الخوف أيضاً خَوْف العبد من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

والأسباب التي تؤدي إلىٰ إحباط العمل كثيرة .. منها:

الشرك بالله:

فصور الشرك كثيرة، قد يقع بعضنا في واحدة منها فتحبط عمله والعياذ بالله ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

إنه أمر رهيب، أن يسعىٰ العبد ويسعىٰ، ويجمع حسنات كثيرة، ثم يشرك بالله، فيمحو به ما سبق من حسنات ليبدأ من جديد، كرجل صام طوال يومه، وقبل غروب الشمس بدقائق أدخل جوفه قطرات من الماء... ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الرياء:

يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ولقد دخل عمر ﷺ المسجد فرأىٰ معاذا بن جبل ﷺ يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال: ما يبكيك؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدىٰ، ينجون من كل غبراء مظلمة»[1].

ولقد ضرب القرآن مثلاً للمرائي، وحسرته عندما يجد أن ثمرة تعبه وسهره، وكده وإنفاقه للمال قد ذهبت هباءً منثوراً، برجلٍ كانت له جنة من نخيل وأعناب، تجرىٰ من تحتها الأنهار... هذه الجنة الجميلة كانت بلا شك نتاج تعب منه وشقاء وسهر حتىٰ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء (برقم: ٦)، والتواضع (برقم: ٨)، ورواه الحاكم (١/ ٤٤ برقم: ٤)، وقال: صحيح لا علة له، ووافقه الذهبي.

وصلت إلى ما وصلت إليه، وعندما جاء وقت التمتع بها بعد كبر سنه، مع وجود الأولاد الصغار الذين لا يزالون بحاجة إلى النفقة والرعاية .. عندما جاء وقت جني الثمار أصاب هذا البستان نار فاحترق عن آخره!

فأي حسرة تلك التي ستصيب صاحبه؟! وأي مرارة تلك التي سيشعر بها؟!

كذلك المرائي... فهو ينفق من ماله ووقته وصحته، ويبذل الجهد والعرق في أعمال ينتظر ثمرتها في الآخرة... هذا الشخص سيفاجأ يوم القيامة – يوم جني الثمار – بالسراب، بل بالعذاب، كل ذلك لأنه كان يقوم بهذه الأعمال طلباً للمنزلة عند الناس، وكى يقال عنه: عالم، جواد، منفق، مجاهد، متواضع،... إلخ.

يقول تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ومن محبطات الأعمال الإعجاب بالعمل:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات"... وذكر المهلكات فقال: "فأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[1].

وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: «إذا ظن أنه محسن»[2].

«فذنب تَذِلُّ به لديه خير من طاعة تُدل بها عليه، وإنك إن تبت نائماً، وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً، وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٤٧ برقم: ٥٧٥٤) عن ابن عمر رضي الله عنه، ورواه البزار (٨/ ٢٩٥ برقم: ٣٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الأوسط أيضا (٥/ ٣٢٨ برقم: ٥٤٥٢) عن أنس رضي الله عنه، وكذلك أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٤٣)، (٦/ ٢٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٣ برقم: ٧٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٨٠٢).

(٢) ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان (٣/ ١٧).

إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلّين»[1].

ومن محبطات الأعمال أيضاً المن بالعطايا:

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

يقول السعدى رحمه الله في تفسيره هذه الآية: «ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة، عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، ويُستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، فكما أن الحسنات يُذهبن السيئات، فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣] حثٌ على تكميل الأعمال، وحفظها من كل ما يفسدها؛ لئلا يضيع العمل سدى»[2].

وسمع ابن سيرين رجلاً يقول لرجل: فعلت إليك وفعلت! فقال له: «اسكت فلا خير في معروف إذا أحصي»[3].

***

سابعا: ومن أسباب الخوف من الله: الخوف من عدم قبول الأعمال.

فالخوف من عدم قبول الأعمال – بعد الاجتهاد التام فيها – ينبغي أن يلازمنا؛ فالواحد منا لا يدري هل لاقى عمله القبول من الله عز وجل أم رُدَّ عليه.

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] «أي يعطون العطاء، وهم خائفون وجلون، ألّا يتقبل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط»[4].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٢٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص: ١١٣).

(٣) الجامع لحكام القرآن (٣/ ٢٠٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٤).

ولقد سألت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ حول هذه الآية فقالت: «يا رسول الله، يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟» قال: «لا، يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل»[1].

ولقد كان هذا هو حال الصحابة والصالحين، فهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[2].

ولقد دفعهم هذا الخوف إلى اتهام أنفسهم بالنفاق.

قال ابن أبي مُلَيْكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه»[3].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لحذيفة رضي الله عنه: «أُنشدك الله، هل سماني لك رسول الله ﷺ — يعني من المنافقين —؟» فيقول: «لا، ولا أزكي بعدك أحداً»[4].

وقال إبراهيم التيمي: «ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا»[5].

ويقول يحيى بن معاذ: «كيف يفرح المؤمن في دار الدنيا؟ إن عمل سيئة خاف أن يؤخذ بها، وإن عمل حسنة خاف ألا تقبل منه، وهو إما مسيء أو محسن»[6].

---

(١) رواه أحمد (٤٢/ ١٥٦ برقم: ٢٥٢٦٣)، والترمذي (٥/ ٣٢٧ برقم: ٣١٧٥)، وابن ماجه (٥/ ٢٨٨ برقم: ٤١٩٩)، والحاكم (٢/ ٤٢٧ برقم: ٣٤٨٦) وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني في الصحيحة (برقم: ١٦٢).

(٢) عزاه ابن كثير في التفسير لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره البخاري في الصحيح (١/ ١٨كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر).

(٤) روى ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٨١ برقم: ٣٧٣٩٠) بنحوه.

(٥) صحيح البخاري (١/ ١٨).

(٦) شعب الإيمان (١/ ٥٠٤).

وقال ابن عون: «لا تثق بكثرة العمل، فإنك لا تدري يقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك، فإنك لا تدري هل كُفِّرت عنك أم لا؟ لأن عملك عنك مغيب لا تدري ما الله صانع به؟»[1].

***

ثامنا: ومن الأسباب الدافعة لدوام الخوف من الله: الخوف من الخُذلان.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

فالمسلم بحاجة إلى توفيق الله عز وجل في كل أموره وأحواله، فالبديل هو الخذلان، وهو أن يترك الله عز وجل الواحد منا لنفسه، ولا يعينه عليها... يتركه لجهلها وظلمها، وحبها للراحة والشهوات.

فما من عبد يُوَكَّل إلى نفسه إلا خُذِل.

يقول رسول الله ﷺ في دعائه: «.. وإنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف، وعورة، وذنب، وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك...»[2].

وفي ليلة بدر كان من دعائه ﷺ: «اللهم لا تخذلني...»[3].

وقال لفاطمة رضي الله عنها: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيكِ به، أن تقولي إذا أصبحتِ وأمسيتِ: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[4].

---

(١) المحجة في سير الدلجة لابن رجب (ص: ٩٨).

(٢) رواه أحمد (٣٥/ ٥٢٠، برقم: ٢١٦٦٦) والطبراني (٥/ ١١٩، ١٥٧) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٣٦٢) بلفظ (اللَّهُمَّ لَا تُودِّعْ مِنِّي، اللَّهُمَّ لَا تَخْذُلْنِي، اللَّهُمَّ لَا تَتِرْنِي...).

(٤) رواه البزار (١٣/ ٤٩ برقم: ٦٣٦٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢١٢ برقم: ١٠٣٣٠)، والحاكم (١/ ٧٣٠ برقم: ٢٠٠٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٢٧).

ويقول ابن القيم: «من تفكر في التوفيق والخذلان، وجد أنه محتاج إلى توفيق ربه في كل نفس، وكل لحظة، وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، ولو تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض، فحينئذ يسأل الله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف، ويلقي بنفسه بين يديه طريحاً ببابه، مستسلماً له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعاً ذليلاً مستكيناً، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً»(١).

"ولقد كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه... وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتاباً يُقرأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: «ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله، فإنه إن وكلني إلى نفسي كنت كغيري»(٢).

فينبغي أن يلازمنا خوف دائم من الخذلان، مع العمل على استجلاب التوفيق، علَّنا ندخل في رحمته سبحانه: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥].

فكم من المرات أحسن أحدنا استعداده للقيام بعمل ما، ونسي في خِضَمِّ اعتماده على نفسه، وإمكاناته، وحسن استعداداته... نسي التوكل على الله سبحانه وتعالى، والعمل على استجلاب توفيقه، واستمطار رحمته... فتكون النتيجة هي الخذلان.

***

تاسعاً: ومن أسباب الخوف من الله: الخوف من سلب الإيمان.

وهل يأمن أحد مكر الله؟ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢١٨).

(٢) شرح حديث «ما ذئبان جائعان» لابن رجب (ص: ٤٢)، والخبر رواه الأصفهاني في حلية الأولياء (٥/ ٢٩٢).

ولو كان لأحد أن يأمن مكر الله لأمنه أبو الأنبياء إبراهيم ﷺ، فهل حدث ذلك؟ تأمل دعاءه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وهذا نبي الله يوسف ﷺ كان يدعو ربه فيقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وكان من أكثر ما يقول رسول الله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[١].

وكان يقول: «يا ولي الإسلام وأهله مسكني الإسلام حتى ألقاك عليه»[٢].

وكان من دعائه ﷺ: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»[٣].

وكان أبو هريرة ﷺ يقول في آخر عمره: «اللهم إني أعوذ بك أن أزني، أو أعمل بكبيرة في الإسلام»، يقول بعض أصحابه: يا أبا هريرة ومثلك يقول هذا، أو يخافه، وقد بلغت من السن ما بلغت، وانقطعت عنك الشهوات، وقد شاهدت النبي ﷺ وبايعته، وأخذت عنه؟! قال: «ويحك وما يؤمنني وإبليس حي؟»[٤].

ودخل جبير بن نفير على أبي الدرداء بمنزله بحمص فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد جعل يتعوذ بالله من النفاق، فلما انصرف، قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء! ما أنت والنفاق؟ قال: «اللهم غفراً – ثلاثاً –، من يأمن البلاء؟ من

---

(١) رواه أحمد (٤٤/ ١٣٨ برقم: ٢٦٥١٩)، والترمذي: (٥/ ٤٢٣ برقم: ٣٥٢٢) عن أم سلمة ﷺ،وقال حديث حسن، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٠٩١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٠٦ برقم: ٦٦١)، والضياء في المختارة (٦/ ٢٧٠ برقم: ٢٢٩٠) عن أنس ﷺ بلفظ: "ثبتني به"، والبيهقي في الدعوات (١/ ٣٤٦ برقم: ٢٥٤) بلفظ: "مسكني به"، وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١٧٦)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٤٧٦).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٨ برقم: ٢٧١٧).

(٤) شعب الإيمان (٢/ ٢٥٨ برقم: ٨٣٠).

يأمن البلاء؟ والله إن الرجل ليُفتن في ساعة فينقلب عن دينه»[١].

وكان يقول: «مالي لا أرىٰ حلاوة الإيمان تظهر عليكم؟ والذي نفسي بيده لو أن دُبَّ الغابة وجد طعم الإيمان لظهر عليه حلاوته، ما خاف عبدٌ علىٰ إيمانه إلا مُنِحه، وما أمن عبد علىٰ إيمانه إلا سُلِبه»[٢].

وكان الحسن يقول: «والله ما أصبح علىٰ وجه الأرض ولا أمسىٰ علىٰ وجه الأرض مؤمن إلا وهو يتخوف النفاق علىٰ نفسه، وما أمن النفاق إلا منافق»[٣]

وقال ابن المبارك: «إن البُصراء لا يأمنون من أربع خصال: ذنب قد مضىٰ لا يدري ما يصنع الرب فيه، وعمر قد بقي لا يدري ماذا فيه من الهلكات، وفضل قد أُعطىٰ لعله مكر واستدراج، وضلالة وقد زينت له فيراها هدىٰ، ومن زيغ القلب ساعةً ساعةً أسرع من طرفة عين قد يُسلَبُ دينه وهو لا يشعر»[٤].

لذلك كان من دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

***

عاشراً: ومن الأمور الدافعة للخوف المزعج: الخوف من سوء الخاتمة.

فلا يدري أحد بماذا يُختم له، فالأعمال بالخواتيم، وحسبنا في ذلك ما قاله رسول الله ﷺ: «.. فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم لَيعملُ بعمل أهل الجنة، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذِراع فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم لَيعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٢٥٨ برقم: ٨٣١).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٢٥٩ برقم: ٨٣٢).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٢٥٩ برقم: ٨٣٣).

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٥٠٦، ٥٠٧).

بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1].

يقول ابن رجب: «ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم... بكى بعض الصحابة عند الموت، فسُئل عن ذلك، فقال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين، فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار»، ولا أدري في أي القبضتين كنت؟»[2].

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم، فكان يبكي ويقول: «أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيا، ويبكي»[3].

ويقول: «أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت»[4].

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر»[5].

وقال بعضهم: «لو كانت الشهادة على باب الدار، والموت على الإسلام عند باب الحجرة، لاخترت الموت على الإسلام؛ لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار»[6].

وكان سهل يقول: «خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل

---

(١) رواه البخاري (٨/ ١٢٢ برقم: ٦٥٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦ برقم: ٢٦٤٣)، واللفظ له.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٩/ ١٣٤ برقم: ١٧٥٩٣) بلفظ: «إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، وقال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي " فلا أدري في أي القبضتين أنا» وصححه الهيثمي (٧/ ٣٨٥)، وابن القيم في أحكام الذمة (٢/ ١٠٠٣)، وذكره برواياته الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٥٠).

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٥١).

(٤) حلية الأولياء (٧/ ١٢).

(٥) جامع العلوم والحكم (ص: ٧٠-٧١).

(٦) إحياء علوم الدين (٤/ ١٧٢).

حركة، وهم الذين وصفهم الله إذ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]»[١].

***

حادي عشر: الخوف من لقاء الموت:

فالموت مصيبة، قال تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، ولا سبيل لدفعه، أو الفرار منه ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ﴾ [الجمعة: ٨]، فينبغي على العاقل أن يتوقع قدوم الموت في أي لحظة كيلا يفاجأ به.

إن هذا الترقب الدائم لقدومه من شأنه أن يجعل الواحد منا دائم القلق، كثير الخوف، مستعد للرحيل في أي وقت، فنحن لا ندري متى سيتم اللقاء؟ وأين سيكون مكانه؟ وبأي حال سنكون عليها؟! ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

***

ثاني عشر: الخوف من سكرات الموت وقبض الروح ومعرفة المصير:

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول، ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً أن ينغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نَفَس بصدده، كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك... والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته، وفسد عليه عيشه، وهو في كل نَفَس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل.

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح، فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم... فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً، فكيف

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٥، ٢٦٦).

والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد، بل من جميع العروق، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، وكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق عنه باب التوبة، وتحيط به الحسرة والندامة»(١).

فكيف لا نخاف من سكرات الموت، ورسولنا ﷺ كان يقول: «اللهم أعني على سكرات الموت»(٢).

رُوي عن بعض الصالحين أنه كان يسأل كثيراً من المرضى: كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: «كأن السماوات مطبقة على الأرض، وكأن نَفَسي يخرج من ثقب إبرة»(٣).

وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب، حدثنا عن الموت فقال: «نعم يا أمير المؤمنين، إن الموت كغصن كثير الشوك، أُدخل في جوف رجل، وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ ما أخذ، وأبقى ما أبقى»(٤).

ومع الخوف من سكرات الموت، يكون أيضاً الخوف من صورة ملك الموت، ودخول الروع والخوف منه على القلب.

يقول القرطبي: «وأما مشاهدة ملك الموت عليه السلام وما يدخل على القلب منه من الروع والفزع، فهو أمر لا يُعَبر عنه؛ لعظم هوله، وفظاعة رؤيته، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الذي يتبدى له، ويطلع عليه»(٥).

---

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ٦١، ٦٢).

(٢) رواه أحمد (٤٠/ ٤١٥ برقم: ٢٤٣٥٦)، وابن ماجه (٢/ ٥٤٦ برقم: ١٦٢٣)، والترمذي (٣/ ٢٩٩ برقم: ٩٧٨) وقال: حديث غريب، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٥ برقم: ٣٧٣١) وقال: صحيح ووافقه الذهبي، وأصله في البخاري (٦/ ١٣ برقم: ٤٤٤٩) بلفظ: "لا إله إلا الله إن للموت سكرات".

(٣) روى ابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٦٠) نحوه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٣٦ برقم: ٣٥٦٤٣).

(٥) التذكرة للقرطبي (١/ ١١٣).

ومع الخوف الذي ينبغي أن يلازمنا من سكرات الموت، وصورة ملكه، فإن الأمر الخطير الذي من شأنه أن يزيدنا خوفاً على خوفنا هو: ظهور نتيجة امتحان الدنيا في ذلك الوقت، فهل سنكون ممن تقول لهم الملائكة: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

أم سنكون.........؟! ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

قال النبي ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، فقالت عائشة رضي الله عنها: إنَّا لنكره الموت، فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت، بُشِّر برضوان من الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر الموت بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[١].

فياترى هل سيكون الواحد منا ممن يقال له: أبشر يا ولي الله برضا الله وثوابه، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه؟![٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يُصعِدانِها» - فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال: «ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل»، قال: «وإن الكافر إذا خرجت روحه -وذكر من نتنها، وذكر لعنا- ويقول أهل السماء روح: خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل»[٣].

***

---

(١) رواه البخاري (٨/ ١٠٦ برقم: ٦٥٠٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥ برقم: ٢٦٨٤).

(٢) التوهم للمحاسبي (ص: ٦).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٢٠٢ برقم: ٢٨٧٢).

ثالث عشر: ومن الأسباب الجالبة للخوف: الخوف من ضمة القبر، وسؤال الملكين.

للقبر ضمة وضغطة لا ينجو منها أحد، كما يقول رسول الله ﷺ: «إن للقبر ضغطة لو نجا أحد منها لنجا سعد بن معاذ»[1]، ولابد فيه من سؤال الملكين للعبد...

عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتىٰ يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يجران أشعارهما، ويبحثان القبر بأنيابهما، فتلتلاك[2]، وترتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟»[3].

إن القبر -كما قال ﷺ- «حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة»[4].

ويعرض فيه علىٰ العبد مقعده في الجنة أو في النار، بالغداة والعشي، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتىٰ يبعثك الله إلىٰ القيامة»[5].

***

(١) رواه أحمد (٤٠/ ٣٢٧ برقم: ٢٤٢٨٣)، وابن حبان (٧/ ٣٧٩ برقم: ٣١١٢)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٣)، والطبراني في الأوسط (٢٦٢٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (برقم: ١٦٩٥).

(٢) التلتلة: التحريك بعنف وشدة.

(٣) أورده الهيثمي في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (١/ ٣٧٩ برقم: ٢٨١) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١/ ٨١) قال ابن حجر في المطالب العالية: (٤/ ٣٦٣): رجاله ثقات مع إرساله.

(٤) رواه الترمذي (٤/ ٦٤٠)، وقال: حديث غريب.

(٥) رواه البخاري (٢/ ٩٩ برقم: ١٣٧٩)، ومسلم (٤/ ٢١٩٩ برقم: ٢٨٦٦).

رابع عشر: الخوف من أهوال يوم القيامة:

يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

إنه يوم عصيب: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

فالجميع سيحشر، بداية من أبي البشر، حتىٰ آخر إنسان تقوم عليه الساعة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

يقول المحاسبي: «... حتىٰ إذا تكاملت عدة الموتىٰ، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يرىٰ، وقد بقي الجبار الأعلىٰ كما لم يزل أزلياً، منفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا نداء المنادي لكل الخلائق.... فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك، وتفهم بعقلك بأنك تُدعىٰ إلىٰ العرض علىٰ الملك الأعلىٰ، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء... فبينما أنت فزع للصوت، إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك، فوثبت مغبراً من قرنك إلىٰ قدميك بغبار قبرك، قائماً علىٰ قدميك شاخصاً ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة، وهم مغبورون بغبار الأرض التي طال بها بلاؤهم، فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع... فتوهم نفسك بعريك ومذلتك... وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموتاً أجمعين، بالذلة والمسكنة، والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم،... قد نُزِع المُلك من ملوك الأرض، ولازمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع، وأصغرهم خلقة وقدراً، بعد عتوهم وتجبرهم علىٰ عباد الله عز وجل في أرضه، حتىٰ إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها، وجنها، وشياطينها، ووحشيها، وسباعها، وأنعامها، وهوامها، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب، تناثرت نجوم السماء من فوقهم، وطُمِست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها، وإطفاء نورها، فبينما أنت والخلائق علىٰ ذلك، إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وأنت بعينك تنظر إلىٰ هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت... والملائكة قيام علىٰ أرجائها... فأذابها ربها حتىٰ صارت كالفضة المذابة، تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة، كما قال الجليل الكبير: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]».

ويمضي قائلاً: «ثم تطايرت الكتب في الأيمان والشمائل، ونصبت الموازين، فتوهم الميزان بعظمه منصوباً... وقلبك واجف، متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو شمالك... فبينما أنت واقف مع الخلائق إذ نظرت إلى الملك وقد أمر أن يحضر الزبانية، فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد، فلما رأيتهم... طار قلبك فزعاً ورعباً، فبينما أنت كذلك إذ نودي باسمك، فنوديت على رؤوس الخلائق الأولين والآخرين: أين فلان ابن فلان؟... فتوهم حين وقفت بالاضطراب والارتعاد... وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك، وغلظ أكفهم حين أخذوك، فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم.. حتى انتُهيَ بك إلى عرش الرحمن، فقذفوا بك بأيديهم، وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه: ادن مني يا ابن آدم، فغيبك في نوره، فوقفت بين يدي رب عظيم، جليل، كبير، كريم، بقلب خافق محزون... كالحَمَل الصغير حين تلده أمه... فكم لك من خجل وجبن من المولى الذي لم يزل إليك محسنا وعليك ساتراً؟ فبأي لسان تجيبه حين يسألك عن قبح فعلك وعظيم جرمك؟»(1).

***

خامس عشر: الخوف من الحبس في النار:

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فهل يا ترى سنمر على الصراط السوي ونتجاوزه أم سنقع في النار...

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

«فياله من سجن، شر دار، وعذابها شر عذاب حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامها من حديد، يهوي بها الحجر سبعين خريفاً وما يدرك قعرها، مسالكها ضيقة، ومواردها مهلكة، يُوقد فيها السعير ويعلو فيها الشهيق والزفير، أبوابها موصدة، وعمدها ممدة، فيها غضب الجبار وسخطه ونقمته.

(١) التوهم للحارس المحاسبي بتصرف نقلاً عن التفكر من المشاهدة إلى الشهود لمالك البدري (ص: ٨٠-٨٢).

جثت الأمم على الركب، وتبين للظالم سوء المنقلب.

انطلق المكذبون إلى ظل ذي ثلاث شعب، وأحاطت بهم نار ذات لهب، سمعوا فيها الزفير والجرجرة، وعاينوا التغيظ والزمجرة، ونادتهم الزبانية ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]، الهاوية تجمعهم، والزبانية تقمعهم ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: ٤٩ - ٥٠]، والأغلال في أعناقهم، والسلاسل يسحبون بها، وبالنواصي والأقدام يؤخذون، وبالحميم ثم بالنار يسجرون، يُصب فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تُكوى بها الجباه والجنوب والظهور، ذوقوا مس سقر، طعامهم الزقوم والضريع، لا يُسمن ولا يُغني من جوع، شرابهم الغساق والماء الصديد، وهم فيها يصطرخون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيها يتمنون الهلاك والموت ولكن أين الفكاك والمفر ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ثم يعلوا شهيقهم، ويزداد زفيرهم، وقد حِيل بينهم وبين ما يشتهون؛ فيعظم يأسهم ويرجعون إلى أنفسهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

إنها نار السعير لا ينام هاربها.

الخوف من النار فلذ[(١)] أكباد الصالحين ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧].

يقول موسى بن سعد: «كنا إذا جلسنا إلى سفيان رحمه الله كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه»[(٢)].

وكان الحسن البصري إذا تكلم كأنه يعاين الآخرة، فيخبر عن مشاهدتها، وكان إذا بكى فكأن النار لم تخلق إلا له، وإذا قدم فكأنما قدم من دفن حميم له، وإذا جلس فكأنما هو أسير يستعد لضرب عنقه[(٣)].

---

(١) فلذ: قطع (لسان العرب: ٣/ ٥٠٢).

(٢) مجله النور الكويتية (العدد ١٨٠) نقلاً عن خطبة للدكتور صالح بن حميد في المسجد الحرام، والخبر رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣/ ١٨٢ برقم: ٨١٦).

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٨١).

بعض الوسائل العملية
لاستجلاب الخوف من الله عز وجل

تأكد لدينا مما سبق أن سير القلب إلى الله عز وجل، لن يبدأ إلا إذا استيقظ من نومه وأفاق من غفلته، وأن الوسيلة الأساسية لذلك هي استخدام سياط الخوف من الله جل شأنه... فإذا ما تم انتباهه، ودبت الحياة في جنباته، وبدأ في سفره، يصبح استخدام تلك الوسيلة بالقدر الذي يحافظ على استمرار صاحبه في حالة من دوام التذكر والإنابة.

معنى هذا أنه من المناسب التركيز على هذه الوسيلة في البداية، إلى أن يتم الوصول إلى المستوى الذي أشرنا إليه.

فالقلب الخائف الوجل هو المؤهل للانتفاع ببقية الوسائل الأخرى، بل إنه مفتاحها.

فالانتفاع بالقرآن يحتاج إلى هذا القلب: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

والصلاة كذلك: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

والمداومة على الصدقة تحتاج إلى هذا القلب: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ٩٩].

والانتفاع بالآيات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

فجميع الوسائل التالية لهذه الوسيلة على قدر كبير من الأهمية، إلا أن الانتفاع بها مرهون بوجود هذا القلب... نعم قد يتأثر الواحد منا بوسيلة من تلك الوسائل، إلا إنه تأثر لحظي، يزول بزوال المؤثر... هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تأثره هذا لن يغير حاله بالصورة المطلوبة.

لماذا؟!

لأن الخائف شخص مرهف الحس تجاه كل ما من شأنه أن يزيل خوفه أو يخففه؛ لذلك فهو يستقبل أي موعظة أو نصيحة استقبال من يريد النجاة، فيحسن

استخدامها والتعامل معها، ولا يتركها إلا إذا أخذ منها كل ما يمكنه أخذه لتأمين خوفه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، أما الآمن فهو عكس ذلك، لأنه لا يستشعر أن هناك خطرا قريباً منه.

تأمل قول الله عز وجل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالآيات واحدة ولكن تأثيرها يختلف باختلاف أحوال المستمعين.

فلابد من التركيز علىٰ هذه الوسيلة في البداية، وبصورة متواصلة، ولمدة معتبرة، وبعد ذلك يُنْتَقىٰ طرف منها للحفاظ علىٰ مستوىٰ الخوف في القلب.

يقول ابن القيم رحمه الله: «يشتد افتقار العبد إلىٰ العظة – وهي الترغيب والترهيب – إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتىٰ قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلىٰ التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلىٰ معرفة الأمر والنهي، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلىٰ الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلىٰ الترغيب والترهيب»[1].

الوسائل العملية لاستجلاب الخوف:

تنقسم الوسائل العملية لاستجلاب الخوف من الله – عز وجل – إلىٰ أربع أقسام:

١. كثرة ذكر الموت.
٢. الاستماع إلىٰ المواعظ والقراءة في كتب الرقائق.
٣. إحصاء الذنوب.
٤. التفكر في أسباب الخوف.

القسم الأول: كثرة ذكر الموت:

إن من أسباب الأمن الذي يلازمنا هو استشعارنا بأن يوم القيامة بعيد عنا، وأن العمر مازال فيه بقية، فالكل ينظر إلىٰ من هو أكبر منه سناً، ويمني نفسه بالاستمرار في

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢٣٩-٢٤٠).

الحياة حتىٰ يبلغ ما بلغ غيره.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يهرم بن آدم، وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»[1].

لذلك فإن بداية الخروج من دائرة الأمن إلىٰ الخوف؛ يستلزم استشعار النفس أنها في خطر من شيء يحتمل وقوعه في أي لحظة... هذا الشيء هو الموت، قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت؛ فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسَّعَه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»[2].

فالموت يهدم اللذات، لأنه «ينغصها بذكره، حتىٰ ينقطع ركون العبد إليها فيقبل على الله تعالىٰ»[3].

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: "أحسنهم خلقا" قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: "أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس"[4].

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت، والقيامة، والآخرة، ثم يبكون حتىٰ كأن بين أيديهم جنازة[5].

وقالت صفية رضي الله عنها: إن امرأة اشتكت إلىٰ عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت:

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٧٢٤ برقم: ١٠٤٧).

(٢) رواه البزار (١٣/ ٣٥٢ برقم: ٦٩٨٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ورواه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٦٠ برقم: ٢٩٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣)إحياء علوم الدين (٥/ ٤٤) بتصرف.

(٤) رواه ابن ماجه (٥/ ٣٢٧ برقم: ٤٢٥٩) ورواه البزار (١٢/ ٣١٥ برقم: ٦١٧٥)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤١٧ برقم: ١٣٥٣٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٨٢ برقم: ٨٦٢٣)، وصححه الذهبي، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٣٨٤).

(٥) ذكره الغزالي في الإحياء (٤/ ٤٥١).

«أكثري ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها»[1].

وروي أن رجلاً سألها: ما دواء قسوة القلب؟ فأمرته بعيادة المرضىٰ، وتشييع الجنائز، وتوقع الموت[2].

إن المستهدف من ذكر الموت هو انتقال هذه الحقيقة من منطقة الشعور إلىٰ منطقة اللاشعور، أو منطقة العلم اليقيني عند الإنسان، فتنطلق أفكاره، وخواطره، وتصرفاته، من هذا اليقين بتلقائية ودون تكلف.

قال ابن حبان: «العاقل لا ينسىٰ ذكر شيء هو مترقب له، ومنتظر وقوعه من قدم إلىٰ قدم، ومن لحظة إلىٰ شزرة، فكم من مكرم في أهله معظم في قومه، مبجل في جيرته، لا يخاف الضيق من المعيشة، ولا الضنك في المصيبة، إذ ورد عليه مذلل الملوك، وقاهر الجبابرة، وقاصم الطغاة، فألقاه صريعاً بين الأحبة، مفارقاً لأهل بيته وإخوانه، لا يملكون له نفعاً، ولا يستطيعون عنه دفعاً، فكم من أمة أبادها الموت، وبلدة قد عطلها، وذات بعل قد أرملها، وذي أب أيتمه، وذي إخوة أفرده.

فالعاقل لا يغتر بحالة نهايتها تؤدي إلىٰ ما قلنا، ولا يركن إلىٰ عيش مغبته ما ذكرنا، ولا ينسىٰ حالة لا محالة هو مواقعها، وما لا شك يأتيه، إذ الموت طالب لا يعجزه المقيم، ولا ينفلت منه الهارب.

يقول أبو جعفر البغدادي: قرأت علىٰ باب قصر بالسند:

نزل الموت منزلاً سلب القوم وارتحل

فقلت: ما هذا؟ فقالوا: مات أهل القصر كلهم، فأصبحوا وهذا الكتاب علىٰ الباب لا يُدرىٰ من كتبه»[3].

وقال ابن السماك: «بينما صياد في الدهر الأول يصطاد السمك، إذ رمىٰ بشبكة

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٤/ ٤٥١) والقرطبي في التذكرة (١/ ١٣٢).

(٢) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص: ٦٢).

(٣) روضة العقلاء لابن حبان (ص: ٢٨٥).

في البحر، فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكي، ويقول: عزيز؟! فلم تُترَك لعزك، غني؟! فلم تُترك لغناك، فقير؟! فلم تُترك لفقرك، جواد؟! فلم تُترك لجودك، شديد؟! فلم تُترك لشدتك، عالم؟! فلم تُترك لعلمك، يردد هذا الكلام ويبكي»[1].

وأنشد الكريزي:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها

فلا الإقامة تنجي النفس من تلف ... ولا الفرار من الأحداث ينجيها

وكل نفس لا زَوَرٌ[2] يُصَبِّحُها ... من المنية يوماً أو يمسيها.

فمن الحماقة أن يُذكر الموت، ويستبعد الواحد منا نفسه أن يكون واحداً من الموتى في أي لحظة[3].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم»[4].

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «كل يوم يقال: مات فلان وفلان، ولابد من يوم يقال فيه: مات عمر»[5].

وكان عليّ رضي الله عنه يقول: «إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى»[6].

«فملازمة هذه الأفكار وأمثالها، مع دخول المقابر، ومشاهدة المرضى، هو الذي

(١) روضة العقلاء (ص٢٨٦).

(٢) الزور والازورار: الميل والعدول، «لا زور»: بمعنى حتما، أو: لا مناص، أو لا عدول (لسان العرب: ٤/ ٣٣٥).

(٣) التوبة إلى الله للقرضاوي (ص: ٢٧٠).

(٤) الزهد لأبي داود (برقم: ٧٣).

(٥) شرح رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي للشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمه الله.

(٦) شرح رسالة المسترشدين للمحاسبي (ص: ١١١).

يجدد ذكر الموت في القلب، حتىٰ يغلب عليه، بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد، ويتجافىٰ عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب، وعذبة اللسان، قليل الجدوىٰ في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد من مفارقته.

نظر ابن مطيع ذات يوم إلىٰ داره، فأعجبه حسنها، ثم بكىٰ، فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا. ثم بكىٰ بكاء شديداً حتىٰ ارتفع صوته»[١].

أثر تذكر الموت في إصلاح النفوس:

يقول د.عمر الأشقر: إن لتذكر الموت أثر كبير في إصلاح النفوس وتهذيبها، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها، وتطمع في البقاء المديد في الحياة، وقد تهفو إلىٰ الذنوب والمعاصي، وقد تقصر في الطاعات، فإذا كان الموت دائماً علىٰ بال العبد، فإنه يُصغّر الدنيا في عينيه، ويجعله يسعىٰ في إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره[٢].

قال الدقاق: من أكثر ذكر الموت أُكرم بثلاثة: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوجل بثلاثة: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة[٣].

الوسائل العملية للتذكر الدائم للموت:

١- زيارة القبور:

فعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ٤٨).

(٢) القيامة الصغرى لعمر الأشقر (ص: ٨١).

(٣) التذكرة للقرطبي (١/ ٢٧).

(٤) رواه مسلم (٣/ ١٥٦٣ برقم: ١٩٧٧) والزيادة عند ابن ماجه (٢/ ٥١١ برقم: ١٥٧١) وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٦١).

فليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية[1].

فبين القبور يتذكر الزائر أقرانه وأقاربه ممن سبقوه إليها... «فيتذكر موتهم، ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاءهم في قبورهم، وكيف أرملوا نسائهم، وأيتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلاً، وفصَّل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده، وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع، والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد، والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين، في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك، وقرع سمعه النداء، إما بالجنة وإما بالنار، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم»[2].

يقول ابن الجوزي: «يا أخي إذا أردت أن تدري كيف حالك من بعدك فاخرج إلى القبور، وانظرها وقد عَفَت، ومثِّل قبرك بينها، ثم انظر ماذا تحتاج إليه في قبرك؟ فأكثر منه لطول مدتك فيه، وهو العمل الصالح، فأما ما سوى ذلك، فما لك حاجة من شيء من أمور الدنيا، فإنه يصير عليك وبالاً في قبرك وحسرة، وانظر حالك الذي أنت عليه، إن كان يصلح للموت والقبر فتمادى عليه، وإن كان لا يصلح لهذين فتب إلى الله تعالى منها، وارجع إلى ما يصلح»[3].

---

(١) التذكرة (١/ ٣٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٥/ ٤٧، ٤٨).

(٣) بستان الواعظين (ص: ٢٦٨).

٢- تغسيل الموتى واتباع الجنائز:

عن أبي ذر ﵁ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة، وصَلِّ على الجنائز؛ لعل ذلك يحزنك؛ فإن الحزين في ظل الله يوم القيامة»(١).

فلنتحين الفرصة لتغسيل الموتى، والصلاة عليهم، وحملهم إلى قبورهم، وحثو التراب عليهم؛ فإن تكرار هذا من شأنه أن يجعل المرء على ذكر دائم للموت، والله أعلم.

٣- خاطرة الموت:

وذلك بأن نجعل لنا كل بضعة أيام وقتاً نخلو فيه بأنفسنا ونجلس في مكان هادئ، بعيداً عن الضوضاء، نتخيل فيه أن ملك الموت قد حضر لنزع الروح، ونتخيل كذلك أثر وقع هذا الخبر على الزوجة والأولاد، والأهل والأصدقاء، وكيف سيكون رد فعلهم تجاه ذلك، ونتخيل المغسل وهو يغسل الرأس والأطراف، والجسم كله، ونحن مستسلمون ليديه، حتى إذا ما انتهى من عمله، حملنا الأهل والأصدقاء، فصلَّوا علينا، وسارعوا بنا إلى المقابر فألحدونا، ثم حثوا التراب وانصرفوا... ونتخيل كذلك مجيء منكر ونكير في صورتهما الشديدة، وكيف سيكون ردنا على أسئلتهما؟

يقول القرطبي: «مثل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات... والأنين والغمرات، فمن قائل يقول: إن فلانا قد أوصى، إن فلانا قد أحصى، ومن قائل يقول: إن فلانا ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر على رد الجواب، ثم تبكي ابنتك وهي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبي أبي من ليُتمي من بعدك؟ ومن لحاجتي؟ وأنت والله تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب، فخيل لنفسك يا بن آدم، إذا أُخذت من فراشك إلى لوح مغسلك، فغسلك الغاسل، وأُلبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تحالِلُه (أي: تتحلل منه)؟ وأين

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٦ برقم: ٧٩٤١) وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء.

اليتامىٰ ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبداً؟»[1].

٤- الاستعداد الفعلي لاستقبال الموت:

فالموت مصيبة هكذا سماه الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [المائدة: ١٠٦].

والعاقل لا يتغافل عن هذه المصيبة الأكيدة، فقد يكون الاستعداد للمصيبة سببَ نجاةٍ وفوز، فالميت مصاب بمصيبة الموت، كما أن أهله مصابون، الميت مصيبته أن انقطع عمله، وضاعت فرصة استدراك ما فاته، وأهله مصيبتهم ألم الفراق، وفي انقطاع منافع كان الميت سبباً فيها.

ولكن إذا استعد الإنسان لموته لم يعد موته مصيبة، بل قد يكون هو راحته وفوزه، وإذا استعد الإنسان لموت أحبابه هُدي إلىٰ الصبر والثبات وفاز من المصيبة بالأجر[2].

والاستعداد الفعلي للموت يكون بهذه الأمور ومثلها:

- كتابة الوصية ودوام مطالعتها لحذف أو إضافة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[3]، قال ابن عمر: «ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي»[4].

وفي هذه الوصية يكتب الواحد فينا ما يريده من أهله وأولاده، وكيف ينظمون حياتهم بعده، وكيف يتصرفون في أمواله.

- التفكير في صدقة جارية يعود نفعها إليه من بعد موته.
- شراء الكفن ومشاهدته كل مدة.

---

(١) التذكرة للقرطبي (ص: ٤٧).

(٢) في رياض الجنة لجاسم عبد الرحمن (١/ ١٥٨، ١٥٩).

(٣) رواه البخاري (٤/ ٢ برقم: ٢٧٣٨) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٢٥٠ برقم: ١٦٢٧).

(٤) رواه مسلم (٣/ ١٢٥٠ برقم: ١٦٢٧).

- الجلوس مع الزوجة وترتيب أمر بيته من بعد موته.
- المسارعة إلى تسديد الديون.
- دوام مطالعة الوصية لحذف أو إضافة.

ولقد كان السلف الصالح ﷺ يحرصون على الاستعداد الفعلي للموت، فهذا حبيب بن محمد الفارسي يقول لامرأته: «إن مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني، وافعلي كذا وكذا»، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟! قالت: هذا يقوله كل يوم(1).

٥- كتابة الأمنيات:

فيتخيل الواحد منا أن ملك الموت قد أتاه، وبدأ في نزع الروح، وأنه قد دخل إلى القبر، وواجه الملكين بأسئلتهما، وأنه قد فوجئ بأن تجهيز القبر يكون بالأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

فعلى قدرها - برحمة الله - يكون مستوى التجهيز، فإما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النيران.

ويتخيل قدر حسرته على ما فاته من أعمال البر، ويتخيل كذلك تمنيه العودة إلى الدنيا، ليعمل صالحاً فيما ترك، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

فيُدوِّن أمنياته التي يود العودة إلى الدنيا للقيام بها، في عبادته من صلاة وصيام، وذكر وإنفاق، وحج وعمرة، وفي أمواله وعقاراته، ومع أولاده، وزوجته، ووالديه، ومع جيرانه، ومع أرحامه، ومع العمل للإسلام، والدعوة إليه، ويتذكر كذلك المظالم التي كانت عليه، والتي يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليتحلل منها، وبعد أن يحصي أمنياته إحصاءً دقيقاً، عليه أن يتذكر أنه الآن في الأمنية التي يتمناها جميع الموتى، فيبدأ بجدولة تلك الأمنيات، ويضع خطة لتنفيذها، ويراجعها أولاً بأول، ويتذكر دائماً أنه بالموت تنقطع صلته بالعمل.

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١٨٩).

كان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد، من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك بعد الموت؟[1].

٦- تذكر ساعة الاحتضار ومشاهدة المحتضرين:

يقول ابن الجوزي: عندما يفيق المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباها لا يوصف، ويقلق قلقاً لا يُحد، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو تُرِك ليتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف.

ولو وُجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوي، فالعاقل من مثَّل تلك الساعة، وعمل بمقتضى ذلك، فإن لم يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته، تخايله على قدر يقظته، فإنه يكف كفَّ الهوى، ويبعث على الجد، فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه كان كالأسير لها[2].

ويروى أن الحسن البصري دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله، فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه[3].

يقول القرطبي: فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد[4].

٧- تذكر ساعة المرض ومشاهدة المرضي:

نادراً ما تجد إنسان منا لم يمرض في حياته قط، فلو تذكر كل منا أحواله ساعة مرضه، من تغير طعم الحياة في فمه، وفتور همته، وضعف عزيمته، وتثاقله عن أداء

---

(١) التذكرة للقرطبي (ص: ٢٦، ٢٧).

(٢) صيد الخاطر (ص ٢١٢، ٢١٣).

(٣) التذكرة للقرطبي (١/ ٣٢).

(٤) التذكرة للقرطبي (١/ ٣٢).

الطاعات والواجبات، وعدم قدرته على القيام بأمور كثيرة كان يؤديها بسهولة ويسر وقت صحته وعافيته، ثم يتذكر ساعة الاحتضار وهي أشد بكثير من ساعة المرض، ويتذكر أنه كما جاءه المرض بلا مقدمات فستأتيه ساعة الاحتضار كذلك، وكما أنه كان يحلم في مرضه بالساعة التي يسترد فيها عافيته فإنه سيتمنى ساعة الاحتضار العودة إلى الدنيا للاجتهاد في أعمال الآخرة.

ومع تذكره لساعة مرضه عليه أن يداوم على زيارة المرضى، ورؤية أصحاب العاهات، وهذه وسيله نافعة وميسرة، فالمستشفيات مليئة بالمرضى، وبها الكثير من الحالات الحرجة والتي تنغص رؤيتها على الإنسان حياته، وتريه الدنيا على حقيقتها، وأنها لا تدوم لأحد.

٨- مجالس تقصير الأمل:

على كل منا أن يجلس مع نفسه جلسة هادئة، وفيها ينظر إلى حياته نظرة موضوعية، وليتتبع طموحاته وآماله، وليَسِرْ وراءها ليعرف أين ستقف وأين ستنتهي؟

فمهما كانت طموحات المرء من زواج وأولاد وجاه وثراء وشهرة، ومهما نجح في تحقيقها فلن يستطيع الحفاظ عليها؛ لأن الموت قد يأتيه في أي لحظة فيفرق بينه وبين ما أفنى حياته في جمعه وتحصيله.

ثم إن هذه الأماني وتلك الآمال والطموحات الدنيوية التي يسعى المرء إلى تحقيقها ماذا ستقدم له؟! المجد الشخصي والفخر في الدنيا؟! كل هذا سينتهي بالموت، فكما قالوا: لا فخر لميت، فالكل في التراب، الغني والفقير، الرئيس والمرؤوس.

تأمل قول الرسول ﷺ: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»[١].

---

(١) رواه الطيالسي (٣/٣١٣ برقم: ١٨٦٢)، والحاكم (٤/٣٦٠ برقم: ٧٩٢١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٨٣١).

فما الفائدة إذن؟! ولما الركض وراء الدنيا بغية تحصيل أكبر قدر منها، ونحن بين لحظة وأخرى قد نفارقها، فلا المال الذي تعبنا من أجل تحصيله استمتعنا به، ولا المنصب الذي حاربنا من أجل الوصول إليه ذقنا حلاوته، ولا الأولاد الذين ضحينا كثيراً من أجلهم نفعونا بشيء.

ألا ترى أنه لا يكاد يمر يوم إلا ونودع فيه أناسا كانوا بين أظهرنا، وكانت لهم آمال وطموحات مستقبلية مثلنا، وفجأة جاءهم الموت وحال بينهم وبين أحلامهم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1].

وعن عبد الله بن عمرو قال: مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصا لنا، فقال: «ما هذا»؟ فقلنا قد وهى فنحن نصلحه، فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»[2].

وعن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «يا أهل دمشق استمعوا إلى قول أخ لكم ناصح، قال: فاجتمعوا إليه، فقال: مالي أراكم تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأمَلون ما لا تُدركون؟ فإنه كان قبلكم بنوا شديداً، وأمَّلوا بعيداً، وجمعوا كثيراً، فاصبح أملهم غروراً، ومجمعهم بوراً، ومساكنهم قبوراً»[3].

وعن عبد الله بن شميط قال سمعت أبي يقول:

«أيها المغتر بطول صحته، أما رأيت ميتاً من غير سقم؟

أيها المغتر بطول المهلة، أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدة؟

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٨٩ برقم: ٦٤١٦).

(٢) رواه أحمد (١١/ ٤٦ برقم: ٦٥٠٢)، وابن ماجه (٥/ ٢٤٦ برقم: ٤١٦٠)، وأبو داود (٧/ ٥٢٠ برقم: ٥٢٣٥)، والترمذي (٤/ ٥٦٨ برقم: ٢٣٣٥) وقال حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٦٢ برقم: ٢٩٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص: ١٦٩، ١٧٠).

إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما تقدَّم من لذاتك، أبالصحة تغترون؟! أم بطول العافية تمرحون؟! أم للموت تأمنون؟! أم على ملك الموت تجترئون؟!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط؟»[١].

وقال الحسن: «إذا سرك أن تنظر إلى الدنيا بعدك فانظر إليها بعد غيرك»[٢].

القسم الثاني: من وسائل استجلاب الخوف:

الاستماع إلى المواعظ والقراءة في كتب الرقائق:

عن العرباض بن سارية ﵁ قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب»[٣].

«فالموعظة سياط تُضرب بها القلوب، فتؤثر فيها كتأثير السوط على البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره حال وجوده... لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه، فكلما قوي الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر.

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجالس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار.

وكان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئاً»[٤].

تأثير المواعظ على الناس يختلف من شخص لآخر، فمنهم من يتأثر بها تأثيراً وقتياً، فإذا ما انقضت الموعظة رجع إلى ما كان عليه من الغفلة، ومنهم من استعمل

---

(١) قصر الأمل، لابن أبي الدنيا (ص: ٦١، ٦٢).

(٢) قصر الأمل، لابن أبي الدنيا (ص: ٨٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧ برقم: ١٧١٤٢)، وابن ماجه (١/ ٢٨ برقم: ٤٢)، وأبو داود (٧/ ١٦ برقم: ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٤ برقم: ٢٦٧٦)، وصححه الأرنؤوط.

(٤) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ١٩، ٢٠).

هذه الوسيلة مع غيرها من وسائل استجلاب الخوف فكانت كالسوط توقظ قلبه، وتُريه الدنيا على حقيقتها وهذا هو المراد.

ولا ينبغي أن يتعلل أحد بضيق الوقت فلا يواظب على حضور مجالس الذكر والوعظ، فهناك البدائل ومنها المواد المسجلة: السمعية منها والمرئية، والتي تتوافر في كل مكان.

ومن هذه البدائل أيضاً: كتب الرقائق، مثل التذكرة للقرطبي، والتوهم للحارث المحاسبي، والداء والدواء لابن القيم، والتبصرة لابن الجوزي، وبحر الدموع لابن الجوزي، وشرح الصدور بذكر أحوال الموتى وأهل القبور للسيوطي...

القسم الثالث: إحصاء الذنوب (كتابة):

وهذا القسم يحسن القيام به بعد استخدام الوسائل السابقة، فالنفس لن تلين ولن تذل وتعترف بذنوبها إلا إذا كانت في جو يذكرها بالآخرة.

والمجالات التي ينبغي للعبد أن يحصي من خلالها ذنوبه كثيرة، فعلى الواحد منا أن يتفكر في كل مجال منها، ويحصي ذنوبه فيها، ويسجل ذلك في أوراق، ويجعلها دائماً نصب عينيه.

يقول أحد الصالحين: متى تُهت عن الطريق، فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

فبالرجوع إلى الأوراق التي أحصيت فيها الذنوب، تُذل النفس وتنكسر، ويتملكها شعور بالخوف الشديد من الله – عز وجل –، مما يدفعها إلى حسن التوبة إليه.

مجالات الذنوب:

- معاصي الجوارح: كمعاصي اللسان من غيبة، ونميمة، وكذب، وسخرية، واستهزاء بالآخرين، ومعاصي العين كالنظر إلى ما حرم الله، ومعاصي الأذنين، ومعاصي اليدين، ومعاصي القدمين، ومعاصي الفرج.
- معاصي القلوب: كالتكبر على الآخرين، وحسدهم، والافتخار عليهم، وكالإعجاب بالنفس، والزهو، والاختيال، وكالغرور، والنفاق، والرياء...

- التقصير في القيام بالحقوق: كحق الوالدين، والزوجة، والأولاد، والأرحام، وكالتقصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلىٰ الله، ونصرة المسلمين المضطهدين في شتىٰ بقاع العالم.
- التقصير في حق الطاعات: كقلة الخشوع فيها.
- التقصير في حق شكر النعم: وهذا باب عظيم ينبغي للعبد أن يلجه؛ كي يعلم مدىٰ تقصيره في جنب الله.

ولكي يدرك المرء حجم هذا التقصير لابد له من العمل علىٰ إحصاء نعم الله عليه في شتي مجالات حياته، ويسجلها، ويبذل وسعه في إحصائها إلىٰ أن يصل لدرجة العجز عن ذلك لكثرتها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

وبعد أن يحصي ما أحصىٰ من نعم، عليه أن يتذكر المقابل الذي قابل به هذا الكم الهائل من النعم... ساعتها سيعلم مدىٰ تقصيره في جنب الله، ويتملكه شعور بالخوف الشديد منه – سبحانه – فينادي من أعماقه «أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

القسم الرابع: التفكر في أسباب الخوف من الله - عز وجل -:

إن الأسباب التي تدفعنا إلىٰ شدة الخوف من الله – عز وجل – كثيرة، ولقد تمت الإشارة بفضل الله إلىٰ خمسةَ عشرَ سبباً منها في الصفحات السابقة، علينا أن نتفكر فيها، ويفضل تخصيص وقت لكل مجال علىٰ حدة، ولتكن هذه بمثابة مجالس تفكر، يجلس الواحد منا فيها مع نفسه.

مثال ذلك: مجلس تذكر أهوال يوم القيامة والسؤال أمام الله عز وجل.

فيتخيل الإنسان نفسه وهو في عرصات يوم القيامة، وقد نُودي علىٰ اسمه، وجاءت الملائكة تحضره للعرض علىٰ الله عز وجل.

ويتخيل حياءه منه سبحانه، وخوفه الشديد عندما يرىٰ أعماله وذنوبه التي كان

قد نسيها، ويتخيل سؤال الله له ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢ – ٩٣].

ويستحضر قول رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئا قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة»[1].

وليجهز إجاباته عن الأسئلة التي سيُسأل عنها بين يدي الله.

فبماذا سيجيب المولى تبارك وتعالى عن صلاته ودرجة خشوعه فيها؟!

وبماذا سيجيب إذا ما سأله عن وقته؟ وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن زوجته وأولاده؟ وعن صيامه وزكاته وحجه؟ وعن حقوق الآخرين كالوالدين والأرحام والجيران؟!

وبماذا سيجيب إذا ما سأله عما فعله لرفع الظلم والاضطهاد عن المسلمين في شتي بقاع العالم؟!

وبماذا سيجيب إذا ما سأله عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!

وبماذا سيسوّغ فعله للمعاصي التي ارتكبها؟

وغير ذلك من الأسئلة التي من شأنها أن تُشعر الإنسان بالخجل والتقصير في حق الله، ومن ثم المبادرة إلى التوبة والاستعداد للقاء الله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) رواه البخاري ٨/ ١١٢ برقم: ٦٥٣٩)، ومسلم (٢/ ٧٠٣ برقم: ١٠١٦).

بين الخوف والرجاء

فإن قال قائل: إن هذا القدر من الخوف إذا دخل القلب فإن من شانه أن يجعل البعض منا يترك الدنيا ويعتزل الناس، وقد يدفع البعض الآخر إلىٰ القنوط من رحمة الله وهذا من الكبائر... وقد يقول آخر: وأين موقع الرجاء هنا والآيات كثيرة تتحدث عن سعة ورحمة الله وعفوه ومغفرته؟!

يجيب عن هذا التساؤل الإمام أبو حامد الغزالي فيقول: اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت، وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما؟ وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يُقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نُظر إلىٰ الأغلب، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما مستويان، وهذا لأن كل ما يُراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلىٰ مقصوده لا إلىٰ نفسه، والخوف والرجاء دواءان يُداوىٰ بهما القلب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب علىٰ القلب داء الأمن من مكر الله والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب علىٰ العبد المعصية فالخوف أفضل.

وعلىٰ الجملة فما يُراد لغيره ينبغي أن يُستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل، فنقول: أكثر الخلق الخوف أصلح لهم من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي، فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه، وخفيه وجليه، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا، وروي أن علياً ﷺ قال لبعض ولده: يا بني خف الله خوفاً ترىٰ لو أنك أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترىٰ أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض لغفرها لك، ولذلك قال عمر ﷺ: لو نُودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نُودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذه عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء، ولكن علىٰ سبيل التقاوم والتساوي، فمثل عمر ﷺ ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه، فأما

العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استُثني من الذين أُمروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره(١).

ويقول ابن القيم: «القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف»(٢).

غاية الخوف:

إذا ما تبين أن الخوف إنما هو وسيلة لإيقاظ القلوب فما هي غايته وحدوده؟!

أما غاية الخوف فهي: طرد الدنيا من القلوب، وحرق مواضع الشهوات فيها تمهيداً لعودة الحياة مرة أخرى إليها.

ومن غايات الخوف أيضاً: تأهيل القلوب لتلقي أعظم موعظة ووسيلة لزيادة الإيمان، ألا وهي القرآن الكريم، الذي جعل – سبحانه وتعالى – الشرط الأساسي للانتفاع به هو وجود قلب خائف يقظ، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

فالخوف وسيلة نستخدمها في البداية لإيقاظ الإيمان وبعد ذلك نعتدل في التعامل معها بعد حصول المقصود منها.

فالخوف المحمود: «هو الذي يحث على العمل، ويكدر جميع الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا، ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف عن المعاصي والحث على فعل الطاعات، ودون الوصول لليأس

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢٧٢).

الموجب للقنوط»[1].

خير الهدي هدي محمد ﷺ:

إن خير الهدي هدي الرسول الأمين ﷺ فما ترك شيئاً يقربنا إلى الله إلا دلنا عليه، يقول تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤].

فهو خير الخلق، وأكملهم وأعلمهم بربه، فهديه هو خير الهدي، وخُلُقه هو أحسن الخُلُق، وصحابته هم خير الأصحاب.

فإذا ما نظرنا إليه ﷺ فسنجد أنه أشدنا لله خشية، كما قال ﷺ: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له..»[2].

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها «كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء، أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبي ﷺ: «ما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[3].

وكان إذا ذهب ثلث الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، يا أيها الناس اذكروا الله، يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»[4].

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٧).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢ برقم: ٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٧٩ برقم: ١١٠٨).

(٣) رواه البخاري (٤/ ١٠٩ برقم: ٣٢٠٦)، ومسلم (٢/ ٦١٦ برقم: ٨٩٩).

(٤) رواه أحمد في المسند (٣٥/ ١٦٥ برقم: ٢١٢٤١)، والترمذي (٤/ ٦٣٦ برقم: ٢٤٥٧)، وقال: هذا حديث حسن، والحاكم (٢/ ٤٥٧ برقم: ٣٥٧٨)، واللفظ له، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

ولهم خنين»[1]

ويصف علي بن أبي طالب ﷺ الصحابة فيقول ﷺ: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم والله لكأن القوم باتوا غافلين» ثم نهض فما رئي بعد ذلك مفترا يضحك حتى ضربه ابن ملجم عدو الله الفاسق[2].

ومع هذا الخوف الشديد الذي لم يفارق قلوبهم كان رجاؤهم بربهم مثله أو أشد... لقد عاشوا مع قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، فتقلبت قلوبهم بين الخوف والرجاء، كما وصفهم ربهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومثال ذلك ما كان يقوله يحيى بن معاذ: كيف أخافك وأنت كريم؟ وكيف لا أرجوك وأنت عزيز؟ فأنا بين خوف يقطعني، ورجاء يوصلني، فلا رجائي يدعني أموت خوفاً، ولا خوفي يتركني فأحيا فرحاً[3].

ومع هذا الخوف المزعج، والرجاء المقلق، فإنهم مارسوا حياتهم بصورة طبيعية، فلم يعتزلوا الناس بحجة الانشغال بالنفس، ولم يتركوا الدنيا، بل تزوجوا، وأنجبوا، وسعوا في الأرض، وكان منهم التاجر، والعالم، والصانع... كيف لا وسيد الخاشعين محمد ﷺ وهو الأسوة لنا جميعاً يأمرنا بالتوازن والاعتدال، وإعطاء كل ذي حق حقه، يقول ﷺ: «... فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن لزوجك

(١) رواه البخاري (٦/ ٥٤ برقم: ٤٦٢١)، ومسلم (٤/ ١٨٣٢ برقم: ٢٣٥٩)، والخنين: هو البكاء مع غُنّة واستنشاق الصوت من الأنف.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مقتل علي بن أبي طالب (برقم:٦)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٣١٠ برقم: ١٤٦٦).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٣٠ برقم: ١٠٠٣).

عليك حقا»[١].

لذلك لم يبلغنا عنهم – وهم خير جيل – أنهم انقطعوا لعبادة الله، وتركوا الانشغال بأمورهم المعيشية، فإذا ما وجدوا من بينهم من يحتاج إلىٰ ضبط فهمه، وإعادة ترتيب أولوياته، سارعوا إليه بالنصح والتوجيه، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ قد بلغه أن رجالاً خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريباً يتعبدون، فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم، فقال لهم: ما حملكم علىٰ ما صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد، فقال عبد الله: «لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم، فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتىٰ ترجعوا»[٢]

وبعث الحسن البصري قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل، وقال لهم: «مروا ثابتا البناني فأشخِصوا به معكم» فقال لهم ثابت: إني معتكف فرجع حميد إلىٰ الحسن فأخبره بالذي قال ثابت، فقال: «ارجع إليه فقل له يا عميش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة»[٣].

وسُئل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: هل كان الصحابة رضي الله عنهم يضحكون، قال: «نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال»[٤].

لقد كان الواحد منهم «يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه، من اكتساب الحلال، والقيام علىٰ العيال، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه، كتعليم العلم، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء هم خلفاء الرسل، وهم الذين قال فيهم علي رضي الله عنه: «صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلىٰ»... ولم لا وهم تلامذة سيد المرسلين، فلقد كان حاله ﷺ عند الذكر يتغير، ثم يرجع بعد انقضائه إلىٰ مخالطة الناس، والقيام بحقوقهم، فعن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٣١ برقم: ٦١٣٤)، ومسلم (٢/ ٨١٣ برقم: ١١٥٩)، وزورك أي ضيفك.

(٢) الزهد لابن المبارك (برقم: ١١٠٤).

(٣) اصطناع المعروف لابن أبي الدنيا (برقم: ١٦٣).

(٤) جامع معمر بن راشد (١١/ ٤٥١ برقم: ٢٠٩٧٦).

صوته كأنه منذر جيش يقول: «صبحكم ومساكم»[(١)].

وسُئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه؟ قالت: «كان رسول الله ﷺ ألين الناس، وأكرم الناس، وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان ضحاكا بساما»[(٢)].

فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم وعاشروا الخلق بأبدانهم»[(٣)].

كيف نضبط الميزان؟

وفي نهاية هذا الفصل يبقى تساؤل يحتاج إلى إجابة وهو: ماذا نفعل حين يشتد بنا الخوف فيدفعنا للإحباط والقعود؟

الخوف من الله هو وقود التزكية، وهو الدافع القوي – بإذن الله – لسلوك طريقها، ولكنه حين يهيمن على المرء ويسيطر عليه فمن المتوقع أن يتسرب إليه الشعور باليأس من النجاة، وقد يدفعه ذلك للقعود عن الاجتهاد في العمل.

لذلك كان من الضروري الانتباهُ لهذا المنعطف في أنفسنا والآخرين ممن حولنا..

ولو تأملنا طريقة القرآن في طرح معنى الخوف نجده يضغط عليه بقوة، ولكن في الوقت ذاته يطرح بجواره معنى الرجاء حتى يحدث التوازن المطلوب بإذن الله كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣﴾ [الكهف: ١-٣].

وقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ۝١٤ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ۝١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ۝١٦﴾ [الفرقان: ١١-١٦].

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٥٩٢ برقم: ٨٦٧).

(٢) مسند إسحاق بن راهوية (٣/ ١٠٠٨ برقم: ١٧٥٠)، ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (برقم: ٣٩٧).

(٣) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ١٨، ١٩).

إن القرآن الحكيم يرفع منسوب الخوف من الله في القلب ولكن لا يصل به إلىٰ درجة اليأس والإحباط من خلال مزجه بآيات الرجاء التي تبشر المؤمنين ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

فعلينا أن نأخذ بطريقة القرآن الحكيم في التعامل مع هذه الحالة — إن حدثت — ونتلمس آيات الرجاء، ونقف عندها طويلا كما نقف عند آيات الخوف من الله..

أيضا: من الضروري التعرفُ علىٰ سعة رحمة الله عز وجل حتىٰ تتوازنَ مشاعرنا وردود أفعالنا، وحبّذا لو بحثنا عن ذلك من خلال تلاوتنا للقرآن[1].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) فإذا استمر لديك أخي القاريء الشعور بشيء من الإحباط أو ما شابه... فمن المناسب أن تقرأ باب الرجاء في رياض الصالحين، أو كتاب كيف نحب الله ونشتاق اليه.

الفصل الثاني

حُسن التعامل مع القرآن الكريم

الفصل الثاني

حُسن التعامل مع القرآن الكريم

القرآن الكريم هو أفضل وسيله لزيادة الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وهو العلاج الناجع لأمراض القلوب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو روح القلوب.. يحييها من جديد فيجعل منها قلوباً مهيأة للسير إلىٰ الله، وحسن الاتصال به ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهو النور الذي يبدد للسالكين ظلمات الشك، وينير لهم طريق الهدىٰ ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦].

به يبصر العبد طريقه إلىٰ الله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

ويهتدي من خلاله إلىٰ الرشد ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١ – ٢].

من سار علىٰ نهجه فقد التزم صراط الله المستقيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ – ١٧٥].

وهو طريق الربانية ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فمن أراد السير المأمون إلىٰ الله عز وجل والتزام صراطه المستقيم فعليه بالقرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٧ – ٢٨].

الدليل الأمين:

القرآن حبل الله المتين من استمسك به، واتبع هداه ارتفع إلى السماء، واقترب من مولاه.

قال رسول الله ﷺ: «أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»، قالوا: نعم، قال: «فإن هذا القرآن سببٌ طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا»(١).

والقرآن هو الدليل الأمين الذي يقود من يتبعه إلى الله في أقصر طريق وبأقل مجهود.

يقول ابن القيم: «ورأس الأمر وعموده في سفر الهجرة إلى الله، إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله، حيث تستولي على الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه، وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكناً وهو يباري الرياح ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]»(٢).

يا حسرة من هجر القرآن:

مساكين هم من تركوا القرآن، وأجهدوا أنفسهم في البحث عن طريق آخر يوصلهم إلى الله... يا حسرتهم عندما يجدون أن ما كانوا يبحثون عنه كان في متناول أيديهم.

لقد اجتهدوا في وصف الطريق إلى الله، فوضعوا أورادا وإشارات وعبارات غامضة، ونسوا القرآن مع أن الطريق إلى الله واضح فيه كوضوح الشمس وسط النهار.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦)، وابن حبان (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني (٢٢/ ١٨٨) وحسنه الأرنؤوط، ومعنى «سبب»: حبل.

(٢) زاد المهاجر إلى ربه (الرسالة التبوكية) لابن القيم (ص: ٤٩، ٥٠).

ولقد تأثر البعض منا بهؤلاء طمعاً في القرب من مولاه، فسار وراءهم، وتبنى مسلكهم، والتزم بأورادهم، وبعد مدة طويلة نظر تحت قدميه فوجد أنه لم يبرح مكانه.

ويؤكد ابن القيم رحمه الله على هذا المعنى فيقول: «عليك أولاً بنقل قلبك من وطن الدنيا فتُسكنه في وطن الآخرة، ثم تُقبل به كله على معاني القرآن، واستجلائها وتدبرها، وفهم ما يراد منها، وما نزل من أجلها، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزله على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنه لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطرق ألبتة، وعليها من الله حارس وحافظ، يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذا الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها»[1].

وقال خباب بن الأرت ﷺ: تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه»[2].

المعجزة الكبرى:

القرآن هو النعمة العظمى والمعجزة الكبرى التي اختص الله بها هذه الأمة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فمعجزة القرآن أعظم معجزة جاءت من عند الله عز وجل للبشر... أكبر من معجزة عيسى عليه السلام في إحيائه للموتى وشفائه للمرضى – بإذن الله –، وأكبر من عصا موسى عليه السلام التي شق بها البحر، وأكبر كذلك من ناقة صالح عليه السلام وغير ذلك من المعجزات، فما هو سر تلك المعجزة والذي جعلها تتفوق على كل ما سبقها من معجزات؟!

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢٩٣) بتصرف.

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد (برقم: ١٩٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٩ برقم: ٣٦٥٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.

قد يقول قائل: إن معجزة القرآن تكمن في ألفاظه وأسلوبه وقوة بيانه، وتكمن كذلك في علومه ومعارفه، وتشريعه، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وتحدي البشر أن يأتوا بمثله...

...نعم هذا كله من أوجه إعجاز القرآن، ولكن يبقى سر إعجازه الأعظم في قدرته على التأثير في الإنسان، وتغييره من أي حال يكون فيها، ليتحول من خلاله إلى إنسان آخر عالماً بالله عز وجل عابداً له على بصيرة في كل أموره وأحواله حتى يتمثل فيه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

...هذا التغيير يشمل جوانب الفرد من عقل وقلب ونفس.

فالقرآن يخاطب العقل، ويُعلي من شانه، ويستثير كوامنه، ويبني فيه التصور الصحيح لحقائق الوجود، ويرسم داخله شجرة الإسلام بما فيها من جذور وأصول وفروع، لينتج عن ذلك عقلية علمية متوازنة تُعطي كل ذي حق حقه.

وللقرآن تأثير كبير على القلب –كما سيأتي بيانه–، ويتجلى دوره العظيم في قدرته – بإذن الله – على زيادة الإيمان في القلب وطرد الهوى منه، وعودة الحياة الحقيقية إليه، ومن ثَم تأهيله للسير إلى الله.

أما النفس فللقرآن دور عجيب في ترويض النفس وجهادها على القيام بالطاعة والاستقامة على أمر الله بصدق وإخلاص[1].

قوة تأثير القرآن:

إن للقرآن قوة تأثير ضحمة على من يُحسن التعامل معه، والدخول إلى دائرة تأثيره، ولقد ضرب الله عز وجل مثلاً يقرب للأذهان مدى تأثير هذه القوة: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

(١) تم – بفضل الله – بيان طريقة القرآن في التغيير من خلال محاور: العقل والقلب والنفس في كتاب «العودة إلى القرآن لماذا وكيف؟!».

فالجبال –كما يقول القرطبي –: «إذا ما خُوطِبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ لها، لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلَرَأَيْتَهَا عَلَى صَلَابَتِهَا وَرَزَانَتِهَا خَاشِعَةً مُتَصَدِّعَةً، أَيْ مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»(١).

فإن كان هذا هو تأثير القرآن على الجبال، فكيف يكون تأثيره على القلوب؟! قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

القرآن وزيادة الإيمان:

من معاني الإيمان بالله: إقرار وتصديق العقل للحقائق التي أخبر الله بها عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ مع تجاوب وانفعال المشاعر القلبية مع هذا الإقرار والتصديق.

والإيمان يزيد وينقص... يزيد في لحظات التجاوب والانفعال القلبي لكل ما هو لله، وينقص في لحظات التجاوب والانفعال لكل ما هو للهوى، من هنا يأتي الدور الخطير للقرآن في زيادة الإيمان من خلال قدرته بإذن الله على استثارة المشاعر، وتأجيجها، وتوجيهها لله عز وجل ولمحابه ومراضيه، ومن وسائله في ذلك: مواعظه البليغة، وقوة سلطانه على النفوس.

وباستثارة المشاعر تتولد الطاقة داخل الانسان، والتي من شأنها أن تدفعه للتعبير عنها بجوارحه، فإذا ما أحسن العبد تصريف هذه الطاقة بالبكاء والدعاء والأعمال الصالحة، ازداد التجاوب القلبي، وازداد الإيمان.. قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩].

القرآن وحياة القلوب:

وبالمداومة على قراءة القرآن، والدخول شيئاً فشيئاً إلى دائرة تأثيره، تزداد فترة

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣٠).

التجاوب القلبي مع الآيات، ويزداد الإيمان تبعاً لذلك.. وكلما ازداد الإيمان نقصت مساحة الهوىٰ في القلب، إلىٰ أن تأتي لحظة من أجمل لحظات الحياة ألا وهي تمكن الإيمان من القلب واستحواذه علىٰ مشاعره بأكملها وتحريره من الهوىٰ، عند ذلك تتم ولادته من جديد قلباً، حياً، يقظاً، نابضاً يتحرك ويخشع، ويجده صاحبه معه عندما يريده.. هذه اللحظات السعيدة سماها العلماء «الولادة الثانية».

يقول ابن القيم: «فللروح في هذا العالم نشأتان إحداهما النشأة الطبيعية المشتركة، والثانية نشأة قلبية روحانية، يولد بها قلبه وينفصل عن مشيمة طبعه كما وُلد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن، ومن لم يصدق بهذا فليضرب عنه صفحاً وليشتغل بغيره.

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: أن المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام قال للحواريين: «إنكم لن تلجوا ملكوت السماوات حتىٰ تولدوا مرتين»[1].

وعندما تتم هذه الولادة، ويُولد القلب الحي، عندئذ تبدأ رحلته المباركة في السير إلىٰ الله للوصول إلىٰ معرفته في الدنيا، والقرب منه في الآخرة.

فلا شيء إذن أنفع للقلب – كما يقول ابن القيم – من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضىٰ، والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الاحوال التي بها حياة القلب وكماله.

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه»[2].

نموذج للتغيير القرآني:

لو أردنا نموذجاً عملياً لما يمكن أن يحدثه القرآن من تغيير لوجدنا أمامنا جيل الصحابة، والذين كانوا قبل إسلامهم غاية في الغرابة والجاهلية... لقد كانت الحرب

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٤٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣).

تقوم بينهم لأتفه الأسباب، وكان بعضهم يدفن بناته وهن أحياء بلا أي جُرم ارتكبنه... وكانوا يصنعون الأصنام بأيديهم من الطعام فإذا جاعوا أكلوها...

..دخل هؤلاء بهذه الحالة إلى مصنع ومدرسة القرآن، ليخرجوا منه بعد ذلك أناساً آخرين تفخر بهم البشرية حتى الآن.

إنه لأمر عجيب يشهد بقدرات هذا الكتاب على إحداث التغيير الجذري في النفوس – أي نفوس – وإلا فمن يصدق أن أمة تعيش في الصحراء، حفاة، عراة، فقراء، بلا مقومات تذكر، لا توضع في حسابات القوى الكبرى آنذاك، فيأتي القرآن ليغيرها ويعيد صياغة شخصيتها وكيانها من جديد، ويرفع هامات أبنائها إلى السماء، ويربط قلوبهم بالله ليكون وحده هو الغاية والمقصد ... حدث كل هذا في وقت قصير... سنوات معدودة كانت كفيلة بإحداث هذا التغيير الجذري... فماذا كانت النتيجة؟!

تحقق الوعد الذي وعد الله به عباده إذا ما قاموا بتغيير ما بأنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

ففي سنوات معدودة خرجت القوة الجديدة من قلب نفس الصحراء لتحطم الإمبراطوريات وتقلب الموازين وتؤول لها القيادة والريادة ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

الرسول والقرآن:

الذي مكّن القرآن من إحداث هذا التغيير الجذري في جيل الصحابة هو حسن تعاملهم معه وانتفاعهم بمعجزته بعد أن أدركوا قيمته، وفهموا المقصد من نزوله، ولقد كان أستاذهم ومعلمهم رسول الله ﷺ قدوتهم في ذلك، فلقد عايش ﷺ القرآن بكيانه كله وانصبغت حياته به، حتى صار كأنه قرآن يمشي على الأرض، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه[1].

---

(١) روى مسلم في صحيحه (١/ ٥١٢ برقم: ٧٤٦) أن سعدا بن هشام قال للسيدة عائشة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين أنبئيني

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ»[(١)].

ولقد ظل ﷺ ليلة كاملة يردد في صلاته آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(٢)].

بل إنك لتعجب من قوة تأثير القرآن على رسول الله ﷺ عندما يخبرنا بقوله «شيبتني هود وأخواتها»[(٣)].

.. خرج ﷺ ذات يوم فسمع امرأة عجوز تقرأ سورة الغاشية، وتردد آياتها وتبكي ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، فأخذ يبكي ﷺ ويقول: «نعم أتاني...نعم أتاني»[(٤)].

الجيل القرآني:

أما تأثير القرآن على الصحابة، فخير دليل عليه هو واقعهم الذي تبدل، واهتماماتهم التي تغيرت، فإن أردت مثلاً لكيفية معايشة الصحابة للقرآن وقوة تأثيره عليهم، فانظر إلى أمر عبَّاد بن بشر رضي الله عنه الذي كان يتبادل حراسة المسلمين مع عمّار بن ياسر رضي الله عنه في غزوة ذات الرقاع، فطلب من عمّار وقد كان مجهداً أن ينام أول الليل

عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: «ألست تقرأ القرآن؟» قلت: بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»، وفي فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١١١) أنها قالت: «كان خلقه القرآن؛ يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه».

(١) رواه مسلم (١/ ٥٣٦ برقم: ٧٧٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٣ برقم: ٣١٧٦٧)، وأحمد (٣٥/ ٢٥٦ برقم: ٢١٣٢٨)، وابن ماجه (١/ ٤٢٩ برقم: ١٣٥٠)، والنسائي (٢/ ١٧٧ برقم: ١٠١٠)، والحاكم (١/ ٣٦٧ برقم: ٨٧٩)، وصححه ووافقه الذهبي. وحسنه النووي في خلاصة الأحكام (برقم: ٢٠٢٧)، والألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١٢٠٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٥٢ برقم: ٣٠٢٦٨)، والترمذي (٥/ ٤٠٢ برقم: ٣٢٩٧)، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (٢/ ٣٧٤ برقم: ٣٣١٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٩٥٥).

(٤) عزاه ابن كثير في التفسير لابن أبي حاتم.

ويقف هو، فلما رأى أن المكان آمناً صلى، فجاء أحد المشركين فرماه بسهم فنزعه وأكمل صلاته، ثم رماه بسهم ثانٍ فنزعه وأكمل صلاته، ثم رماه بثالث فنزعه وأنهى التلاوة وأيقظ عماراً وهو ساجد، فلما سأله عمار لِمَ لَمْ يوقظه أول ما رُمي؟ أجاب: «كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها فلما تتابع عليّ الرمي ركعت فآذنتك، وايمِ الله لولا أن أُضيِّعَ ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفدها»[1].

لقد أدرك الصحابة ﷺ أهمية القرآن، وقيمته العظمى، والمقصود الأسمى من نزوله، لذلك كانوا شديدي الحرص على تدبره، والانتفاع بمعجزته، والعمل به.

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»[2].

ويؤكد على هذا المعنى أبو عبد الرحمن السلمي – وهو أحد تلامذة الصحابة – فيقول: «إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعا، وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز هذا»، وأشار بيده إلى حنكه[3].

العمل بالقرآن:

كان الصحابة ﷺ يتعاملون مع القرآن على أنه توجيهات واجبة التنفيذ، لذلك كانوا يسارعون بالعمل بما يتعلمونه من الآيات وإن أدي ذلك إلى البقاء مدة طويلة في حفظ السورة فلقد ظل عمر بن الخطاب يتعلم ويحفظ في سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، فلما أتمها نحر جزورا[4].

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة (٢/ ٢٠٩)، واللفظ له، والإمام أحمد في المسند (٢٣/ ٥١ برقم: ١٤٧٠٤)، وأبو داود (١/ ١٤٢ برقم: ١٩٨)، وحسنه الأرنؤوط.

(٢) الطبري في مقدمة التفسير (١/ ٨٠).

(٣) فضائل القرآن للفرياني (ص٢٤١، برقم: ١٦٩).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٦ برقم: ١٨٠٥).

وهذا ابنه عبد الله يتعلمها في ثماني سنين[1].

يقول عبد الله ابن مسعود ﷺ: «إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به»[2].

وكان ابن عمر ﷺ يقول: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورُزِقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به»[3].

حامل القرآن:

أما حامل القرآن عند الصحابة فقد كان يعني الكثير والكثير... يقول عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «من جمع القرآن فقد حمل أمرا عظيما، وقد استدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه»[4].

وفي معركة اليمامة وبعد أن انكسر المسلمون في بدايتها أمام جيش المرتدين، سارع الصحابة بإعطاء لواء المهاجرين إلى سالم مولى أبي حذيفة.. فعلم أنهم ما أعطوه اللواء إلا لأنه حامل للقرآن، فقال لهم: «بئس حامل القرآن أنا إذاً، فقُطِعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقطعت يساره، فاعتنق اللواء وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤ – ١٤٦]»[5].

---

(١) رواه مالك في الموطأ (برقم: ٦٩٥ بتحقيق الأعظمي).

(٢) عزاه القرطبي في التفسير (١/ ٤٠) لأبي بكر الأنباري بإسناده إلى ابن مسعود ﷺ.

(٣) رواه الآجري بنحوه في أخلاق أهل القرآن (برقم: ٣٢)، وذكره بهذا اللفظ القرطبي في التفسير (١/ ٤٠).

(٤) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١١٣).

(٥) رواه ابن المبارك في الجهاد (برقم: ١١٨).

وكان محمد بن كعب القرظي يقول: «كنا نعرف قارئ القرآن بصفرة اللون»[1].

فحمل القرآن ليس مقصورا على ألفاظه فقط، بل من الضروري أن يشمل ذلك معانيه والعمل بها قدر المستطاع، من هنا ندرك سر انزعاج أبي الدرداء عندما جاءه رجل يبشره بأن ابنه جمع القرآن فقال له: «اللهم غفرا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع»[2].

وهذا عبد الله بن مسعود يُعرِّفنا بحامل القرآن وما ينبغي عليه أن يكون، فيقول: «ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون»[3].

التحذير من هجر القرآن:

..نعم، القرآن هو كتاب هذه الأمة، ومعجزته الخالدة، وهو مصدر عزتها، وسر قوتها بما يحدثه من تغيير جذري فيمن يُحسن التعامل معه ليصبح من خلاله عبداً لله عز وجل في كل أموره وأحواله، من هنا كان التوجيه الرباني بتدبر هذا الكتاب ليكون التدبر وسيلة يتم من خلالها فهم المقصود من الخطاب والتأثر به، والعمل بمقتضاه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

معنى ذلك أن ترك تدبر القرآن يؤدي إلى عدم الانتفاع الحقيقي بمعجزته، وهذا من أخطر صور هجر القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، فالذي يقرأ القرآن وهو غافل عن آياته ومعانيها، فقد أقام الحُجَّة على نفسه، فما من آية إلا وتحمل توجيهاً ينبغي اتباعه.

يقول رسول الله ﷺ «.. والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو حجة عليك»[4].

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: ١١٢).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٣٢).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١١٢).

(٤) رواه مسلم (١/ ٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

ويقول ابن عمر رضي الله عنه: «كل حرف من القرآن ينادي: أنا رسول الله إليك لتعمل بي وتتعظ بمواعظي»[1].

فما جالس أحد القرآن – كما قال قتادة – وقام سالماً، إما أن يربح أو أن يخسر[2]، مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وعندما وصف رسول الله ﷺ لأصحابه الخوارج؛ كان مما قال عنهم أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم... قال ﷺ: «يخرج ناس من قبل المشرق، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه[3]»، قيل ما سيماهم؟ قال: «سيماهم التحليق – أو قال: التسبيد»[4].

معنى ذلك أن القرآن لو كان قد جاوز حناجرهم، ودخل إلى عقولهم وقلوبهم، لانتفعوا به، والتزموا خط الوسط، ولم يجنحوا إلى ما جنحوا إليه.

وفي هذا المعنى يقول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»[5].

التلاوة الحقيقية:

إن التلاوة الحقيقية للقرآن تعني فهم معانيه، واتباعها، والعمل بمقتضاها.. قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]: «يتبعونه حق اتباعه»[6].

---

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ١٨٦).

(٢) روى أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٥٦) عن قتادة، قال: «ما جالس أحد القرآن إلا فارقه بزيادة أو نقصان». قال: ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

(٣) فوقه: وتره الذي أُطلق منه.

(٤) رواه البخاري (٩/ ١٦٢ برقم: ٧٥٦٢)، والتسبيد: حلق شعر الرأس.

(٥) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٥٦٣ برقم: ٨٢٢).

(٦) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن عن ابن عباس (ص: ١٣٠).

وقال عكرمة: «ألا ترى أنك تقول «فلان يتلو فلانا» أي يتبعه ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشمس: ١ - ٢]»(١).

فالتلاوة الحقيقية للقرآن لا تعني قراءة حروفه وألفاظه وترك تدبره، فالتلاوة هي الاتباع.

ويؤكد ابن القيم على معنى التلاوة الحقيقية للقرآن فيقول: «التلاوة الحقيقية هي تلاوة المعنى واتباعه، تصديقاً بخبره، وائتماراً بأمره، وانتهاءً عن نهيه، وائتماماً به، حيثما قادك انقدت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة معناه أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً»(٢).

وفي هذا المعنى يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يغرنكم من قرأ القرآن إنما هو كلام يتكلم به، ولكن انظروا إلى من يعمل به»(٣).

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] وما تدبر آياته إلا اتباعه لعلمه، ما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن كله وما أُسقط منه حرفاً واحدا، وقد أسقطه كله، ما ترى له في القرآن من خلق ولا عمل»(٤).

وقال مجاهد: إن القرآن يقول: «إني معك ما تبعتني، فإذا لم تعمل بي اتبعتك حتى آخذك على أسوأ عملك»(٥).

لا بديل عن التدبر:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قلت يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:.١٣٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) رواه سعيد بن منصور في التفسير (٢/ ٣٩٣ برقم: ١٢٧).

(٤) رواه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٣ برقم: ٥٩٨٤).

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٥٧).

ﷺ: «اقرأه في كل شهر»، قلت: إني أقوي على أكثر من ذلك، قال: «اقرأه في خمس وعشرين»، قلت: إني أقوي على أكثر من ذلك، قال: «اقرأه في عشرين»، قلت: إني أقوىٰ علىٰ أكثر من ذلك قال: «اقرأه في خمس عشرة»، قلت: إني أقوىٰ علىٰ أكثر من ذلك، قال: «اقرأه في عشر»، قلت: إني أقوىٰ علىٰ أكثر من ذلك، قال: «اقرأه في سبع»، قلت: إني أقوىٰ علىٰ أكثر من ذلك، قال: «لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث»[1].

تأمل قوله ﷺ: «لا يفقهه من يقرأه في أقل من ثلاث» فقد منعه من أن يقرأه في أقل من ثلاث لأنه إذا فعل فلن يفقهه، أي أن فقه القرآن وتدبره لابد أن يكون ملازماً لقراءته.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تَهُذّوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحدكم آخرَ السورة»[2].

وعن أبي جمرة: قلت لابن عباس رضي الله عنه: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: «لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدَّبَّرها وأرتلها أحبُ إلىٰ من أن أقرأ كما تقول»[3].

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «لا خير في قراءة لا تدبر فيها»[4].

ويؤكد علىٰ هذا المعنىٰ الآجري في كتابه أخلاق حملة القرآن فيقول: «والقليل من الدرس للقرآن مع التفكر فيه وتدبره أحب إلي من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل علىٰ ذلك، والسنة وأقوال أئمة المسلمين»[5].

سُئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قراءتهما واحدة،

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ١٠٤ برقم: ٦٥٤٦)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) أخلاق أهل القرآن للآجري (برقم: ١).

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٥٧).

(٤) سنن الدارمي (١/ ٣٣٩ برقم: ٣٠٦).

(٥) أخلاق حملة القرآن للآجري (برقم: ٨٨).

وركوعهما، وسجودهما، وجلوسهما، أيهما أفضل؟ قال: «الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]»(١).

دفع شبهة:

قد يقول قائل: إن الذي يدفعني للسرعة في قراءة القرآن هي الرغبة في تحصيل أكبر قدر من الحسنات التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ بقوله «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٢).

والجواب بعون الله: إن قيمة القرآن وبركته الحقيقية تكمن في معانيه، ولأن اللفظ وسيلة لإدراك المعنى كان التوجيه النبوي بالإكثار من تلاوته، وتحفيز الناس على ذلك من خلال الثواب الكبير المترتب على قراءته، ومثال ذلك: الأب الذي يرصد مكافأة لابنه إن استمر في المذاكرة عدة ساعات .. هو بالتأكيد لا يقصد من وراء ذلك مجرد جلوسه على المكتب والنظر في الكتب دون فهم ما تحتويه، بل هدفه تشجيع ابنه على المذاكرة بذهن حاضر ليتحقق له النجاح..

فإذا ما نظرنا إلى الهدف الأسمى من نزول القرآن، وربطنا بينه وبين ما رتب الشارع الحكيم على قراءته من ثواب عظيم، لوجدنا أن من أهداف هذا الثواب تشجيع المسلمين على دوام الاقتراب منه حتى يهتدوا بهداه، ويستشفوا بشفائه.. أمّا أن نقترب منه وليس لنا هدف إلا ثواب القراءة فقط دون الالتفات إلى المعنى المقصود من الخطاب فإننا – لاشك – سنخسر كثيراً بالاقتصار على ذلك التعامل الشكلي ولن يحقق فينا القرآن – حينئذ – مقصوده.

---

(١) أخلاق حملة القرآن (برقم: ٩٠).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٧٥ برقم: ٢٩١٠) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٣٢٧).

بركة القرآن:

إذن فقدر القرآن وبركته الحقيقية تكمن في معانيه، وقدرته على إحداث التغيير الجذري لقارئه، وإعادة صياغة عقله، وبث الروح في قلبه، وترويض نفسه، ليخرج منه عالماً بالله عز وجل، عابداً له بإخلاص وعلى بصيرة، وهذا لن يتحقق بمجرد القراءة العابرة باللسان فقط، ولو تم ختمه بهذه الطريقة آلاف المرات.

يقول ابن تيميه – رحمه الله –: «ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك»[1].

ويقول أيضاً: «ولا يخفى على أولي الألباب أن المقصود بنزوله اتباعه، والعمل بما فيه؛ إذ العاملون به هم الذين جُعلوا أهله، وأن المطلوب من تلاوته تدبره، وفهم معانيه، ولذلك أمر الله بترتيله والترسل فيه ليتجلى أنوار البيان من مشارق تبصرته، ويتحلى بآثار الإيمان من حقائق تذكرته»[2].

ويؤكد على هذا المعنى الأستاذ حسن الهضيبي – رحمه الله – فيقول: «ليست العبرة في التلاوة بمقدار ما يقرأ المرء، وإنما العبرة بمقدار ما يستفيد، فالقرآن لم ينزل بركة على النبي ﷺ بألفاظ مجردة عن المعاني، بل إن بركة القرآن في العمل به، واتخاذه منهاجاً في الحياة يضيء سبيل السالكين، فيجب علينا حين نقرأ القرآن أن يكون قصدنا من التلاوة أن نحقق المعنى المراد منها، وذلك بتدبر آياته وفهمها والعمل بها»[3].

حالنا مع القرآن:

نعلم جميعاً أن القرآن الذي بين أيدينا هو القرآن الذي كان مع الصحابة، وهو الذي صنع منهم هذا الجيل الفريد.. فما الذي تغير إذن؟! لماذا لم يعد القرآن ينتج مثل هذه النماذج؟! هل فقد مفعوله؟!

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٧٥).

(٢) قاعدة في فضائل القرآن لابن تيمية (ص: ٥٤).

(٣) مقالات الإسلاميين في رمضان لمحمد موسى الشريف (ص: ٤٢٦).

حاشاه أن يكون كذلك، وهو المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة، والتي تولى الله عز وجل حفظها.

إذن فالخلل فينا نحن، فمع وجود المصاحف في كل بيت، وما تبثه الإذاعات ليل نهار من آيات القرآن، ومع وجود العشرات بل مئات الآلاف من الحفاظ على مستوى الأمة وبصورة لم تكن موجودة في العصر الأول إلا أن الأمة لم تجن ثماراً حقيقية لهذا الاهتمام بالقرآن.

...لماذا؟

لأننا لم نوفر للقرآن الشروط التي يحتاجها لتظهر آثار معجزته ويقوم بمهمة التغيير، فلقد اقتصر اهتمامنا بالقرآن على لفظه، واختزال مفهوم تعلم القرآن على تعلم حروفه وكيفية النطق بها دون أن يصحب ذلك تعلم معانيه، وأصبح الدافع الرئيس لتلاوته هو نيل الثواب والأجر دون النظر إلى ما تحمله آياته من معان هادية وشافية مما جعل الواحد منا يسرح في أودية الدنيا وهو يقرأ القرآن، ويفاجأ بانتهاء السورة ليبدأ في غيرها، ويبدأ في السرحان مرة أخرى دون أن يجد حرجاً في ذلك، بل إنه في الغالب ما يكون سعيداً وفرحاً بما أنجزه من قراءته كماً لا كيفاً!

نُدير مؤشر المذياع على صوت قارئ القرآن ثم نتركه يرتل الآيات ويخاطب بها الجدران ثم ينصرف كل منا إلى ما يشغله... وإنا لله وإنا إليه راجعون.

من آثار هجر القرآن:

هذا التعامل الشكلي مع القرآن أدي إلى عدم الانتفاع الحقيقي به.

فماذا كانت النتيجة؟!!

تعطلت قلوبنا عن التأثر بالقرآن، وضرب عليها بحجاب، لتزداد الفجوة بين الواجب والواقع، والقول والفعل... تغيرت اهتماماتنا، وازداد حبنا للدنيا وتعلقنا بها، فجرت علينا سنة الله – عز وجل – ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وانطبق حالنا مع ما أخبر به رسول الله ﷺ عندما قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت »[1].

ضرورة العودة إلى القرآن:

من هنا يتضح لنا أنه قد آن أوان العودة الحقيقية إلى القرآن فنقبل على مأدبته، ونُعطي له عقولنا ومشاعرنا، ونترك له أنفسنا.

آن الأوان لكي نبدأ عملية التغيير الحقيقية في ذواتنا حتى يتحقق موعود الله لنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولنعلم جميعاً أن أي بداية أخرى تتجاوز القرآن لن تأتي بالثمار المطلوبة، ولم لا والقرآن هو الدواء الرباني الذي أنزله الله عز وجل ليشفي به الإنسان من أمراضه، ويعيد به العافية إلى قلبه؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

تلبيس إبليس:

قد يقول قائل بأنه ليس أهلاً لتدبر القرآن، فهذه وظيفة العلماء وما شابههم.

..لو كان الأمر كذلك فلماذا إذن طالب الله عز وجل الجميع بتدبره؟!

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

يقول: دلت هذه الآية على وجوب التدبر في القرآن ليُعرف معناه[2].

---

(١) رواه أحمد (٣٧/ ٨٢ برقم: ٢٢٣٩٧)، وأبو داود (٦/ ٣٥٤ برقم: ٤٢٩٧) واللفظ له، وحسنه الأرنؤوط.
(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠).

ويؤكد على ذلك المعنى ابن هبيرة فيقول: «ومن مكايد الشيطان تنفير عباد الله عن تدبر القرآن، لعلمه أنه الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً»[١].

ويطلق ابن القيم تحذيراً شديداً يساعدنا – بعون الله – على اجتياز تلك العقبة فيقول: «ومن قال: إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج»[٢].

...نعم قد تضيق المعاني وتتسع حسب معارف الشخص ومستوى إدراكه، ولكن تبقي النقطة الجوهرية ألا وهي مقدار تأثر القلب بما يدركه العقل... فقد يفهم عالم من العلماء مفاهيم كثيرة ويدرك بعقله معان عميقة حول آية من الآيات، ولكنها تظل حبيسة عقله، فلا ينتفع بها قلبه، وفي المقابل قد يفهم رجل عادي، ذو ثقافة محدودة آية من الآيات بفهم بسيط، ومع ذلك فإن هذه الآية بهذا الفهم قد تؤثر في قلبه، وتهز وجدانه.. فالعبرة بما يحدثه القرآن في القلب كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وتفاضل الناس عند ربهم ليس بكم المعارف التي في عقولهم، ولكن بمقدار التقوى التي في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

تأمل معي ما حدث لهذا الأعرابي عندما كان في مجلس الرسول ﷺ فاستمع منه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨] فقال: يا رسول الله أمثقال ذرة؟ قال: «نعم»، فقال الأعرابي: واسوأتاه... ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان»[٣].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ١٥٦ – العبيكان).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٣٠ – دار المعرفة – بيروت).

(٣) رواه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٢٧٨).

لا عذر لأحد في ترك التدبر:

من هنا يتأكد لدينا بأنه لا عذر لأحد في ترك التدبر وحُسن التعامل مع القرآن، فإن قال قائل: أنا لا أستطيع تدبر القرآن لقلة علمي وعدم قدرتي على استخراج المعاني منه.

أو قال آخر: أما أنا فلا أعرف القراءة والكتابة فكيف أتعلم القرآن وأتدبره؟

يجيب على هؤلاء الإمام القرطبي في تفسير قول الله عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

يقول رحمه الله: «حث الله عز وجل على تأمل مواعظ القرآن وبين أنه لا عذر في ترك التدبر فإنه لو خُوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل لها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة، أي متشققة من خشية الله وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي أنه لو نزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده؟!»[(١)].

فمهما كان وضع الإنسان وحجم ثقافته فلن يكون حاله مثل حال الجبال، ولقد أخبر الله – عز وجل – أن هذه الجبال الصلبة القاسية تتصدع وتخشع لقرآنه إذا ما أُنزل عليها، فلقد أنزل الله القرآن للناس جميعاً، ولم يجعل تدبره خاصاً بطائفة دون أخرى وإلا كان هذا مدعاة لاحتجاج البعض بعدم مقدرته على الانتفاع به؛ فكل من له عقل يدبر به أمور حياته، ويميز بين النافع والضار قادر على تدبر القرآن.

قال أبو عمران الجوني: «والله لقد صرف إلينا ربنا في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لحتها ووَجَبها»[(٢)].

وكان مالك بن دينار يقرأ قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٣٠)

(٢) الحت هو السقوط، والوَجْب والوجوب: السقوط مع الهدِّ (لسان العرب ١/ ٧٩٤).

﴿خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] ثم يقول: «أقسم لكم، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه»(١).

إن القرآن كتاب هداية ومنهج حياة، أنزله الله ليدلنا على ما ينفعنا في دنيانا وآخرتنا، فإن لم ننتفع به على هذا الوجه فما قيمة حركات اللسان؟

إن التلاوة الحقيقية له لا تعني قراءة حروفه وترك تدبره، فالتلاوة هي الاتباع.

أمراض القلوب:

يظن البعض أن علاج القلب من أمراضه، لابد وأن يسبق العودة إلى القرآن، فالقلب المريض لا يمكنه الانتفاع الحقيقي بالقرآن –كما يقولون– ويرفع هؤلاء شعار " التخلية قبل التحلية" .. فإن كان الأمر كذلك، فما هو إذن دور القرآن؟!

ألم يصفه الله –عز وجل– بأنه شفاء لما في الصدور؟!

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن نِعْم الدواء لأمراض القلوب، فقوة نوره تخترق الظلمات فتبددها، وتزيل ما يقابلها من شهوات وشبهات كما قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

...نَعَمْ في البداية سيجد نور القرآن بعض الصعوبة في الدخول إلى القلب بسبب حُجُب الظلمات التي تراكمت عليه من آثار المعاصي والغفلات، ولكن هذه الحجب لن تستطيع أن تقاوم طويلاً دخول أشعة نور القرآن إلى القلب إذا ما داوم الشخص على قراءته بتدبر، وكلما دخل النور إلى جزء من أجزاء القلب انطرد منه الهوى، وعادت إليه الحياة مرة أخرى، إلى أن يأتي الوقت الذي يعود فيه القلب إلى كامل صحته.

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ١٨٥٩).

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وفي المقابل فإن من يريد تطهير قلبه أولاً من أمراضه قبل الدخول إلى عالم القرآن فسيظل يراوح في مكانه، لأنه كلما فتش في نفسه سيجد آفات وعيوباً، وكلما تخلص من واحد منها ظهر آخر، ولن يستطيع أن يدعي في يوم من الأيام أنه تخلص منها جميعاً، وسيحرم نفسه بذلك من دواء القرآن وأنواره.

كيف ننتفع بالقرآن؟

وبعد أن استعرضنا معا أهمية القرآن، وسر معجزته وقدرته الفذة في زيادة الإيمان، وإحياء القلب، وتبين لنا كذلك ضرورة عودتنا إليه: تبقى النقطة الرئيسة في هذا الموضوع ألا وهي كيفية العودة إلى القرآن والتعرض لمعجزته، والدخول في دائرة تأثيره.

وقبل أن نتحدث – بعون الله وفضله – عن وسائل العودة والانتفاع بالقرآن هناك أمران ينبغي البدء بهما لتأهيل القلب لحسن استقبال القرآن وهما:

زيادة مستوى الخوف من الله في القلب، وسلامة النطق باللسان.

الخوف من الله وعلاقته بالانتفاع بالقرآن:

أخبرنا الله عز وجل في كتابه أن أكثر الناس انتفاعاً بالقرآن هم الذين يخافونه ويتقونه... قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

فالقرآن هو القرآن، ولكن العبرة بالقلوب التي تتعامل معه وتستقبله ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

فالخائفون هم المنتفعون بالقرآن، فيزدادون به تذكرة وخشية وخوفاً ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه: ١ – ٣].

..من هذا المنطلق كان ترتيب هذه الوسيلة– مع أهميتها العظمى– في المرتبة الثانية بعد وسيلة زيادة الخوف من الله في القلب، فالخوف يؤهل القلب لحُسن استقبال كلام رب العالمين، فيقع موقعه الصحيح، ليتم من خلاله عملية التغيير المنشود بإذن الله.

فإذا ما فارق الخوفُ القلبَ، صَعُبَ على صاحبه الانتفاع بالقرآن، تأمل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالآيات هي الآيات... ولكنها تكون بمثابة البيان الذي تستقبله العقول عندما تخاطب عموم الناس، وتكون هدى وموعظة تستقبلها القلوب عندما تخاطب المتقين.

فعلينا إذا ما أردنا أن ندخل إلى دائرة تأثير القرآن أن نهيئ قلوبنا لاستقباله بزيادة مستوى الخوف من الله – عز وجل – فيها.

الطالب والامتحان:

أخي.. إن للخوف بصفة عامة دورا مهما في استثارة مشاعر الإنسان وتوجيهها نحو ما يخاف منه، فالخائف شخص مرهف الحس، يعطي سمعه لكل نصيحة من شأنها أن تهدئ من قلقه وتوتره... أما الآمن فعكس ذلك.

والمثال على ذلك هو الطالب، كيف يكون شعوره في أول العام الدراسي وفي آخره؟ فهو في أوله يفكر في اختبار نهاية العام، ولكن بشعور يغلب عليه الأمان لطول المدة المتبقية على موعد الاختبار... هذا الطالب غالباً ما تجده في هذا الوقت قليل الاستذكار لدروسه، غير عابئ بتوجيهات من حوله، ونصائحهم له؛ لعدم استشعاره حاجته الماسة لذلك.

وكلما اقترب موعد الاختبار يزداد خوفه من الرسوب فيه، فيزداد انتباهه، وتطول فترات استذكاره، وينصت بسمعه وعقله لكل نصيحة أو توجيه يتلقاه من أي إنسان... كل ذلك بسبب زيادة خوفه من الاختبار.

نعم... قد ينتبه في أول العام لنصيحة بعض من حوله، لكنه لا يحولها إلى عمل؛ لعدم قلقه، وقلة خوفه.

من هنا تأكد لدينا: أننا إذا أردنا أن نستفيد بالقرآن، ونجعل توجيهاته واقعاً عملياً في حياتنا؛ فلابد أن نقبل عليه بقلوب خائفة وجلة، تَحْذر الله، وتتوقع الموت في أي لحظة، وتخشى سوء الحساب ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

يقول ابن القيم: «مدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطل من القلب التصديق بالوعيد، خرب خراباً لا يُرجى معه فلاحاً ألبتة، والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار والمنتفعون بالآيات دون من عداهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]»(١).

(١) تهذيب مدارج السالكين.

سلامة النطق:

ومن الأمور التي ينبغي أن ننتهي بإذن الله منها منذ البداية: تصحيح النطق بالقرآن وتعلم أحكام التجويد، فسلامة النطق من الأهمية بمكان لفهم القرآن، وكذلك أحكام التلاوة والتي من شأنها أن تيسر على القارئ ترتيل القرآن، ومن ثم التأثر به، على أن يكون تعلمها دون إفراط وتعمق، إنما بالقدر الذي يحقق الغاية ويصل للغرض.

فإن قال قائل: ولماذا الترتيل ألا يكفي سلامة النطق؟

إن للترتيل الكثير من الفوائد فضلاً عن كونه واجباً على قارئ القرآن، فمن فوائده: إطالة مدة قراءة الآية مما يتيح للعقل فرصة فهم المقصود منها.

يقول ابن حجر في شرحه لباب الترتيل في القراءة في صحيح البخاري: «أي تبيين حروفها، والتأني في أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها»[1].

ومن فوائده كذلك: أنه يستثير المشاعر، فالعبرة ليست بالتدبر العقلي فقط ولكن لابد أن يصحب ذلك انفعالاً وجدانياً ليحدث التأثير القلبي ويزداد الإيمان بإذن الله، لذلك نجد التوجيه النبوي بالتغني بالقرآن أي بتحسين الصوت وتزيينه، وكذلك التباكي عند قراءته لمن لا يستطع البكاء.

...كل ذلك لتستثار المشاعر ويتحقق المقصود من القراءة بإذن الله.

قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا»[2].

«إن تلاوة القرآن حق تلاوته –كما يقول أبو حامد الغزالي– هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزعاج والائتمار... فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ»[3].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ٣٦٢ برقم: ١٣٣٧)، وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٦٩١): إسناده جيد.

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٤٤٢).

الوسائل المعينة على الانتفاع بالقرآن في تحصيل الهداية والإيمان والتغيير بإذن الله.

مما لا شك فيه أن الانتقال من مرحلة قراءة القرآن باللسان والحنجرة فقط إلى مرحلة حضور العقل والقلب عند تلاوته، وتدبر معانيه، والدخول — بإذن الله — إلى دائرة تأثيره وزلزلته يحتاج إلى جهد وصبر ومثابرة، ويحتاج كذلك إلى وسائل عملية يتبناها المرء ويحافظ على القيام بها لعلها بإذن الله تيسر له إدارة وجهه للقرآن والانتفاع به على الوجه الصحيح.

وقبل الحديث عن الوسائل المعينة على الانتفاع بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان والتغيير — بإذن الله — هناك أمر مهم من الضروري الاجتهاد الشديد في القيام به طيلة حياتنا ألا وهو:

المداومة على التلاوة اليومية وطول المُكث مع القرآن..

فلكي يحقق القرآن هدفه معنا فيهدينا إلى الصراط المستقيم، ويغير ما بأنفسنا، ويجعلنا — بإذن الله — في حالة دائمة من التَّبصُّر والتذكر؛ لابد أن يتم تعرض عقولنا وقلوبنا ونفوسنا لآياته باستمرار ولفترات طويلة، فلا يصح ترك تلاوة القرآن يوما من الأيام مهما كانت شواغلنا..

ولنعلم جميعاً أننا بقدر ما سنعطي القرآن من أوقاتنا سيعطينا من خيره وكنوزه... فهذا الإمام ابن تيمية وقد حيل بينه وبين كتابه في محبسه بالقلعة، فيتفرغ للقرآن.

يقول رحمه الله عن هذه التجربة: «قد فتح الله عليَّ في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان الكثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»[1].

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/ ٥١٩).

من فوائد المداومة على التلاوة اليومية للقرآن:

يتعرض المسلم في حياته للكثير من المستجدات وما تحمله من فتن وابتلاءات، ويحتاج دوما إلى من يذكره بالثوابت والمعاني الهادية، ويمده بالجرعات الإيمانية التي يواجه بها هجمات الهوى المستمرة.

.. من هنا يأتي – بإذن الله – دور القرآن العظيم .. وهذا ما سنتعرف عليه بشيء من التفصيل في الأسطر القادمة..

دور القرآن في تثبيت القلوب:

يقول تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

فالقرآن من أهم وسائل الثبات: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

فعلى سبيل المثال: القرآن مليء بأنباء المرسلين، وكيف كان حالهم مع قومهم كأننا نراهم، ونعيش معهم، ويوضح لنا كيف كان حجم الظلم والطغيان الذي كان يمارسه الطغاة لدرجة تجعل الواحد منا يشعر بأن ما يلاقيه الدعاة إلى الله في هذا العصر من تضييق وتكذيب وابتلاءات أهون بكثير مما تعرض له أسلافنا، فطغاة اليوم لم يصلوا إلى ما وصل إليه فرعون وجنوده أو ثمود أو عاد، فالقرآن يخبرنا عنهم وعن تكذيبهم لأنبيائهم ومحاربتهم والتضييق عليهم، ثم يخبرنا بمآلهم وكيف كانت عاقبتهم.

إنها رسالة تقول لنا: إن الأحداث تتكرر والسنن تمضي والعاقبة للمتقين، فلا يستعجل أحد أمر الله فيهم.. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ويقول تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فمن كان في شك من هذا فليسر في الأرض وليتتبع أخبار الظالمين.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧ – ١٣٨].

تخيل أنك في عصر فرعون، عصر الظلم والطغيان والجبروت كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وتخيل مقدار الرعب والهلع الذي كان ينتاب بني إسرائيل منه ومن أعوانه، وشعور البعض بشيء من الإحباط واليأس كلما رأوا طغيانه وظلمه وتمكنه وعلوه في ازدياد مستمر.

ثم تذكَّر كيف كانت نهاية هذا الطاغية، بعد سنوات طوال من ميلاد موسىٰ ، وتخيل كيف كان شعور بني إسرائيل عندما رأوا هلاكه ونهاية جبروته، وانتصارهم عليه وتحقق الوعد الذي وعدهم الله عز وجل به، وكيف كان شعور أولئك الذين كانوا يتشككون في إمكانية تحققه.. إنه شعور بالفرح، مشوب بالندم علىٰ تسرب اليأس والإحباط والشك في نصر الله سبحانه وتعالىٰ.

إن القرآن يكرر القصة مرات ومرات؛ ليؤكد لنا هذه الحقيقة كي لا تفزعنا شدة الظلام وكثرة التكذيب والإيذاء بل ننظر إلىٰ الطغاة نظرة استخفاف، مع الثقة واليقين بوعد الله عز وجل ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

القرآن يرد على الشبهات:

مع طول الطريق يشتد التكذيب وتكثر الشبهات وقد يتأثر القلب ببعض منها فيحدث التبديل والنكوص لذلك نجد القرآن يرد عليها ويدفعها ويكشف زيفها وذلك للمحافظة علىٰ استمرار وضوح الرؤية وعملاً علىٰ تثبيت القلوب.. يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

والأمثلة في هذا المعنىٰ كثيرة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

والقرآن لا يكتفي بالرد على الشبهات التي يثيرها أعداؤه، بل يكشف مواقفهم، ويشخص حالتهم ودوافعهم.. ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

ويقول تعالى: ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣].

القرآن يُذكر بالثوابت والأولويات:

كلما طال الطريق أكثر وأكثر ازداد تعرض السائرين فيه إلى نسيان بعض الثوابت والأولويات، وهنا يأتي دور القرآن وأهمية المداومة على قراءته، فهو يُذكر دوماً بالثوابت والأولويات مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ويقول تعالى: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد يدخل حب الدنيا قلب العبد، ويزداد تعلقه بها فيكشف له القرآن حجمها الحقيقي: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

ويُذّكر القرآن أتباعه بأن استعجال النصر قد يكون بسبب حب دنيا، والملل من طول الطريق وكثرة التضحيات: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

القرآن يعصم من الفتن:

في وقت الفتن يتجلى دور القرآن في عصمة أتباعه .. يقول رسول الله ﷺ:

«أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»، قالوا: نعم، قال: «فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا»[1].

فالقرآن يبين مداخل الشيطان وصور الفتن ومواد الامتحان، فإذا ما واجهها الشخص لم يفاجأ بها ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ومن فوائد المداومة على قراءته أيضاً: الوصول إلى درجة اليقين في الله وفي أسمائه وصفاته، وفي أركان الإيمان، وكل ما أخبر عنه سبحانه، فالقرآن يعرض هذه الأمور بأكثر من طريقة ويكرر المعاني لترسخ في الأذهان .. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الفرقان: ٥٠] وصرفناه أي: «كررناه بأساليب مختلفة»[2].

وخلاصة القول:

أن القرآن العظيم هو قوت القلوب وغذاؤها وشفاؤها، من تمسك به قاده إلى صراط الله المستقيم.

.. ولكي يحقق القرآن هذه الأمور في كينونة العبد: لابد من المواظبة والمداومة على تلاوته وطول المكث معه، وأن يصحب ذلك فهم وتدبر وتأثر بمعانيه .. وهذا ما سيتم طرحه بإذن الله في الأسطر القادمة التي ستتناول الوسائل المعينة على الانتفاع بالقرآن.

.. وتنقسم تلك الوسائل إلى قسمين:

الأول: ما قبل التلاوة..

والثاني: أثناء التلاوة..

والله المستعان..

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦)، وابن حبان (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني (٢٢/ ١٨٨) وحسنه الأرنؤوط.

(٢) كلمات القرآن تفسير وبيان لحسنين مخلوف.

ماذا نفعل قبل البدء بتلاوة القرآن؟!

نحتاج قبل البدء بتلاوة القرآن إلى تهيئة البيئة والجو المناسب للقاء به..

ونحتاج كذلك إلى الاستعانة الصادقة بالله عز وجل.

تهيئة الجو المناسب.

لكي يقوم القرآن بعمله في التغيير لابد من تهيئة الظروف المناسبة لاستقباله، ومن ذلك وجود مكان هادئٍ بعيداً عن الضوضاء يتم فيه لقاؤنا به، فالمكان الهادئ يُعين على التركيز وحسن الفهم وسرعة التجاوب مع القراءة، ويسمح لنا كذلك بالتعبير عن مشاعرنا – إذا ما استثيرت – بالبكاء والدعاء، وكما قال أبو عبد الرحمن السلمي: « القرآن وحشي لا يصلح معه اللغط»[1].

ومع وجود المكان الهادئ: علينا أن يكون لقاؤنا بالقرآن في وقت النشاط والتركيز لا في وقت التعب والرغبة في النوم، ولا ننس الوضوء والسواك.

الاستعانة بالله عز وجل:

قبل الشروع في التلاوة نحتاج إلى الاستعانة الصادقة بالله عز وجل بأن يفتح لنا أبواب فهم القرآن، وأن يسمح لنوره بغزو قلوبنا، فطول البعد الحقيقي عن القرآن تسبب في عقوبات عديدة لحقت بنا: منها الحرمان من نوره وروحه، وعدم فهم آياته، لذلك نحتاج بشدة إلى استعانة واستغاثة صادقة بالله جل شأنه بأن يرفع عنا هذه العقوبات ويزيل تلك الحجب التي حالت دون انتفاعنا بكتابه العظيم.

وحبذا لو بدأنا استغاثتنا بالثناء على الله والاستغفار والتوبة ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

أخي:

إن القرآن هو ربيع القلب وغيثها، وبه حياتها، ومع ذلك فهذه المنافع ليست

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٤٣ برقم: ٣٠١٧٣).

متاحة للجميع بل تحتاج إلى إعانة من الله عز وجل لاستدعائها، ويتضح هذا المعنى في دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي»(1)

أهمية الاستعاذة من الشيطان:

ومع ضرورة الاستعانة الصادقة بالله عز وجل في فتح القلب لنور القرآن وهدايته وشفائه؛ نحتاج أيضا إلى الاستعاذة به سبحانه من الشيطان.

... فالشيطان هو عدو الإنسان الذي لا يريد له الخير أو الهدى، ولأنه يعلم ما في القرآن من هدى وشفاء فسيعمل جاهدا على صرف المرء عن الانتفاع منه والحيلولة بين الاتصال الحقيقي به، ولا حل أمامنا حين نشرع في التلاوة إلا بالاستعاذة الصادقة بالله عز وجل لصرفه عنا: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل: ٩٨ - ٩٩].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٢٤٦ برقم: ٣٧١٢)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣ برقم: ٩٧٢)، وصححه الأرنؤوط.

ماذا نفعل أثناء التلاوة؟!

القراءة المتأنية:

علينا ونحن نقرأ القرآن أن تكون قراءتنا متأنية، هادئة، مترسله.. وهذا يستدعي منا سلامة النطق وحُسن الترتيل كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وعلى الواحد منا ألا يكون همّه عند القراءة نهاية السورة، ولا ينبغي أن تدفعنا الرغبة في ختم القرآن إلى سرعة القراءة، فلقد ختمنا القرآن قبل ذلك مرات ومرات فماذا فعل بنا؟! وماذا غيّر فينا؟!

لقد كانت قراءته ﷺ للآيات قراءة مترسلة، فلو أراد أحد أن يعد الحروف لعدها ..

.. فلقد وصفت السيدة أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ بأنها «قراءة مفسرة حرفًا حرفًا»(١).

.. وفي حديث حفصة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها»(٢).

الحد الأقصى لختم القرآن:

البعض منا يظن أن من الواجب عليه ختم القرآن في شهر مثلاً، وأنه لو تأخر عن ذلك فقد يقع في الإثم أو الحرج.

...نعم ينبغي علينا أن ننشغل بالقرآن، وألا يمر علينا يوم دون القراءة في المصحف، ولكن ليس معنى هذا أن من الواجب ختم القرآن في مدة محددة، فالصحابة مع شدة اعتنائهم بالقرآن وانشغالهم به إلا أنهم كانوا يتفاوتون في مدة ختمه.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤٤/ ١٤٧ برقم: ٢٦٥٢٦)، والترمذي (٢٩٢٣) وقال حديث حسن صحيح غريب، وأبو داود (٢/ ٥٩٣ برقم: ١٤٦٦)، والنسائي (٢/ ١٨١ برقم: ١٠٢٢).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٠٧ برقم: ٧٣٣).

أخرج ابن أبي داود عن مكحول قال: كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرأون القرآن في سبع وبعضهم في شهر وبعضهم في شهرين وبعضهم في أكثر من ذلك[1].

وليس معنى هذا أننا سنمكث فترات طويلة لختم القرآن، بل العكس هو الذي سيحدث بمشيئة الله، فعندما نُعطي القرآن المساحة الزمنية الكبيرة من يومنا، فإننا سنتمكن بعون الله من ختمه في أقل من شهر، ولكن دون أن يكون هناك سيف مسلط على رقابنا يدعونا للمسارعة في قراءة القرآن كيلا نتجاوز المدة التي حددناها في أذهاننا.

التركيز مع القراءة والاجتهاد في حضور الذهن معها:

نريد أن نقرأ القرآن كما نقرأ أي كتاب- كحد أدنى - فعندما نشرع في قراءة كتاب (ما) فإننا نعقل ما نقرؤه، وإذا ما شرد الذهن في موضع من المواضع عُدنا إلى الوراء، وأعدنا قراءة ما فات على عقولنا، وما دفعنا إلى ذلك إلا لنفهم المراد من الكلام.

ونستغفر الله من هذا الطلب، فللقرآن شأن وقدر عظيم، ولكن للأسف فإن حالنا معه من هجر الانتفاع به وعدم تقديره حق قدره جعله يتأخر كثيرا في اهتماماتنا عن الكتب الأخرى التي سبقته، وهذا ما دفعنا لما قيل كمرحلة انتقالية من مراحل العودة إلى القرآن..

نعود فنقول بأن ما نريده مع القرآن: أن نقرأه بحضور ذهن، فإذا ما سرحنا في وقت من الأوقات علينا أن نعيد الآيات التي شرد فيها ذهننا.

...نعم في البداية سنجد صعوبة في تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا على التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله القراءة بتركيز وبدون سرحان.

ولنتذكر دائماً قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

---

(١) ذكره السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٦٢).

ولكن في بعض الأوقات قد نبدأ القراءة فنجد أنفسنا وقد غلبها النعاس، وأصبحنا لا ندري ما نقول فماذا نفعل إذا ما فشلنا في جمع الذهن مع القراءة بعد العديد من المحاولات؟!

علينا عندئذ التوقف بنية العودة إليها في وقت آخر.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه، فلم يدر ما يقول فليضطجع»[1].

وليكن مقياس استمرارنا في القراءة قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: «اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرأه»[2].

فلا بديل إذن عن التركيز في القراءة وعدم السرحان إذا ما أردنا الانتفاع بالقرآن.

فلنستحِ من الله:

يقول أبو حامد الغزالي: «ورد في التوراة: يا عبدي أما تستحي مني؟ يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي، فتعدل عن الطريق تقعد لأجله تقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً؛ حتى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابي أنزلته إليك، انظر كيف فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟! يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغي إلى حديثه بقلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف، وهأنذا مقبل عليك ومحدِّث لك وأنت معرض بقلبك عني، أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك؟!»[3].

التفكر في الآيات دون تعمق:

البعض منا عندما يشرع في تدبر القرآن، تجده يقف متمعناً عند كل لفظ فيه مما

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٤٣ برقم: ٧٨٧).

(٢) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٣٤)، والإمام أحمد في الزهد (برقم: ١٦٤٤).

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٤٢٦).

يجعل التدبر عملية شاقة عليه، وما يلبث إلا أن يملّ فيعود أدراجه إلى الطريقة القديمة في القراءة دون فهم ولا تدبر ولا تأثر.

فكيف لنا إذن أن نقرأ القرآن بتدبر وسلاسة في الوقت ذاته؟!

الطريقة السهلة لتحقيق هذين الأمرين معاً هو أن نأخذ المعنى الإجمالي للآيات قدر المستطاع، وعندما نجد بعض الألفاظ التي لا نعرف معناها، فعلينا أن نتعرف عليه من السياق، تماماً مثل ما نفعله عندما نقرأ في كتاب أو مقالة وتمر على أعيننا كلمات لا نعرف معناها، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ حين قال: «إن القرآن لم ينزل يُكّذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه»[١].

وبهذه الطريقة تصبح قراءة القرآن بتدبر سهلة ميسرة للجميع إن شاء الله تعالى.

ويؤكد الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله على هذا الأمر فيقول في مقدمة تفسيره ناصحاً قارئ القرآن: «وأن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة له»[٢].

دور التفسير:

...نعم إن معرفة معنى الكلمات الغريبة يساعدنا على زيادة الفهم، وبفضل الله يوجد مطبوعا على هامش بعض المصاحف معاني الكلمات الغريبة على عقول البعض منا مما ييسر علينا فهمها دون أن نقطع التلاوة، ومع هذا علينا ألا نجعل عدم معرفتها عائقاً يحول بيننا وبين الاسترسال في القراءة، والتركيز معها والتأثر بها، وذلك – كما أسلفنا – بأن نأخذ المعنى الإجمالي للآيات قدر المستطاع.

وليس معنى هذا عدم النظر في كتب التفسير، فمما لا شك فيه أن للتفسير دورا كبيرا في حسن الفهم، وله أيضاً دور أساسي في معرفة الأحكام الشرعية، التي لا ينبغي لنا أن نستنبطها بمفردنا من القرآن، فتاريخ الأمة الإسلامية يشهد بانحراف الكثير ممن

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ٣٠٥ برقم: ٦٧٠٢)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٠).

استنبط تلك الاحكام بمفرده من القرآن دون أن يكون مؤهلاً لذلك، مثل الخوارج وغيرهم.

ومع هذا الدور العظيم للتفسير إلا أنه ينبغي أن يكون له وقته الخاص به، ولا يرتبط بوقت القراءة، فنحن لا نريد أن نخرج من لقائنا بالقرآن بزيادة الفهم فقط، ولكن نريد القلب الحي كذلك، وهذا يحتاج إلى اللقاء المباشر مع القرآن، والسماح بقوة تأثيره أن تنساب داخلنا وتتصاعد من خلال الاستمرار في القراءة، والاسترسال مع الآيات والتجاوب معها.

البنا وأفضل التفاسير:

ولقد أجمل الإمام حسن البنا رحمه الله الكثير من معينات الفهم لكتاب الله بما في ذلك التفسير في إجابته لأحد الأشخاص.

يقول رحمه الله: «فلقد سألني أحد الإخوان عن أفضل التفاسير، وأقرب طرق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى؟

فكان جوابي على سؤاله هذه الكلمة: «قلبك» فقلب المؤمن لا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى، وأقرب طرائق الفهم: أن يقرأ القارئ بتدبر وخشوع، وأن يستلهم الرشد والسداد، ويجمع شوارد فكره عند التلاوة، وأن يلمّ مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة، ويُعنى بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضيعها من هذه السيرة، فسيجد في ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم.

وإذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك، فللوقوف على معنى لفظ دق عليه، أو تركيب خفي أمامه معناه، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله، فهي مساعدات على الفهم، والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوءُه في صميم القلب... ولا شك أن من أخذ بهذه الطريقة سيجد أثرها بعد حين في نفسه ملكة تجعل الفهم من سجيته ونوراً يستضيء به في دنياه وآخرته إن شاء الله»[1].

---

(١) نظرات في التربة والسلوك: مقالات لحسن البنا جمعها عصام تليمة والفقرة السابقة وردت في مقالة نشرت بمجلة

.. ومن الوسائل المعينة بإذن الله على حُسن الاتصال بالقرآن:

التجاوب مع الآيات:

القرآن خطاب مباشر من الله – عز وجل – لجميع البشر: لي، ولك، ولغيرنا... هذا الخطاب يشمل من ضمن ما يشمل: أسئلة وأجوبة، ووعداً ووعيداً، وأوامر ونواهي.

فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد على أسئلته، وتنفيذ ما يمليه من تسبيح أو حمد أو استغفار، أو سجود، وعلينا كذلك التأمين على الدعاء، والاستعاذة من النار، وسؤال الجنة، ولقد كان هذا من هدي رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام ﷺ.

عن حذيفة بن اليمان قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوُّذٍ تعوَّذَ»[1].

عن عبد الله بن السائب قال: «أخّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه العشاء الآخرة فصُلّيَتْ، ودخل فكان في ظهري، فقرأت: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١] حتى أتيت على قوله ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فرفع صوته حتى ملأ المسجد: أشهد»[2].

وسمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاً قرأ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١] قال: «إي وعزتك، فجعلته سميعاً بصيراً، وحياً وميتاً»[3].

وعن أبي عمارة الكوفي – عبد خير – أنه سمع علياً رضي الله عنه قرأ في الصلاة ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] فقال: «سبحان ربي الأعلى»[4].

الشهاب الشهرية العدد الأول ١٤ نوفمبر ١٩٤٧م (ص:١١٩، ١٢٠).

(١) رواه مسلم (١/ ٥٣٦ برقم: ٧٧٢).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٤٩).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٥٠).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٥٣).

فعلينا المداومة على استخدام هذه الوسيلة والتي سنجد لها أثراً عظيماً بمشيئة الله في دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب، ومما يساعد المرء على ذلك استشعاره بأن الخطاب القرآني موجّه إليه من رب العزة سبحانه وتعالى.

ويؤكد على هذا المعنى شاعر الإسلام – محمد إقبال – فيقول: «قد كنت تعمدت أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبي يراني، فيسألني ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله، فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي! تسألني نفس السؤال، وأجيبك جواباً واحداً، ثم لا يمنعك هذا عن إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك: يا ولدي اقرأ القرآن كما نُزّل إليك.

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اكتسبت ومن درره ما نظمت»[1].

.. ومما يحسُن بنا فعله أثناء التلاوة:

ترديد الآيات التي تؤثر في القلب:

إن يقظة العقل وقت قراءة القرآن أمر نستطيع تحصيله – بإذن الله – بشيء من المجاهدة، أما حضور القلب وتجاوبه مع القراءة، وتأثره بها، فهذا أمر لا نملكه، وقد يمضي بنا وقت ليس بالقصير حتى يبدأ القلب في التحرك مع القراءة، فإلى أن تنفذَ أنوار الآيات من بين أغلفة الظلمات، وتصل إلى القلب علينا بالمداومة على القراءة المتأنية مع يقظة العقل، والتضرع إلى الله عز وجل بأن يفتح قلوبنا لكلامه، وبمشيئة الله لن يطول انتظارنا، فبمرور الوقت سيبدأ القلب بالتأثر والانفعال ولو مع آية من الآيات.

فإذا ما تم ذلك في لحظة من اللحظات... فماذا نفعل حينئذ؟!

ينبغي علينا أن نستثمر وجودها أحسن استثمار، وأن نعض عليها بالنواجذ، فهذه

---

(١) روائع إقبال لأبي الحسن الندوي (ص: ٣٩).

اللحظات من أهم أوقات حياتنا، ومن خلالها يتم التغيير المنشود والله أعلم.

فمعنى تأثر القلب بآية من الآيات هو دخول نور هذه الآية إلى القلب، وتفاعله معها، وإحلاله محل ظلمةٍ فيه، ويعني كذلك زيادة الإيمان، وهذا قلما يحدث للواحد منا وخاصة في البداية، لذلك علينا ألا نضيع تلك الفرصة إذا ما جاءتنا، ولنعمل على دخول أكبر قدر من النور إلى قلوبنا بترديد الآية مرات ومرات... علينا ألا نملّ من ذلك طالما وُجد التجاوب، وشيئا فشيئا ستتبدد الظلمات من القلب ويُطرد الهوى، ويصبح النور هو الغالب فيه، فيسهل عليه بعد ذلك التأثر بالآيات، ويزداد لينه وخشوعه بها، والله المستعان.

لا تزهد في الإيمان:

يقول ابن القيم: «لو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة الإيمان، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح»[1].

عن حمزة بن عبد الله بن الزبير قال: «بعثتني أسماء رضي الله عنها إلى السوق وافتتحت سورة الطور فانتهت إلى قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فذهبت إلى السوق ورجعت وهي تكرر ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾»[2].

وظل عبد الله بن مسعود يردد قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] حتى أصبح[3].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٥٤-٥٥٣).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٧)، مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص: ١٤٨).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٦).

وظل عمر بن الخطاب يردد الفاتحة في ليلة لا يزيد عليها حتى أصبح[1].

وقرأ عامر بن قيس سورة المؤمن[2] فلما انتهى إلى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، فلم يزل يرددها حتى أصبح[3].

وبترديد الآية التي تؤثر في القلب تتولد بإذن الله داخل العبد طاقة، عليه أن يُحسن تصريفها بالبكاء والدعاء والسجود كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩].

.. ومن الوسائل المهمة والمعينة بإذن الله على حُسن الاتصال بالقرآن:

استصحاب معنى من المعاني الإيمانية أثناء التلاوة:

حين يكون ذهن المرء مشغولا بأمر (ما) ولديه فيه تساؤلات تبحث عن إجابة؛ فإنه يكون أكثر وعيا وتركيزا عندما يقرأ أو يسمع ما يظن أنه يحمل إجابة لتلك التساؤلات.

تأمل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، فالسائلون –كما يقول عبد الرحمن السعدي – «هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر»[4].

فعلينا ونحن في بداية رحلة العودة الحقيقية للقرآن أن نستفيد من هذا الأمر في زيادة الوعي والتركيز أثناء التلاوة ومن ثم الانتفاع أكثر وأكثر بالآيات التي نتلوها – بإذن الله – ..

فإن قلت: وكيف يتم ذلك؟!

الإجابة بعون الله: من خلال توجيه العقل نحو البحث عن معنى من المعاني

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٧).

(٢) سورة المؤمن هي سورة غافر.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٧).

(٤) تفسير السعدي.

الإيمانية خلال تلاوتنا، وليكن البحث عن هذا المعنى خلال ختمة كاملة للقرآن — مثلا —، ومن المهم أن تتم استثارة العقل والمشاعر بهذا المعنى قبل بدء الختمة حتى تحسن استفادتنا — بإذن الله — من هذه الوسيلة، وحتى يتجه العقل تلقائيا نحوه أثناء التلاوة فتتولد تبعا لذلك الأفكار ويزداد الإيمان..

ومما تجدر الإشارة إليه أن استصحاب معنى إيماني والبحث عن مدلوله فيما نتلوه من آيات سيزيد — بعون الله — وعينا وتركيزنا وتدبرنا مع سائر ما نتلو وليس العكس، والله أعلم..

أخي: إن استصحاب معنى إيماني في كل ختمة سيكون له بعون الله وفضله أبلغ الأثر في تذوق حلاوة الإيمان، فإذا ما صاحب ذلك ربط مدلول هذا المعنى بواقع الحياة فلا تسَلْ عما سيحدثه من قرب حقيقي، ومعرفة، وأنس بالله عز وجل، والتمتع بالحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده وأولياءه.. والله أعلم.

معانٍ إيمانية مقترحة:

في الصفحات القادمة سيتم — بعون الله — عرض نماذج وأمثلة لمعان إيمانية علينا أن نختار واحدا منها لكل ختمة والله المستعان[1]..

وحبذا أن يكون اختيار النموذج بناء على ما يشغل الذهن من أسئلة نحوه، فكلما كانت القراءة تبحث عن إجابات لأمور يفكر فيها المرء وتلح عليه؛ كانت الاستفادة من التلاوة أكبر — بإذن الله —.

فعلى سبيل المثال: حين ينشغل الذهن بأحوال المسلمين المتردية، وتسلط الأعداء على الأمة، وكيف السبيل للخروج من هذا التيه .. علينا أن نستصحب ذلك خلال تلاوتنا، ونقرأ قبلها نموذج «سنن النصر والتمكين»، وندخل على القرآن بهذا الحال ونجتهد في استخراج الآيات التي تشخص الداء وتصف الدواء..

---

(١) هناك عدة نماذج تضمنها كتاب «بناء الإيمان من خلال القرآن»، وهي بفضل الله أكثر تفصيلا مما احتوته هذه الصفحات.

فإن لم يكن هناك ما يشغل البال من موضوعات إيمانية؛ فلنقرأ ونطلع على واحد منها حتى تهيمن على الفكر، وتستجيش المشاعر، ثم ندخل بهذه الحال على القرآن نبحث عن الآيات التي تتناوله..

فمثلا: حين نقرأ عن الخوف من الله وأسبابه ونتفاعل معها؛ علينا أثناء التلاوة البحث عن تلك الأسباب، وهكذا...

النموذج الأول: التعرف على الله الواحد:

من خلال إحدى رحلاتنا الإيمانية مع المصحف، والتي تبدأ من سورة الفاتحة إلى سورة الناس؛ علينا أن نتتبع الآيات التي تتحدث عن صفة الوحدانية، وآثارها في الكون، وكيف يثبت القرآن بالأدلة المادية أن للكون إلها، وأنه واحد لا شريك له، وأنه هو الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، وقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

وعلينا كذلك أن نتتبع الآيات التي تفنّد مزاعم المبطلين الذين يدّعون بأن هناك إلها آخر للكون، أو أن لله شريكا في ملكه كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

***

النموذج الثاني: التعرف على الله (المنعم):

من أهم سمات القرآن أنه خطاب تعريف بالله عز وجل، وبأسمائه وصفاته، ومن هذه الصفات:

صفة الإنعام التي أفاض القرآن في التعريف بها من خلال بيان آثارها ومظاهرها في الكون والنفس والمتمثلة في نعمٍ لا تُعد ولا تُحصى.

فعلينا – ونحن نستصحب هذا المعنى الإيماني العظيم – أن نتتبع الآيات التي تتحدث عن نعم الله عز وجل ونربطها بالجانب الذي يناسبها.

فهناك نعم الإيجاد من العدم كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

ونِعَم توالي الإمداد بأسباب الحياة كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦].

ونعم الحفظ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠].

ونعم التسخير كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ونعم الهداية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ونعم سبق الفضل والاجتباء مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ونعمة التوفيق، والثبات، ونعمة الأمن والستر، ونعمة الإمهال،...

***

النموذج الثالث: التعرف على الله "الرحيم":

وذلك من خلال تتبع الآيات التي تتحدث عن الرحمة الإلهية وآثارها في الكون والنفس، ومن ذلك:

- إنزال المطر: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].
- تعاقب الليل والنهار: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].
- قبوله – سبحانه وتعالى – لتوبة المذنبين: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].
- ومن مظاهر الرحمة إرساله –سبحانه وتعالى – لمحمد بن عبد الله ﷺ نبيا ورسولا للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

***

النموذج الرابع: صلاحك لمصلحتك:

الله عز وجل هو الغني... لا يحتاج شيئا من أحد، فهو قائم بنفسه، قائم بشؤون غيره، يُطعم ولا يطعم، يجير ولا يُجار عليه، لا تضره معصيتنا ولا تنفعه طاعاتنا: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

فعبادتي وعبادتك لمصلحتنا أنا وأنت، فإن لم نفعل فالخاسر أيضاً هو أنا وأنت: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٤ – ١٥].

فالمستفيد من الإحسان هو صاحبه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

والمجاهد إنما يجاهد لنفسه: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

والذي يبخل فإنما يضر نفسه بالأساس ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨].

فالمسئولية إذن فردية..، سعيك لنفسك، وإحسانك لنفسك، وصلاحك لمصلحتك: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

لن ينفعك أمام الله إلا ما قدمت ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣].

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

***

النموذج الخامس: حقيقة الفقر إلى الله:

فقرنا إلى الله عز وجل فقر مطلق، وذاتي، وملازم لنا في كل الأحوال.. في الغنى والفقر، في العسر واليسر، في الصحة والمرض،... فنحن بدون قوة الله عز وجل كالجهاز الكهربائي عندما ينقطع عنه التيار، لا قيمة له، – ولله المثل الأعلى – وهذا هو المعنى

الحقيقي لذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فعلينا أن نخصص رحلة أو أكثر مع رحلاتنا الإيمانية مع القرآن الكريم لنتعرف من خلالها على جوانب الفقر إلى الله لتتأكد لدينا هذه الحقيقة.

ولقد أفاض القرآن في بيان أوجه فقر العباد إلى ربهم ليزداد تعلقهم به، وفرارهم إليه، ومن ذلك: فقر الوجود ودوام العافية كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

والفقر إلى وجود الرزق ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١].

وفقر العصمة من الكفر والفجور والعصيان ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

والفقر إلى الإعانة على القيام بالطاعة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

والفقر إلى العلم ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

والفقر إلى الهداية، والتوفيق، والنصر، وتزكية النفس، والتوبة، ودفع الشيطان..،.... إلخ.

***

النموذج السادس: التعرف على الله القريب:

الله عز وجل وصف نفسه بأنه قريب، سميع، بصير، عليم، شهيد،... هذه الأسماء يجمعها معنى إحاطته سبحانه وتعالى بجميع خلقه، وقربه منهم، فهو سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء... لا في قرار البحر، ولا تحت أطباق الجبال.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أقرب إلينا من كل شيء ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

يرىٰ مكاننا، ويسمع كلامنا، ويعلم سرنا وعلانيتنا ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

شهيد علينا، ورقيب علىٰ أعمالنا ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وبدوام التتبع والتفكر في الآيات التي تتحدث عن هذا المعنىٰ يزداد حياء العبد من ربه، ويزداد كذلك شعوره بالقرب الشديد منه، فيبدأ في التعود علىٰ مناجاته وبث ما في صدره من حاجات.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

***

النموذج السابع: الرسائل الإلهية.. وكيف نقرأها ونستفيد بها؟!

الله عز وجل «لا تدركه الأبصار» ولا سبيل لمعرفته إلا من خلال ما أتاحه لنا من معلومات عنه سبحانه.

هذه المعلومات أودعها الله في مخلوقاته، وجعلها آيات تدل عليه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

فأهم وظيفة للآيات والرسائل الإلهية هي التعريف بالله والتذكير به: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

فما من مخلوق من مخلوقاته إلا ويحمل رسالة منه سبحانه تدل عليه، وتعرّف به: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

وما من حدث يحدث للناس إلا من ورائه حكمة ورسالة من الله عز وجل.

فالعواصف والرعد والبرق من آياته الدالة عليه والمذَكِّرة به: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤].

وهلاك الأفراد والأمم كذلك ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

فالمطلوب منا إذن أن نُحسن استقبال الرسائل والاستفادة منها وعدم الإعراض عنها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

فعلينا أن نتتبع هذا الموضوع المهم في القرآن، وأن نتعلم من خلاله كيف نتعامل مع تلك الرسائل الربانية.

***

النموذج الثامن: السنن الحاكمة للحياة:

جعل الله عز وجل الحياة على الأرض تسير وفق سنن وقوانين تنظم أمور الناس، وينتج عنها سعادتهم أو شقاؤهم، وهي قوانين لا تتبدل ولا تتغير، وتنطبق على الأفراد، كما تنطبق على الأمم: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

والملاحظ في هذه القوانين أن هناك قاسماً مشتركاً بينها، وهو أن البداية التي تستدعيها تكون من العبد، فهي كالمعادلات الرياضية إذا اكتمل الطرف الأول منها تحقق الطرف الثاني فالصلاح والفساد، والهدى والضلال، والسعادة والشقاوة، والتوفيق والخذلان، وضيق الصدر وانشراحه، وتيسير الأمور وتعسيرها... كل هذه الأحوال لا تصيب العبد إلا إذا كانت منه بداية تستدعيها.. يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

فأي تغير في حالك، أو وحشه في صدرك، أو تعسير في أمورك، ليس إلا نتاج ما بذرته في وقت ما ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فالله عز وجل لا يظلم أحدا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، بل نحن الذين نظلم أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فبنو إسرائيل فضلهم الله على العالمين، ومكنهم في الأرض بما صبروا، وتحملوا ما فعله بهم فرعون ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

ولما لم يحافظوا على هذه النعمة، وتمادوا في الظلم والطغيان حصدوا الثمار المرَّة: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٠]، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

فلا محاباة لأحد ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

إنه قانون يطبق على الجميع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾.

فالأمر الإلهي سيصدر بعقابكم إن فعلتم ذلك، فلا محاباة لأحد، ولا كرامة لأحد إلا بالاستقامة والتقوى.

وفي سورة الانعام، وبعد أن تتحدث الآيات عن إبراهيم عليه السلام وذريته من الانبياء يقول تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: ٨٧ – ٨٨].

فمن يُرد المعية والولاية فعليه بالاستقامة ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠ – ١١].

فالبداية من العبد: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ – ٦٨].

.. لقد وعد الله – عز وجل – المنفق في سبيله بمجازاته بأضعاف ما ينفق ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

كل هذا الأجر مرهون بالحبة، التي لو لم يقدم مثلها العبد فلن يحصد إلا السراب والله أعلم.

وكذلك القرب من الله – عز وجل – لابد فيه من بداية من العبد ففي الحديث القدسي: «إذا تقرب العبد مني شبرا تقربت منه ذراعا، وإذا تقرّب مني ذراعا تقربت منه باعا»[1].

ولقد ذكر القرآن هذا القانون بشقيه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

***

النموذج التاسع: فقه الابتلاء:

إن الابتلاء للمجرمين تذكير وعقوبة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وهو للمؤمن تذكير وتطهير ووسيلة للارتقاء والقرب من الله..

فالله عز وجل يبتلي عباده المؤمنين؛ كي يستخرج من قلوبهم معاني الذل والانكسار والافتقار والعبودية له – سبحانه وتعالى – وكلما كانت هذه المعاني راسخة في القلوب؛ كلما كان الابتلاء أشد؛ ليكون وسيلة لاستخراجها من مكنوناتها ... من هنا كان أشد الناس بلاء أعرفهم بالله وأشدهم له عبودية.

---

(١) رواه البخاري (٩/ ١٥٧ برقم: ٧٥٣٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٧ برقم: ٢٦٧٥).

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»[1].

وهذه المعاني التي يُظهرها البلاء لا تظهر بغيره، ومن ثم فإن الدرجات التي يحصلها العبد من خلاله لا يمكن أن يحصلها بغيره والله أعلم.

والابتلاء وإن كان في ظاهره شرا ومحنة إلا إنه يحمل في طياته خيراً كثيراً للمؤمنين فهو يرفع الدرجات، ويثبت القلب، ويزيد الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهو عطاء في سورة منع، ومنحة في سورة محنة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أما كيف يعرف المؤمن أن ما أصابه من بلاء بسبب ذنوبه أم لرفع درجات؟ فهذا لا ينبغي أن يشغل باله كثيراً؛ لأن العبودية المطلوبة منه في كل أحوال البلاء واحدة ألا وهي الصبر والتضرع إلى الله تعالى.. ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٣].

ويقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وفي مقابل الابتلاءات التي تصيب المؤمن فإننا نرى النعم تتوالى على كثير من العصاة والمتكبرين، وليس معنى هذا أن الله لا يعاقبهم على أفعالهم، ولكن هذا العطاء الظاهري من أشد صور المنع؛ فهو نوع من أنواع الاستدراج إلى النار، والعياذ بالله.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٧٨ برقم: ١٤٨١)، والدارمي في السنن (٣/ ١٨٣١ برقم: ٢٨٢٥)، وابن ماجه (٥/ ١٥٢ برقم: ٤٠٢٣)، والترمذي (٤/ ٦٠١ برقم: ٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٧/ ١٦١ برقم: ٢٩٠١)، وحسنه الأرنؤوط.

فالله عز وجل ينذر عباده ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

فإن عادوا إليه فقد استجابوا لصوت العقل، ونداء الحق وإن استمروا في غيهم، فإن الدنيا قد تفتح عليهم ليزدادوا في طغيانهم فيحق عليهم العقاب ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢ – ١٨٣]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ – ٤٤].

فقد يكون الملك والنعيم والجاه والثراء منعا واستدراجا وعقوبة من الله — عز وجل — وإن كان في ظاهره على عكس ذلك ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ – ٥٦]

فالخير الذي يصيب هؤلاء المجرمين ما هو إلا غطاء لشر عميم، ومع هذا فإن الله عز وجل لم يغلق باب توبته عنهم، بل إن من أسباب ابتلائهم هو رجوعهم إليه ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

فإذا ما تبين ذلك يبقى السؤال حول مدى تفاوت درجات الناس في الإمكانات المادية والعقلية، وعلاقتها بالابتلاء.

إن أي نعمة ينعمها الله على عبده ليست دليل كرامة، بل هي اختبار له عليه أن يجتازه، والنجاح فيه يستلزم نوعاً خاصاً من العبودية ألا وهي الشكر، فإذا قام العبد بهذه العبودية فقد نجح في الاختبار، وارتفع رصيده من الدرجات، وإن لم يقم بذلك صارت تلك النعمة وبالاً عليه وحجة تحاجه عند الله — عز وجل — يوم القيامة، وساعتها يتمنى أن لوكان قد حُرم منها، فهو لم يستفد منها استفادة حقيقية، بل كانت سبباً في زيادة حسابه وعذابه.

وفي مقابل ورود النعم على العباد، وما تستلزمه من العبودية، يكون المنع أيضاً

اختبارا لهم يحتاج إلى عبودية خاصة ليجتازوه، فهي إن كانت في العطاء والرخاء في صورة الشكر، فإنما تكون في الشدة والمنع في صورة الصبر.

يقول تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فكل ما أُوتيه العبد في شتى جوانب حياته فتنة وامتحان له: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فالغنى ليس له كرامة، والفقر ليس له إهانة، فكلاهما مواد للاختبار ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

وإن كان جزاء الشكر الزيادة كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧].

فإن جزاء الصبر لا حدود له ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

والدنيا كلها عند الله لا تساوي جناح بعوضة، وكل لحظة يمكثها العبد في الدنيا يقابلها ما لا نهاية له في الآخرة.

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرّضت في الدنيا بالمقاريض»[(١)].

.... والقرآن مليء بالآيات التي تدور حول هذا النموذج، ولا تكاد تخلو سورة منها فعلينا أن نعمل على استخراجها، والوقوف عندها لتترسخ معانيها في قلوبنا.

***

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٠٣ برقم: ٢٤٠٢)، وقال: غريب لا نعرفه إلا بهذا الوجه، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١٥٧٠).

النموذج العاشر بعنوان: "العبرة بما في القلوب" أو "أهمية الصدق":

القلب هو محل نظر الله عز وجل وبمقدار ما فيه من صدق وخير يكون العطاء الإلهي.

وهذه بعض الآيات التي تقرر هذه الحقيقة علينا أن نتدبرها، ونستخرج أمثالها أثناء تلاوتنا للقران.

يقول تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠].

ويقول تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ويقول تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

فالعبرة بالسرائر وما فيها من صدق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣].

إن الجزاء من جنس العمل ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وعندما يحاول البعض الاحتجاج بأن الله لم يهدهم، وهدى غيرهم، تكون الإجابة بأن العبرة بما في القلوب فهي محل نظر الرحمن ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فلابد من وجود الخير في القلب ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ولو أسمعهم وهم على حالتهم هذه من عدم وجود الخير في قلوبهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وعندما احتج قوم نوح عليه السلام على وجود الضعفاء معه قال لهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

ويؤكد القرآن على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

وهذا ما يفسر قول بعض السلف: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره.

والقرآن كثيراً ما يركز على أهمية ما في السرائر وأن رضوان الله وسخطه إنما يكون مداره بالأساس على ما في القلوب ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

إنه قانون واضح يستدعي من الجميع العمل على زيادة مساحة الخير في قلبه، وتنقية سريرته.

***

النموذج الحادي عشر: "مفتاح التوفيق والخذلان":

التوفيق هو الرشد والسداد وإصابة الهدف المنشود، أما الخذلان فيعني الهزيمة وعدم الوصول إلى الهدف... قال رسول الله ﷺ «سل الله تعالى الهدى والسداد، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، واذكر بالسداد تسديدك السهم»(١).

ولقد بين القرآن في عدة مواضع الطريق إلى استجلاب التوفيق الإلهي، وكذلك الخذلان.

فالتوفيق هو إعانة الله لعبده في وصوله إلى هدفه، والخذلان تركه لنفسه، دون إعانة منه، ومن تُرك لنفسه فقد تُرِك للضعف، والتثاقل، والتخاذل والميل إلى الراحة، وحب الشهوات وإرادة العلو في الأرض.

والحصول على التوفيق والخذلان يبدأ من العبد كما أشرنا سابقاً.

فبالانكسار لله – عز وجل – والتبرؤ من الحول والقوة يكون التوفيق، وبالاعتماد على النفس وإمكاناتها ومواهبها، يكون الخذلان؛ لذلك كان من دعائه ﷺ «يا حي يا

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٩١ برقم: ٦٦٤)، واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٩٠ برقم: ٢٧٢٥).

قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[1].

ومن دعائه أيضاً: «وإنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك....»[2].

والإنسان قد يدور بين التوفيق والخذلان في يومه، فهو عندما يتوكل بصدق على الله ويتبرأ من حوله وقوته التي يتوهمها يُوفق إلى ما يريد، فإذا ما شعر بالزهو والافتخار واغتر بنفسه خُذل.

إنه قانون واضح ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فحين قال يوسف عليه السلام لربه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] كانت الاستجابة الفورية: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

إنه أمر نافذ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وعندما استخدمه الثلاثة الذين خُلفوا جاءهم الفرج ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

أما الاعتماد على النفس والإعجاب بها فنتيجته أيضاً معروفة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

***

(١) رواه البزار (١٣/ ٤٩ برقم: ٦٣٦٨)، والحاكم (١/ ٧٣٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٦٠)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٢٧).

(٢) رواه أحمد (٣٥/ ٥٢٠ برقم: ٢١٦٦٦) والطبراني (٥/ ١١٩، ١٥٧) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

النموذج الثاني عشر: "حول مفهوم الإحسان"

الإحسان له فضل عظيم.

فصاحبه في معية الله عز وجل ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقريب من رحمته سبحانه ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وبه ينال حب الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وجزاء الإحسانِ الإحسانُ ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

والمستفيد الأول من الإحسان هو صاحبه ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ ﴾[الإسراء: ٧].

وهو يفرج الكرب ويدفع البلاء ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ [الصافات: ١٠٣ – ١٠٥].

ولصاحبه النعيم الأوفى في الجنة والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦].

ولعظم فضله يتمنى المعرض عن الله – بعد وفاته – أن يعود إلى الدنيا؛ ليكون من المحسنين ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨].

والإحسان معناه الفضل والزيادة، وهو يشمل كل شيء في الحياة كما قال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[1].

فالإحسان ليس قاصراً على شيء دون شيء، فالعبادات والأخلاق والمعاملات يمكننا الإحسان فيها.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة: ٨٣].

---

(١) رواه مسلم (٢/ ١٥٤٨ برقم: ١٩٥٥).

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨].

والناس يهرعون إلى المحسن لحل مشاكلهم ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

ففي كل شيء يمكن أن يكون هناك إحسان، والقرآن مليء بالآيات التي تتحدث عن فضل الإحسان وأهميته في تزكية النفوس، وعن صوره ومجالاته وعاقبته في الدنيا والآخرة.

***

النموذج الثالث عشر: سنن النصر والتمكين

لو قرأنا قوله عز وجل: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٠] دون أن نبحث عن سنن النصر ومعادلته، فسنقبع في بيوتنا في انتظار النصر وسيطول بنا الانتظار، لأننا لم نفهم سنة النصر على الوجه الصحيح.

فالنصر من عند الله هذه قاعدة لا شك فيها، ولكن لكي يأتي هذا النصر لابد من جهد يبذله الناس يحققون به طرف المعادلة، إلى أن يصلوا إلى الدرجة التي تستدعي الطرف الآخر.

وطرف المعادلة المطلوب تحقيقه من الناس يبينه القرآن في عدة مواضع .. يقول تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] فلابد للعبد من أن ينصر الله على نفسه كي ينصره على عدوه.

ويؤكد القرآن نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ومن شروط النصر أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

فالمتأمل للشروط يجد أن المطلوب ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ولم يقل سبحانه أحداً؛ فشيئاً تشمل كل ما يمكن أن يكون فيه شرك خفي وجلي... والله أعلم.

فالمطلوب أن يوجه العبد وجهه لله عز وجل فلا تكون تصرفاته وأعماله لأي وجه آخر ليحقق قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

وهذه هي الحنيفية أي الميل التام إلى الحق، وإسلام الوجه لله ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

فالله عز وجل لن يُمكِّن دينه إلا لعبادة المنتسبين إليه المستمسكين بعروته الوثقي ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥ – ١٠٦].

والتقوى أيضاً شرط من شروط التمكين يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويقول عز وجل: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣ – ١٤].

ومع إسلام الوجه التام لله عز وجل وحسن الانتساب إليه والخوف الدائم منه فإن النصر يستلزم أيضاً حسن الإعداد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فمن استكمل هذه الشروط فقد وضع نفسه في طريق تلقي النصر الذي لا يأتي إلا من عند الله سبحانه وتعالى، وعندما يحين وقت مجيئه فلا توجد قوة في الأرض – مهما علت – يمكنها أن تقف أمامه، ألم يقل سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

***

النموذج الرابع عشر: حول أسباب الهداية والضلال.

إن الهداية منحة وفضل من الله عز وجل يمنحها من يشاء من عباده .. يقول تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢].

ويقول عز وجل على لسان أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهي وإن كانت محض فضل من الله إلا أنها تحتاج وجود رغبه من العبد في تحصيلها ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته»، فهذه هي الحقيقة الخالدة.. ثم بيَّن الحديث العمل المطلوب من العبد، كي يحصل على هذه المنحة الربانية: «فاستهدوني أهدكم»[(١)].

أما أسباب الضلال وابتعاد الناس عن الحق فلا تخرج عن كونها أحد سببين: إما جهل أو هوى .. يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فأوضحت الآية أن أسباب عدم قيام الإنسان بحمل الأمانة هي: الظلم والجهل.

وصور الظلم كثيرة، فطلب العلو في الأرض ظلم، واتباع الشهوات ظلم،...إلخ.

والقرآن يشخص أسباب تكذيب المكذبين بأنهم لا يريدون الإيمان بالله، ليس عن شك فيه، ولكن عن عدم رغبة في ترك ما هم عليه من فجور.

يقول تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥].

لذلك ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦].

ويقول تعالى ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ [الفرقان: ٤٠]، نعم كانوا يرونها ولكنهم تعاموا عنها لأنهم لا يريدون الإيمان، ولا الحساب يوم القيامة،

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧).

يقول تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٠].

إنهم يريدون الدين على هواهم ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥].

لذلك مهما بُذل معهم من مجهود فلن يقتنعوا، لأن القضية ليست بسبب جهلهم وإنما في اتباعهم الهوى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ [البقرة: ١٤٥].

أما إذا كان السبب هو الجهل فما أيسر انتفاءه إذا ما وُجد داعية صادق يحسن عرض الدعوة.

والقرآن مليء بالآيات التي تقرر هذه القاعدة:

لماذا آمن السحرة ولم يؤمن فرعون مع أنهم جميعهم رأوا نفس الآيات؟

ولماذا آمنت ملكة سبأ عندما رأت الصرح الزجاجي عند سليمان ؟

تأمل قوله وهو يقول لمن حوله من الجنود: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١].

ويبين القرآن أن سبب كفرها هو نشأتها في بيئة كافرة وأنها حين رأت الآيات آمنت: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النمل: ٤٣ – ٤٤].

.. ويمكن للقارئ المتدبر للقرآن أن يتتبع هذه القاعدة في القرآن، وتطبيقاتها العملية ويتعرف على موانع الهداية التي ذُكرت في مواضع كثيرة.

***

النموذج الخامس عشر: أهمية الشكر في الحفاظ على النعم.

الشكر من أهم مظاهر الحكمة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢].

وبه يُدفع العذاب: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ [النساء: ١٤٧].

فهو مستهدف النعم: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

وهو أيضاً قيدها وسبب زيادتها: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولأنه مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة؛ يسعى إبليس لصرف الناس عنه ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧].

ولكن كيف يكون الشكر؟

إن الشكر عمل .. يقول تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ: ١٣].

وله صورتان: صورة عامة لكل النعم وصورة خاصة لكل نعمة على حدة.

أما الصورة العامة فتتلخص في زيادة الذل والانكسار والتقوى والتضرع والاجتهاد في العبادة لله عز وجل.. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: ٤٢ – ٤٣].

ويقول: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ [الكوثر: ١ – ٢].

وعندما وجدت السيد عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ يطيل القيام بالليل حتى تورمت قدماه قالت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا»(١).

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٣٥ برقم: ٤٨٣٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧٢ برقم: ٢٨٢٠).

أما الصورة الخاصة لشكر النعمة فتكون بالاعتراف بها وحمد الله عليها، وجعلها وسيلة تُقرب صاحبها إلى الله عز وجل فيستخدمها فيما يرضي مولاه سبحانه وتعالى ويجعل منها سبباً لنفع الناس فلا يتكبر أو يتجبر بها، بل يزداد استقامة لله عز وجل وانكساراً له.

فعندما دعا موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَام على فرعون بالهلاك، قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

.. إن الشكر يحتل مساحة ضخمة في القرآن الكريم؛ فعلينا أن نتتبع الآيات التي تتحدث عنه، ونحاول ربط بعضها ببعض ونتأمل نماذج الشاكرين والمعرضين كي يستقر مفهومه في الأذهان، ومن ثم نمارسه بتلقائية في حياتنا... والله المستعان.

الحياة مع القرآن

من المتوقع أن يتبادر إلى الذهن سؤال مهم وهو: إننا بهذه الطريقة التي سنقرأ بها القرآن لن نتمكن من الانتهاء من وردنا اليومي، وستكون حصيلة قراءتنا قليلة فكيف يمكن الجمع بين تدبر القرآن والتجاوب معه من ناحية، وختمه ولو مرة كل شهر من ناحية أخرى؟

إن المقصد الأساسي من قراءة القرآن هو تدبره، والعمل بما فيه من توجيهات تحيي القلوب وتنير الطريق وتشفي الصدور كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

فلا بديل عن ذلك مهما كانت الأسباب.

لقد قرأنا القرآن مرات ومرات بألسنتنا وحناجرنا، وكان هم الواحد منا الانتهاء من ختمه بل كان بعضنا يتنافس في عدد المرات التي يختمه فيها، خاصة في شهر رمضان، فأي استفادة حقيقية استفدناها من ذلك؟

ماذا غيّر القرآن فينا؟

إن القراءة باللسان فقط – دون حضور العقل على أقل تقدير – كالنخالة كبيرة الحجم قليلة الفائدة.

فلا عذر لأحد في ترك التدبر وإلا صارت قراءتنا حجة علينا يوم القيامة.

والحد الأدنى للتدبر هو حضور العقل عند القراءة المتأنية، وأن يفهم الإنسان ما يردده لسانه ولو بصورة إجمالية، وهذا لا يحتاج إلى وقت طويل، كل ما يحتاجه هو التهيئة النفسية والذهنية.

ومع المداومة على التلاوة، وحضور العقل فيها تبدأ المعاني والخواطر في الورود على الذهن دون تكلف بإذن الفتاح العليم، وستزداد مساحة التأثر والتجاوب القلبي مع الآيات تدريجيا.

ولا ينزعج القارئ من قلة خواطره في البداية؛ شيئاً فشيئاً ستزداد، وعندما يمن الله عليه بالدخول في العالم الحقيقي للقرآن والتفاعل مع الآيات، والشعور بأنه المخاطب

بها: سينقلب حاله، وستملأ المعاني حياته.. في نومه ويقظته، وسكونه وحركته، وسيقف مشدوهاً أمام الكثير من الآيات، وستنكشف أمامه الكثير من الحقائق .. هذه المرحلة لابد أن نمر بها جميعاً، وهي التي ستأخذ منا بعض الوقت، ولكن بعد عدة ختمات، ومع المرور على نفس الآيات وما فيها من موضوعات متشابهة – والتي أشرنا بفضل الله إلى طرف منها سابقاً – سنجد أن أذهاننا حاضرة مع المعاني، دون التوقف الكثير عندها، يبقى ما تضيفه إلينا الآيات من خواطر جديدة، وهذا لن يستغرق وقتاً طويلاً، والله أعلم.

إننا نقف منذ زمن بعيد أمام الباب الخارجي لعالم القرآن لذا من المتوقع أنه إذا فُتح لنا هذا الباب – بفضل الله وكرمه – وولجنا إلى الداخل فسوف تصيبنا الدهشة والانبهار مما سنرى من عجائب وكنوز.

هذا الانبهار سيأخذ وقته إلى أن نتعرف على ما في هذا العالم الجديد، وبعد ذلك سنعتاد هذه الحياة ويصبح للقرآن دور توجيهي في واقعنا وتصبح له الكلمة العليا والأولى في كل شؤون حياتنا بإذن الله.

إنها حياة أخرى غير التي نحياها تلك التي سيعيشها من يدخل إلى عالم القرآن.

نصيحة:

عندما يحتار العقل في فهم آية من الآيات علينا بالاجتهاد والتضرع إلى الله عز وجل كي يمن علينا بالفهم الصحيح لها، ثم بعد انتهاء القراءة يمكننا الرجوع إلى كتب التفسير لمعرفة المعنى المراد منها.

عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: سمع النبي ﷺ قوما يتدارؤون، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم، فكلوه إلى عالمه»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١١/ ٣٥٣ برقم: ٦٧٤١)، وصححه الأرنؤوط، وقال: «يتدارؤون» يريد: يختلفون، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] أي: تدارأتم وتدافعتم واختلفتم. قاله البغوي. والمراد: يتدافعون في القرآن.

وصية:

يقول ابن القيم رحمه الله: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الاحوال التي بها حياة القلب وكماله.

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأ بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمه بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][١].

فقراءة القرآن بتفكر هي أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود: «لا تهذّوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة»[٢].

تجربة من الواقع المعاصر:

وفي نهاية الحديث عن القرآن ننقل كلام أحد الذين منّ الله عليهم بمعايشة القرآن، واستخراج بعض كنوزه، ومن الملاحظ أن هذا الشخص ينتمي إلى العصر الحديث بما فيه من مستجدات، مما يدل على إمكانية تكرار هذا النموذج بإذن الله.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٥/ ٢٥٦ برقم: ٢١٣٢٨)، وابن ماجه (٢/ ٣٢٧ برقم: ١٣٥٠)، والنسائي (٢/ ١٧٧ برقم: ١٠١٠)، والحاكم (١/ ٣٦٧ برقم: ٨٧٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه النووي في خلاصة الأحكام (برقم: ٢٠٢٧)، والألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١٢٠٥).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٨٧) والأثر رواه الآجري في أخلاق أهل القرآن (برقم: ١).

يقول سيد قطب – رحمه الله وتقبله في عداد الشهداء – عن تجربته مع القرآن:

«الحياة في ظلال القرآن نعمة... نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها... نعمة ترفع العمر وتباركه، وتزكيه.

والحمد لله، لقد منّ الله عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمن، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي، ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه، وتزكيه.

لقد عشت أسمع الله – سبحانه – يتحدث إليّ بهذا القرآن، أنا العبد القليل الصغير، أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟! أي رفعه للعمر يرفها هذا التنزيل؟! أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقُه الكريم؟!

وعشت في ظلال القرآن أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة، أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال، ولثغة الأطفال، وأعجب .. ما بال هؤلاء الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل، النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه؟!

وعشت في ظلال القرآن أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله، ثم أنظر فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تُملى عليها، وبين فطرتها التي فطرها الله عليها، وأقول في نفسي: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟!

يا حسرة على العباد!!

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وكل أمر لحكمة، ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن ثمّ عشت في ظلال القرآن هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير، عشت أرىٰ يد الله في كل حادث وفي كل أمر، عشت في كنف الله ورعايته، عشت أرىٰ إيجابية صفاته تعالىٰ وفاعليتها ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

إن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء، فهناك دائماً وراء السنن الإرادة المدبرة والمشيئة المطلقة، والله يخلق ما يشاء ويختار، وكذلك تعلمت أن يد الله تعمل ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة، وأنه ليس لنا أن نستعجلها، ولا أن نقترح علىٰ الله شيئاً، فالمنهج الإلهي كما يبدوا في ظلال القرآن موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة.

وانتهيت من فترة في ظلال القرآن إلىٰ يقين جازم حاسم، إنه لا صلاح لهذه الأرض ولا راحة لهذه البشرية ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة، ولا بركة، ولا طهارة، ولا تناسب مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلىٰ الله.

والرجوع إلىٰ الله كما يتجلىٰ في ظلال القرآن له صورة واحدة وطريق واحد... واحد لا سواه، إنه العودة بالحياة كلها إلىٰ منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، والتحاكم إليه وحده في شؤونها، وإلا فهو الفساد في الأرض والشقاوة للإنسان.

القرآن هو الحل:

إن هذه البشرية وهي من صُنع الله لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من عنده سبحانه، وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل دواء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلىٰ صانعه، ولا أن

تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقاوتها، ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة، وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز، ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا تريد أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الدقيق اللطيف الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة، البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد، ولن تجد الهدى، ولن تجد الراحة، ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير»[1].

(١) في ظلال القرآن (ص: ١١ - ١٥ باختصار).

الفصل الثالث

تعظيم أمر الصلاة

بإدراك حقيقتها والاجتهاد في إقامتها

حقيقة الصلاة

لكي ندرك – بعون الله وفضله – ما الذي ينبغي أن تمثله الصلاة عند المسلم لابد لنا من التعرف على طبيعة وحقيقة العلاقة التي تربطنا بالله عز وجل.

«إني أحب أن أشكر»:

خلق الله عز وجل الخلق لعبادته وليُظهر فيهم آثار أسمائه وصفاته:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ
يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ
لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ
وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

يُظهر – جل شأنه – آثار أسمائه وصفاته في مخلوقاته لنشاهدها وندرك من خلالها – بحسب ما تستوعبه عقولنا – قدرا يسيرا من عظمته وقدرته وقيوميته وعزته ...، فنُكبره، ونسبحه، ونحمده...

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ
وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ
يُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَىِّ
وَيُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ [الروم: ١٧ – ١٩].

فالتسبيح من ناحية، والحمد من ناحية أخرى لمن أهم غايات الخلق... ومعنى الحمد هو الثناء، فالله عز وجل يُحب أن يثنى عليه بما هو أهله، والحمد يشمل جميع أسماء الله وصفاته، وهو يشمل الشكر، ولكن الشكر يختص بالنعم، بمعنى أن الشكر هو الثناء على الله بنعمه التي يتفضل بها على عباده.

وكما أن التسبيح والحمد لله من غايات الخلق، فالشكر كذلك:

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وعندما رأى آدم ذريته منهم المعافى والمبتلى، ورأى فضل بعضهم على بعض، قال: أي رب أفهلا ساويت بينهم؟ قال: إني أحب أن أشكر[١].

ولعلم إبليس بعظم قدر الشكر، وأنه المراد من الخلق، فقد أخبر الله عز وجل أنه سيجتهد في إضلال بني آدم، وإبعادهم بأقصى جهده عن الشكر:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧].

أهم درجات الشكر:

أول وأهم درجة للشكر هي رؤية النعمة وإدراكها، والاعتراف بها، وإدراك قدرها من خلال تصور الحياة بدونها، وكذلك استشعار أنها نعمة وفضل وليست حقا للمرء، وإظهار ذلك لله عز وجل بالقلب: امتنانا وعرفانا، وباللسان: حمداً وثناءً، وبالجوارح تواضعا وبذلا لمن يحتاجها...

ولئن كان هذا هو ما ينبغي أن نفعله بإجمال في حق سائر النعم، فكيف نُسقط ونترجم هذه الأمور على واحدة من أعظم النعم: نعمة الربوبية التي نُذَكِّر أنفسنا يوميا بها في صلاتنا حين نتلو الفاتحة ونردد: «الحمد لله رب العالمين»؟

الإجابة بعون الله تستدعي في البداية التعرف بإجمال على معنى الربوبية.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٥٣ برقم: ٤١٢٨) عن قتادة والحسن، وروى الطبري معناه عن أبي بن كعب ﷺ في التفسير (١٣/ ٢٣٩ – تحقيق شاكر).

معنى الربوبية:

من معاني الربوبية الإمداد المتواصل من الله عز وجل لعباده بما يقيم حياتهم..

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

فنحن لا شيء بدون الله جل شأنه وإمداده المتواصل، فلا حول ولا قوة إلا بالله... لا توجد لدينا قوة أو قدرة ذاتية نُبصر بها، أو نسمع بها، أو نتحرك بها، أو نأكل بها، أو نشرب بها، أو نفكر بها، أو نتذكر بها، أو ننام بها، أو نستيقظ بها.

وجودنا.. حياتنا كلها قائمة بالله، ومتعلقة تعلقا تاما ومطلقا به سبحانه، ولو تخلى عنا طرفة عين لتوقفت تلك الحياة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

فما هو شكر هذه النعمة، نعمة الربوبية بالإجمال؟!

الشكر كما أسلفنا يبدأ برؤية النعمة وإدراكها والاعتراف بها وبقدرها، والذي يمكن تصوره – إلى حد ما – بتخيل حياتنا بدونها..؛ فإذا ما أسقطنا هذا المفهوم على شكر نعمة الربوبية نجد أن من أهم صور شكر هذه النعمة بإجمال هو: الاعتراف بعجزنا التام عن القيام بشؤون أنفسنا من دون الله جل شأنه وبدون إمداده.

ومما يجدر التذكير به أن العجز هو: عدم القدرة على تحقيق ما يريده المرء؛ فرؤية حقيقتنا أننا لا يمكننا فعل أي شيء بدون الله عز وجل، وأننا بحاجة إلى مساعدته وإعانته بشكل كامل ودائم ومتواصل لتحقيق ما نريد، وأن يستبد بنا هذا الشعور – الشعور بالعجز عن القيام الذاتي بأمورنا، واحتياجنا الماس والمطلق لربنا في كل طرفة عين – هذا هو الحد الأدنى من شكر الربوبية، كما سأل موسى عليه السلام ربه: «يا رب، كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله؟» قال:

فأتاه الوحي: «أن يا موسى، الآن شكرتني»[1]، فشعوره عليه السلام بالعجز عن الشكر قد رضيه الله منه شكرا.

الاعتراف بالعجز والشعور بالذل لله عز وجل:

من هنا ندرك معنى كلام ابن الجوزي: «تأملت المراد من الخلق فإذا هو الذل، واعتقاد التقصير والعجز»[2].

نعم، ... فلئن كان الشكر هو المراد من الخلق؛ فشكر الربوبية — كما أسلفنا — هو الذل، واعتقاد التقصير والعجز الذاتي، وحين نبتعد عن ذلك فقد ابتعدنا عن الشكر...

لقد بين القرآن الحكيم في العديد من مواضعه أن الشعور بالاحتياج المطلق والذاتي لله عز وجل، والعجز عن الحياة بدونه، ومن ثم التذلل الدائم له: هو حال جميع الخلائق — عدا الإنس والجن — وما سجودها الدائم له سبحانه إلا تعبيرا عما تشعر به، وأن الإنسان حين لا يفعل مثلها؛ بل يعصي ربه ويخالف أمره، فإنه يفعل فعلا مشينا، ويضع نفسه في طريق الجحود والكفران.

.. تأمل هذه الآيات من سورة النحل وهي تنذر أصحاب السيئات بأنهم قد وضعوا أنفسهم في طريق العقاب الإلهي بعصيانهم، وأنه سبحانه وإن أخَّر عنهم هذا العقاب لرأفته بهم وانتظار توبتهم؛ إلا أنهم يستحقونه، ويكفي لتذكيرهم ما ينبغي أن تكون عليه علاقتهم بربهم؛ رؤية ما حولهم من الكائنات وملاحظة سجودها الدائم لله عز وجل...

تبدأ الآيات بالتخويف والترهيب من فعلهم:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (برقم: ٦).

(٢) صيد الخاطر (ص: ٥٦ — دار القلم).

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ
أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ
فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ – ٤٧].

وتذكرهم بالحالة التي عليها جميع الخلائق كنتيجة تلقائية لحقيقة وجودهم وارتباطه التام به سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] (داخرون أي: صاغرون منقادون) ... فالسجود لله سبحانه هو ترجمة عملية للاحتياج والافتقار التام له، والعجز عن الاستغناء عنه ولو طرفة عين، وتعبيرا عن الشعور بالذل والانكسار له سبحانه.. ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

وَهْم الاستغناء عن الله:

فما أضلك أيها الإنسان حين تُعرض عن هذا كله، وتنسى حقيقة وجودك.

... ما أشقاك حين تنخدع بما معك من أسباب وتظن أنها ملك ذاتي دائم لك، فتقع في وهم إمكانية الاستغناء عن الله ...

فإن قلت: أنا لست كذلك، قيل لك: ألا يكفي عدم الشعور بالاحتياج الدائم إليه سبحانه دليلا على التلبس بهذا الوهم؟

أين ذل الاحتياج والافتقار؟ أين التصاغر والانقياد؟

أين السجود الحقيقي والتلقائي لمن بيده مقاليد أمورك كلها؟

أليست هذه أدلة دامغة على الوهم الذي نعيش فيه؟

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: ٦ – ٧].

... ما أشد جحودك أيها الإنسان حين تنسب فضل ربك وإمداداته المتوالية لنفسك، وتردد ما سبقك به الأولون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

... ما أجهلك حين تُعجب وتفرح بنجاحاتك وتنسبها لذاتك، وتتيه وتفتخر بها

على من حولك.

... ما أخيبك حين تخرج من حقيقة أنك لا شيء بدون الله، فتتعاظم في نفسك، وتتكبر على ربك.

تتكبر عن القيام بواجبك التلقائي نحو من يمدك بمقومات الحياة، ولو توقفت تلك الإمدادات لانتهي وجودك!!

تتكبر عن إظهار عجزك الذاتي، وافتقارك الدائم، وذُلِّك وانكسارك له!!

... ما أضلك وما أخيبك، وما أشقاك، وما أجهلك، وما أجحدك حين تتمرد على ارتداء جلبابك، وتتوهم بالفعل قبل القول أنه يمكنك الاستغناء عن الله... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: ٢٣].

إن العُجب والغرور والكبر وغيرها من أمراض القلوب لمن أشد صور الجحود والنكران والكفران لهذه الحقيقة... حقيقة الربوبية، ولعلنا بذلك نُدرك شيئا من حكمة التشديد في عواقب هذه الأمراض، حيث تبعد صاحبها وتقصيه عن حظيرة العبودية، وتضعه في طريق خطير مهلك، تنقطع فيه صلته بالله؛ صلة العبد بالرب...

الرب الودود يدفعنا للشعور بالعجز:

الله سبحانه وتعالى يريد لنا الخير: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٧]، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولأن طريق الجنة هو طريق العبودية حيث التحقق بالذل واعتقاد العجز الذاتي، فإنه سبحانه يدفع عباده الشاردين عن هذا الطريق للعودة إليه، ومن ذلك أنه خلقنا سبحانه بهيئة تدفعنا لاستشعار هذا المعنى.

ومن ذلك:

.. عدم القدرة على الاستمرار في حالة من اليقظة المتواصلة دون نوم.

.. عدم القدرة على تحمل الجوع والعطش مدة طويلة.

.. عدم القدرة على تحمل نقص الهواء.

.. عدم القدرة على تحمل عدم الإخراج.

.. وهكذا، والمفترض أن هذه الأمور تدفعنا نحو الاعتراف بالعجز الذاتي، والشعور بالذل نحوه سبحانه.. فإن لم نفعل فإن الرب الودود يرسل لنا آيات ورسائل أغلبها في شكل منع لجزء من إمداداته .. يُرسلها سبحانه لكل فرد كالمرض والنقص والابتلاءات المتنوعة لتكشف له حقيقة فقره إلى ربه، وتهدف كذلك إلى إرباك حساباته، وإخراجه من حالة الغفلة والاطمئنان للدنيا، والتعلق بأسباب القوة المتوهمة...؛ كل ذلك لكي يعود إلى حظيرة العبودية ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]، ولكي تتصل الأرض بالسماء من خلال توجه المرء بحالة الاضطرار والاحتياج وإعلان الفقر وإظهار الذل والمسكنة لمن بيده خزائن كل شيء.. فلا قيمة للإنسان دون هذا الاتصال، ولئن بدأ رحلته إلى الله وهو في منزلة عالية عنده سبحانه إلا أنه ينحط ويتسفل كلما غفل ونسي وأنكر ضرورة هذا الاتصال والتلبس بهذه الحالة.. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝﴾ [التين: ٤ – ٥].

إن المرء حين يترجم جزءا من حقيقة وجوده بتوجهه لربه بمشاعر الاضطرار والمسكنة والافتقار والذل؛ فإنه يضع نفسه في مكانه الصحيح كعبد ذليل لرب جليل .. هنا تَرِدُ عليه المكرمات والولاية والكفاية الإلهية... ولم لا وقد دخل إلى ربه من الباب الصحيح ... ووضع نفسه في طريق ولايته وكفايته ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

.. جاء في الأثر أن موسى بن عمران عليه السلام قال: أي رب، أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، إني أدنو منهم كل يوم باعا، ولولا ذلك لانهدموا[١].

... فالمطلوب إذن توجه المرء بمشاعر المسكنة والاستكانة والانكسار لربه جل شأنه وليس لغيره .. حينها يدخل مضمار العبودية.

إن المحن والابتلاءات والنقص تجعل عامة الناس يشعرون بشيء من العجز

(١) ذكره الإمام أحمد في كتاب الزهد (برقم: ٣٩١).

والاستكانة، ولكن هذا وحده لا يكفي؛ بل لابد أن يتوجهوا بهذا الشعور نحو ربهم الذي أرسل لهم هذه الابتلاءات ليعودوا عبيدا صاغرين إليه، لذلك نجد أكثر من آية تذم أولئك الذين لا ينتفعون بتلك الرسائل الإلهية، ولا يحققون ما تهدف إليه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

اتصال الأرض بالسماء:

إن العلاقة التي تربطنا بالله عز وجل هي علاقة العبودية بالربوبية، ولقد أقر جميع البشر بذلك في المشهد العظيم .. في عالم الذر:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أقررنا في هذا المشهد بربوبيته – سبحانه – علينا .. أقررنا بالحقيقة التي تعني أنه لا حياة ولا وجود ولا قيام لنا إلا به، وأنه هو وحده القائم على أمر تربيتنا وتعاهدنا وإمدادنا بما نحتاجه، ولا يوجد مصدر آخر لتحصيل ذلك، فهو رب كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

عنده خزائن كل شيء، يملكها، ولا يَخرج منها شيء إلا بإذنه، وبالقدر الذي يقدره سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

هذه هي أصل العلاقة التي تربطنا بالله جل شأنه... ولئن كان سبحانه قد أتاح لنا حرية الاختيار، إلا أنه في الوقت ذاته أخبرنا بأن قيمتنا عنده مرتبطة باستحضارنا لهذه الحقيقة، وممارسة ما تقتضيه..

ولئن كنا ونحن نعيش على الأرض لا نرى الله عز وجل بأبصارنا لأنه سبحانه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] إلا أنه من المتاح الاتصال به

جل شأنه من خلال التحقق بمعاني العبودية، ليتصل حينها ما انقطع، ويقترب ما ابتعد، ويعاد تجديد العهد والوعد حين سألنا: ألست بربكم؟ فقلنا: بلى.

جوهر الاتصال بين المرء وربه:

من هنا نؤكد بأن الاتصال الحقيقي بالله عز وجل لابد أن يكون جوهره هو التواصل بين حقيقة وجودنا وبينه سبحانه.

.. هو إقرار وتأكيد على العهد الأول.

أو بمعنى آخر: إن الاتصال الحقيقي الذي ينبغي أن يكون بين الإنسان وبين الله جل شأنه:

هو اتصال العبد العاجز بالرب القادر.

والعبد الضعيف بالرب القوي.

والعبد الذليل بالرب العزيز.

والعبد الحقير بالرب العظيم.

والعبد الجاهل بالرب العليم.

هو اتصال ممن هو لا شيء، ومن لا يملك شيئا، ولا يقدر على جلب أدنى نفع أو دفع أقل ضر عن نفسه، بمن هو خالق كل شيء، ومالك خزائن كل شيء .. بمن لا يعجزه شيء أراده أن يفعله ... بمن إذا شاء كان وإذا لم يشأ لم يكن ... حي قيوم ... قريب محيط ... سميع عليم ... عزيز حكيم ..

هذا الاتصال هو الاتصال التلقائي الناتج عن الحقيقة التي يقوم الوجود كله عليها .. وهو الاتصال الذي يرضي الله عز وجل...

تأمل قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ

يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا
وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ
أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ
تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم تأمل الآيات التي تتلوها مباشرة التي توجهنا للحقيقة التي ينبغي أن نكون عليها كنتيجة تلقائية لهذه الربوبية:

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ
وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا
وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ
إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥ – ٥٦].

.. نعم، هذا هو جوهر الاتصال الذي يريده الله من المرء وذلك بالتوجه إليه بدعاء تنفعل فيه مشاعره وتنتفض أعضاؤه، ويُظهر فيه عظيم احتياجه وفقره إليه، وذله وانكساره بين يديه، ويقر له بعجزه عن القيام بشؤون نفسه، ولو بأدنىٰ شيء منها، وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا صحة ولا مرضا...

.. وأن يُعبِّر فيه كذلك عن حقيقة ضعفه وعجزه الذاتي التام واحتياجه المطلق له سبحانه.

.. وأنه لا شيء دونه.

فإن فعل فقد اتصل واقترب ﴿وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وإن لم يفعل: انقطع الاتصال .. وزاد البُعد .. وتَدَنت قيمته ومرتبته ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥].

الصلاة من أهم أشكال الاتصال:

لعلنا بهذا المعنىٰ نزداد إدراكا لأهمية الصلاة؛ فالرب الرحيم الودود يعلم ضعفنا، وأننا سنغفل عنه، وننشغل بأمورنا، فشرع لنا الصلاة لتكون بمثابة تجديد للعهد، وعودة

للاتصال بيننا وبينه سبحانه؛ فكما أسلفنا بأنه لا قيمة لأحد عند الله إلا بمدى تحقيقه لجوهر العبودية، والتزامه بالعهد الأول؛ لذلك فإن أي وقت يمر دون وجود اتصال بما يماثل المعنى الذي ذكرناه فإنه يهوي بصاحبه، ويُبعده، ويقصيه عن ربه.. والله أعلم.

.. أو بمعنى آخر: أن المرء حين لا يتصل بربه من خلال حقيقة أنه عبد ذليل لرب جليل؛ فإنه يضل ويحترق.

من هنا كانت الصلاة فرصة عظيمة، ومنحة هائلة لتعيد الاتصال مرة ثانية، وتصلح ما انقطع، وتُقرب من ابتعد، وتطفئ نيران الغفلة والنسيان والمخالفات.. فعن أنس بن مالك ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملكا ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم، قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على أنفسكم، فأطفئوها بالصلاة»[1].

ولئن كانت الصلاة بصفة عامة تطفئ النيران التي أشعلها المرء بغفلاته ومخالفاته، فإن السجود له خصوصية أشد في إطفاء هذه النيران، وكيف لا وهو الصورة المثلى للخضوع والصغار للرب الأعلى الكبير المتعالي.

عن سلمان الفارسي ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسلم يصلي وخطاياه مرفوعة على رأسه كلما سجد تحاتت عنه فيفرغ من صلاته وقد تحاتت عنه خطاياه»[2].

وما الذنوب؟!

أليست غفلة عن العبودية؟

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٣ برقم: ٩٤٥٢)، والصغير (٢/ ٢٦٢ برقم: ١١٣٥)، وحسن إسناده الضياء المقدسي في المختارة (٧/ ١٦٢ برقم: ٢٥٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٥٠٣ برقم: ٢٨٧٥)، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٤٠٢) وعضده بحديث عبد الله بن عمر ﭭ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة أتى بذنوبه كلها فوضعت على عاتقيه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه» رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣١٦ برقم: ٢٩٣)، وفي مختصر قيام الليل (ص: ١٣٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٣٩٨).

غفلة عن طاعة الملك؟

غفلة عن الاستسلام له؟

أليست عصيانا وخرقا للعهد الذي بيننا وبين الله؟

وما السجود؟!

أليس عودة إلى الرشد؟

أليس إقرارا بالعبودية؟

﴿وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

الصلاة رحمة من الله بعباده

إن إلزام المرء بالصلاة عدة مرات في اليوم والليلة لهو مظهر جليل من مظاهر الرحمة الإلهية، فلو لم تكن الصلاة إلزامية وتُرك الأمر للناس لازدادوا بعدا واحتراقا وضلالا.

.. لقد سُميت الهيئة التي ندخل بها على الله بداية من التكبير حتى التسليم بـ: "الصلاة"، ولم تسمَّ بغيرها لأن الاسم مشتق من الصلة .. نَعَم، صلة الأرض بالسماء، وصلة العبد بالرب.

فلئن غفل العبد عن ربه بعض الوقت، فعليه أن يجدد العهد، ويعيد الاتصال مرة أخرى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

لا عذر لأحد في ترك الصلاة:

لذلك نجد الصلاة أمرا ثابتا في جميع الشرائع ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣١] وأنها «عمود الدين»[(١)].

وعندما نعيش مع حقيقة الصلاة وكيف أنها تعيدنا لسيرتنا الأولى، وتُدخلنا في حمى مولانا ومليكنا –كما أسلفنا– فإننا سنزداد حرصا على أدائها في كل الأحوال، وسندرك حكمة أن الشرع لم يستثن أحدا من أدائها تحت أي ظرف: كمرض أو سفر أو حرب...؛ لأننا في هذه الأوقات لا ننفصل عن عبوديتنا لله .. لم نخرج من هذه الحقيقة، ولم ننفك عنها، أو تنفك عنا، بل إننا نحتاج في تلك الأحوال إلى معيته سبحانه وكفايته وولايته أكثر وأكثر..

---

(١) روى البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٠٠ برقم: ٢٥٥٠): جاء رجل فقال: يا رسول الله أي شيء أحب عند الله في الإسلام؟ قال: «الصلاة لوقتها، ومن ترك الصلاة فلا دين له، والصلاة عماد الدين»، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير (١/ ٤٤٦): رواه أبو نعيم شيخ البخاري في كتاب الصلاة عن حبيب بن سليم عن بلال بن يحيى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله فقال: "الصلاة عمود الدين"، وفي المسند من حديث معاذ بن جبل ﷺ (٣٦/ ٣٤٤ برقم: ٢٢٠١٦) قال ﷺ: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» ورواه أيضا ابن ماجه (٥/ ١١٦ برقم: ٣٩٧٣)، والترمذي (٥/ ١١ برقم: ٢٦١٦) وقال: حسن صحيح.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ
فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانًا
فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨ – ٢٣٩].

الصلاة وشكر الربوبية:

إن الصلاة بحقيقتها وجوهرها لمن أجلّ صور شكر الربوبية .. تأمل قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر: ١ – ٢].

.. نعم، فمن أراد أن يتذكر ربه، ويُفرغ مشاعر الافتقار والاحتياج والذل والمسكنة إليه فعليه بالصلاة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤ – ١٥].

فإن قلت: ولماذا الصلاة تحديدا؟ ألا يمكن للمرء أن يفعل ذلك في أي وقت؟ كانت الإجابة – بفضل الله – بأنه بالفعل يمكن للمرء أن يظهر لربه عبوديته في أي وقت، وهذا أمر مطلوب، ومحمود، إلا أن هيئة الصلاة وأفعالها وحركاتها تُيسّر له أكثر وأكثر إظهار معاني هذه العبودية...

هيئة الصلاة:

إن المتأمل لهيئة الصلاة، المتفكر في أفعالها سيجدها – على الإطلاق – أفضل شكل وهيئة يدخل بها المرء على ربه، ويعلن من خلالها عبوديته له، بكل ما تعنيه من معاني الافتقار والاحتياج، والذل والعجز والتصاغر والمسكنة، والخضوع والتسليم، والهيبة والخشية والإجلال، والرغبة والرهبة ... فكل ما فيها من أفعال من شأنها أن تهيئ المرء وتساعده على إظهار هذه المعاني لربه، بداية من رفع اليد إكباراً وتعظيما لله كبداية للاتصال، ثم وضع اليد اليمنى على اليسرى إظهارا للخضوع والهيبة والإجلال له سبحانه، ودعاء الاستفتاح وما فيه من ثناء عليه جل شأنه، ثم قراءة فاتحة الكتاب كمقدمة يجدد فيها عهده بربه ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ويُضَمِّن فيها أعظم المطلوبات: الهداية إلى الصراط المستقيم، وقبل ذلك يثني على ربه ويحمده تعبيرا عن شكره وعرفانه وامتنانه له.

وبعد الفاتحة: قراءة آيات من القرآن وما فيها من روح مُزلزِلة، ومعان مُذكِّرة، وقوة تأثيرية متفردة تحطم كل ما يقف أمامها من باطل سواء كان شبهة أو شهوة، وتدفع المرء نحو الصغار لربه والتسليم المطلق له.

ثم يأتي الركوع بهيئته وانخفاضه وما ينبغي أن يحمله ذلك من معاني الإجلال والتعظيم لتكون صيغة التسبيح فيه مُعبرة عن هذه الحال: "سبحان ربي العظيم"، وكذلك السجود الذي يمثل أعظم صور إظهار الذل والانكسار والخضوع، والتسليم والتصاغر لله عز وجل، لذا كان التسبيح فيه بصيغة: «سبحان ربي الأعلى» فالعبد في حالة السجود يكون في أعظم أشكال التصاغر لربه فيسبحه فيه، ويشهده أنه وحده الأعلى سبحانه، وأن شرفه كعبد أن يكون في هذا المقام...

.. نعم، كل ذلك وغيره من هيئة الصلاة يمثل الوعاء لإظهار معاني العبودية، فإن قمنا بهذه الأفعال دون أن نملأها بتلك المعاني، فما قيمة ما فعلنا؟!

.. يقول رسول الله ﷺ: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»[(١)].

اذهب فصلِّ فإنك لم تُصلِّ:

فالعبرة بالحقائق والمعاني التي نظهرها في الصلاة، مع التأكيد على أنه لابد لنا من الالتزام بالشكل والهيئة التي طالبنا الله أن نكون عليها ونلتزم بها حين نقف بين يديه...

فلئن كانت العبرة بالمضمون وما تظهره صلاة المرء من معاني العبودية إلا أن الشكل ضروري ولا مجال فيه للاجتهاد ... فالصلاة هيئة مخصوصة بأقوال وأفعال محددة تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم.. ويُرسخ هذا المعنى قوله ﷺ للرجل الذي أساء في صلاته ولم يقم بها بالشكل الذي أمر الله به: «اذهب فصل فإنك لم تصل»...

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل، فصلى، فسلم على

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣١/ ١٨٩ برقم: ١٨٨٩٤)، وأبو داود (٢/ ٩٧ برقم: ٧٩٦)، وابن حبان (٥/ ٢١٠ برقم: ١٨٨٩)، وحسنه المنذري (١/ ٢٠٢) والألباني في أصل صفة صلاة النبي ﷺ (١/ ١٥).

النبي ﷺ، فرد وقال: «ارجع فصل، فإنك لم تصل»، فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء، فسلم على النبي ﷺ، فقال: «ارجع فصل، فإنك لم تصل» ثلاثا، فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره، فعلمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»[1].

إقامة الصلاة:

إن إقامة الصلاة تعني القيام بها شكلا ومضمونا، ومما يدعو للأسف أن غالب المسلمين لا يقصر في الشكل، لكن التقصير الشديد دائما من نصيب المضمون.

فإن قلت: وكيف نعرف ذلك؟ وهذا أمر بين المصلين وبين ربهم، لا يطلع عليه سواه.

.. نعم، الله وحده عالم السرائر، الخبير بما نعمل، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.. ومع ذلك فقد أخبرنا في كتابه العزيز بأثر الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فمن علامات النجاح في إقامة الصلاة كما يريد الله عز وجل، وكما ينبغي أن تكون: تجديد عهد العبودية الذي من بنوده: الخضوع والطاعة وعدم تعدي حدود الله، مع نصرته، والالتزام بأوامره، والابتعاد عن نواهيه... ومن ثم يخرج المرء من الصلاة أكثر تصميما وعزما على التطبيق العملي لهذه البنود، ليكون الأثر واضحا في محيطه .. ورعا وانضباطا، وابتعادا عن كل ما يغضب الله؛ لذلك عندما قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما تقول»[2].

ستنهاه صلاته حين يقوم بها كما ينبغي، فإن المرء حين يتذكر عجزه وضعفه وفقره

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٥٢ برقم: ٧٥٧)، ومسلم (١/ ٢٩٧ برقم: ٣٩٧).

(٢) رواه أحمد (١٥/ ٤٨٣ برقم: ٩٧٧٦)، والبزار (١٦/ ١٣٠ برقم: ٩٢١٧)، وابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٠٠ برقم: ٢٥٦٠)، وصححه الأرنؤوط.

وعظيم احتياجه لربه، ويظهر ذلك في الصلاة، فإن هذا من شأنه أن يجدد فيه الإيمان فيخرج من الصلاة أكثر تعلقا به سبحانه، ووثوقا فيه، وإيمانا بما عنده، وخوفا منه، واستعانة واعتصاما به، ومن ثم يظهر ذلك حتما على سلوكه وأفعاله، لتكون ترجمة حقيقية لنجاحه في أداء الصلاة...

وليس هذا فحسب، بل قبل ظهور هذا الأثر في واقع الفرد؛ هناك أثرٌ داخلي عظيم ينتج عن استحضار معاني العبودية والدخول بها على الله جل شأنه من خلال الصلاة ... هذا الأثر هو خشوع القلب وهبوطه وتصاغره لربه مما ينعكس على الجوارح بالخشوع وليس العكس، ولو تكلف المرء خشوع وتصاغر جوارحه دون قلبه لكان من أصحاب خشوع النفاق والعياذ بالله.

قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل بها على خلقي»[(١)].

لقد خُلقنا لنصلي:

أخي.. إن أمر الصلاة عظيم، ولا يخطئ من يقول بأننا خُلقنا لنُصلي.

.. نعم، خلقنا لنكون عبيدا لله عز وجل.

والعبودية تعني الذل والانكسار له سبحانه ... وما الصلاة إلا أفضل صورة للتعبير عن ذلك.

.. خُلقنا لننصر دين الله، والصلاة هي أفضل زاد وإعداد للنجاح في هذه المهمة.. لذلك نجد إبراهيم عليه السلام يناجي ربه بعد أن ذهب بزوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى صحراء مكة القاحلة قائلا:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ
عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

---

(١) رواه البزار (١١/ ١٠٥، ١٢٩ برقم: ٤٨٢٣، ٤٨٥٥).

ربنا ليقيموا الصلاة ... نعم، فهو الحنيفي، وهو الذي يدرك حقيقة وجود المرء على الأرض والمهمة المطلوبة منه، لذلك كان تعبيره متسقا مع هذه الحقيقة.. حقيقة ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.. ثم يختم مناجاته ودعاءه لربه بالتأكيد على نفس المعنى:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ
رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠ - ٤١].

.. إن غاية وجودنا هو الالتزام بحقيقة العبودية .. بهذا عاهدنا الله عز وجل في عالم الذر، .. هذا العهد تترجمه الصلاة بمعناها الحقيقي، فإن أقمناها حق إقامتها فقد عقدنا الصلة بربنا، وحافظنا على العهد الذي بيننا وبينه، وإن لم نفعل فقد نقضنا العهد..

يقول رسول الله ﷺ: «خمس صلوات افترضهن الله على عباده من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن، فأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن كان له عند الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له عند الله عهد إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»(١).

.. إن الصلاة هي عمود الإسلام، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذروة سنامه؟! فقلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»(٢).

.. نعم، أخي فالصلاة لها قدر عظيم، وينبغي أن تكون هي محور حياتنا، وأولى أولوياتنا، فلا خير في عمل يُلهي عن الصلاة: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

بل إن من أعظم أهداف تمكين المؤمنين في الأرض: إقامة الصلاة.. ﴿ٱلَّذِينَ إِن

---

(١) رواه أحمد (٣٧/ ٣٦٦ برقم: ٢٢٦٩٣)، وابن ماجه (٢/ ٤٠٨ برقم: ١٤٠١)، وأبو داود (١/ ٣١٦ برقم: ٤٢٥)، وابن حبان (٥/ ٢٣ برقم: ١٧٣٢) وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٢٨٨)، والنووي في المجموع (٣/ ١٧)، والألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ٥٧٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٦/ ٣٤٤ برقم: ٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٥/ ١١٦ برقم: ٣٩٧٣)، والترمذي (٥/ ١١ برقم: ٢٦١٦) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل (برقم: ٤١٣).

مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]

لذلك كانت الصلاة هي مفتاح الفلاح .. فحيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح.

الصلاة معراج القلوب

نحن في حياتنا نسير إلى الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦].

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٦].

.. هذا السير نقطعه بالأيام والليالي وينتهي بالموت ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢].

ولكن بنهاية هذا السير يكون هناك القريب والبعيد من ربه، ويحدد ذلك مدى التزام المرء بالعهد الأول، والحفاظ على الفطرة الحنيفية التي فطر الله الناس عليها... وكما أسلفنا فالصلاة هي أفضل تعبير والتزام بالعهد والميثاق، وذلك حين يقيمها العبد بالصورة الصحيحة .. شكلا ومضمونا... أو بمعنى آخر: فإن الصلاة هي سلم الصعود نحو السماء .. معراج القلوب نحو الله عز وجل ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، فالمعراج في اللغة هو السُّلم أو المصعد.

أرِحْنا بها يا بلال:

لعل إدراك حقيقة ما تعنيه الصلاة يفسر لنا قول رسول الله ﷺ: «يا بلال، ارحنا بالصلاة»[١]، وقوله: «وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة»[٢]، وقبل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

.. نعم أخي، فهناك سر في الصلاة حين يدركه المرء فإنه يشعر بهوان أي شيء بعده .. بهوان الدنيا وما عليها... هناك متعة وسعادة ولذة يدركها من "يقيم" الصلاة، ويعقد من خلالها الصلة بالله جل شأنه، وكيف لا وقد خُلقنا عبيدا له سبحانه، وأي تمرد على هذه الحقيقة يعني الخروج من نظام الكون، ومن صفوف سائر العابدين ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرعد: ١٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٨/ ١٧٨ برقم: ٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٧/ ٣٣٨ برقم: ٤٩٨٥)، وصححه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف، والألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٩/ ٣٠٥ برقم: ١٢٢٩٣)، والبزار (١٣/ ٢٩٦)، والنسائي (٧/ ٦١ برقم: ٣٩٣٩)، والحاكم (٢/ ١٧٤ برقم: ٢٦٧٦) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الضياء (٥/ ١١٢، ١١٣)، وابن مفلح (٢/ ٣٩٦)، وابن الملقن في البدر المنير (١/ ٥٠١)، والألباني في السلسلة الصحيحة.

وحين يعود المرء إلى حقيقة عبوديته، ويدخل إلى الصلاة بقلبه، ويظهر لربه معاني الخضوع والذلة والمسكنة فإنه بذلك يعود لمكانه وينسجم مع طبيعة خلقته، ويتناغم مع سائر المخلوقات.... فعندما يُعبر عن ضعفه وفقره وعظيم احتياجه لمن يملك خزائن كل شيء .. المحيط بكل شيء .. القادر على فعل أي شيء .. الحي القيوم الذي لا ينام .. القريب السميع البصير، ويُحسن ترجمة معاني عبوديته له، ويبث إليه شكواه، ويثني عليه، ويسأله احتياجاته، ويستشعر قربه منه، وسماعه لكلامه؛ فإنه يخرج من هذه الصلاة بسكينة وطمأنينة وشعور بالأمن، والراحة، والسعادة، والمتعة التي لا توصف... كل ذلك يتناسب قدره مع قدر تلك المعاني في القلب، ومدى اجتهاده في إظهارها والتعبير عنها.. والله أعلم.

ولأن النموذج الصحيح الكامل للعبد هو رسول الله ﷺ؛ فلا غرو أن نجد الصلاة بالنسبة إليه هي منبع السعادة وكهف الراحة والسكينة، فقد كان يقول: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[١]، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٢].

الصلاة والمناجاة:

كل امرئ له علاقات متعددة، ولكن ينبغي أن تكون أقوى علاقة وصلة في كل العلائق هي علاقته بربه، وكيف لا وهو خالقه من العدم، والقائم على تدبير أموره ورعايته وحفظه وإمداده بما يصلحه.

.. ينكشف هذا الأمر وتظهر مدى قوة هذه الصلة أو ضعفها حين يتعرض الإنسان لبعض الشدائد والمضايقات، والأقدار المؤلمة، فلو كان الله عز وجل هو الأقرب للقلوب لهرعت إليه بصورة تلقائية تسأله الإعانة والسداد، وتُشهده على ما يحدث، وتأنس بقربه منها .. أو بمعنى آخر: ينبغي أن يكون الله عز وجل عندنا أقرب من

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٩/ ٣٠٥ برقم: ١٢٢٩٣)، والبزار (١٣/ ٢٩٦)، والنسائي (٧/ ٦١ برقم: ٣٩٣٩)، والحاكم (٢/ ١٧٤ برقم: ٢٦٧٦) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(٢) روى الإمام أحمد في المسند (٣٨/ ٣٣٠ برقم: ٢٣٢٩٩) عن حذيفة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى»، ورواه أبو داود (٢/ ٤٨٥ برقم: ١٣١٩).

نادي، وأول من نتذكر في تقلبات حياتنا... ومن أفضل الوسائل لتقوية العلاقة بالله جل شأنه: كثرة مناجاته والحديث معه.

وليس المقصد من المناجاة الدعاء فقط، بل يتسع مفهومها ليشمل بث الهموم، وذكر المتاعب التي يلاقيها المرء، وسرد تفاصيل ما يحدث له، والثناء عليه، وشكره على نعمه، وإشهاده على ما يحدث له في حياته ومما يلاقيه من أذى وهو يسير في طريق الدعوة إليه.

ومن أمثلة ذلك في القرآن ما ناجى به نوح عليه السلام ربه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: ٥ - ١٢]

وزكريا عليه السلام:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٢ - ٦]

ومن السيرة: مناجاته ﷺ لربه وهو عائد من الطائف:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (١/ ٤٢٠)، ورواه الطبراني في الكبير (١٣/ ٧٣).

.. والمناجاة متاحة للعبد في كل وقت، وهي من أفضل وسائل تقوية العلاقة بينه وبين ربه، ومع ذلك فإن المناجاة في الصلاة – خاصة في السجود – لها ميزة وفضل يفوق خارجها، لأنها تتم في أفضل شكل للعبودية... قال رسول الله ﷺ: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء[1].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام، وقمنا معه، فأطال القيام، حتى ظننا أنه ليس براكع، ثم ركع، فلم يكد يرفع رأسه، ثم رفع، فلم يكد يسجد، ثم سجد، فلم يكد يرفع رأسه، ثم جلس، فلم يكد يسجد، ثم سجد، فلم يكد يرفع رأسه، ثم فعل في الركعة الثانية كما فعل في الأولى، وجعل ينفخ في الأرض، ويبكي وهو ساجد في الركعة الثانية، وجعل يقول: «رب، لم تعذبهم وأنا فيهم؟ رب، لم تعذبنا ونحن نستغفرك؟»[2].

المناجاة صبغة الصلاة:

بالصلاة تنعقد الصلة مع الله عز وجل .. صلة العبد بالرب وذلك حين يستشعر المرء معاني العبودية – كما أسلفنا –.. ولا يكفي استشعاره لهذه المعاني بل لابد أن يترجمها في صورة دعاء ومناجاة.

على العبد أن يناجي ربه بما يعبر عن هذه الحالة المشاعرية.. ومما يؤكد هذا المعنى أننا لو تأملنا فيما يقال في الصلاة لوجدنا أنها تصطبغ بصبغة ضمير المتكلم.

فالفاتحة التي يقرؤها المرء في كل ركعة يتعدد فيها هذا الضمير:

إياك نعبد، وإياك نستعين ... اهدنا الصراط المستقيم...

ولو تأملنا بقية ألفاظها لوجدنا خطابا يتوجه به العبد لربه يبدأ بالثناء عليه ثم دعاؤه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٠ برقم: ٤٨٢).

(٢) رواه أحمد في المسند (١١/ ٢١ برقم: ٦٤٨٣)، وأبو داود (٢/ ٣٩٤ برقم: ١١٩٤)، وابن خزيمة (٢/ ٣٢٢ برقم: ١٣٩٢)، وابن حبان (٧/ ٧٩ برقم: ٢٨٣٨)، وحسنه الأرنؤوط.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٢ – ٧].

وفي الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي القيام من الركوع: ربنا ولك الحمد، وفي السجود: سبحان ربي الأعلىٰ، وحين يقرأ المرء القرآن في الصلاة فإنه يستمع لربه وهو يكلمه .. فالقرآن كلام الله يخاطب به الناس فرادىٰ وجماعات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ .. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ .. ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

فصبغة الصلاة إذن هي المناجاة التي تكون بين اثنين .. أنت وربك.

وعندما يتذوق المرء حلاوة مناجاته بربه ومولاه فإنه يكون في حالة من الشوق الدائم لها، ويتحين أي فرصة يخلو فيها المكان فيناجيه، وأعظم تلك الأوقات التي تتيسر فيها تلك المناجاة ... هي الصلاة، ففيها يخلو بربه فيكلمه علىٰ الحضور، ويبث إليه أشواقه ويشهده علىٰ ما يحدث له، ويسأله من خيري الدنيا والآخرة... ولقد كان حال رسول الله ﷺ مع الصلاة يعكس قوة صلته الشديدة به سبحانه وانتظاره الصلاة بشوق وشغف ... ومن ذلك قوله ﷺ لبلال رضي الله عنه: «أرحنا بها يا بلال»[(١)].

وتحكي السيدة عائشة عن موقف عظيم يؤكد هذا المعنىٰ، قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي» قلت: «والله إني لأحب قربك وأحب ما سَرَّك» قالت: «فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت فلم يزل يبكي حتىٰ بَلَّ حجره» قالت: «ثم بكىٰ فلم يزل يبكي حتىٰ بَلَّ لحيته»، قالت: «ثم بكى فلم يزل يبكي حتىٰ بَلَّ الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي» قال: «يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟» قال: «أفلا أكون عبدا شكورا؟ لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[(٢)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٨/ ١٧٨ برقم: ٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٧/ ٣٣٨ برقم: ٤٩٨٥)، وصححه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف، والألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠)، وصححه الأرنؤوط.

وتصف رضي الله عنها قدر الصلاة عنده ﷺ فتقول: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[1].

أفضل أوقات اليوم:

الله عز وجل هو ربنا، ورب كل شيء .. رب الزمان والمكان.

ولقد اختار لنا سبحانه أوقاتا خمسة افترض علينا فيها الصلاة، وحثنا على لسان نبيه ﷺ على القيام بها في أول وقتها، معنى ذلك أن أفضل أوقات اليوم هي أوقات الصلاة..

فنحن –كما أسلفنا– قد خُلقنا لنُصلي بمفهوم الصلاة الصحيح...

وأنه سبحانه اختار لنا هذه الأوقات لنصلي فيها..

فهذا معناه أن هذه الأوقات هي أفضل أوقات اليوم، لذلك علينا ألا نتهاون في أداء الصلاة أول وقتها.

.. سئل رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟» قال: «الصلاة لوقتها»[2].

إن أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه هو قيامه بالصلوات المكتوبة شكلا ومضمونا... جاء في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه»[3].

المسجد والصلاة:

المساجد هي بيوت الله في الأرض .. أي أنها مكان السلام والأمان، والقيام بالصلاة، والاتصال به سبحانه..

ولأن جوهر الصلاة هو العمل على إظهار معاني العبودية والالتزام بالعهد معه

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٣٦ برقم: ٦٧٦).

(٢) رواه البخاري (٩/ ١٥٦ برقم: ٧٥٣٤)، ومسلم (١/ ٨٩ برقم: ٨٥).

(٣) رواه البخاري (٨/ ١٠٥ برقم: ٦٥٠٢).

سبحانه؛ فإنه من المفترض أن يكون المسجد على هيئة تساعد المسلم على التحقق بتلك المعاني.. فعلى سبيل المثال: أيهما أكثر إظهارا لمعاني الذل والانكسار لله عز وجل: السجود على التراب أو الفُرُش المتواضعة أم السجود على الفُرُش الوثيرة المزركشة الصاخبة النقوش؟

لقد قال رسول الله ﷺ ليلةً في سجوده: «أقول كما قال أخي داود عليه السلام: أُعفر وجهي في التراب لسيدي، وحُقَّ لسيدي أن تعفر الوجوه لوجهه»(١).

أخي:

أيهما أفضل وأدعى لتحصيل الخشوع وجمع القلب مع الله: أن تدخل مسجدا ليس فيه زخارف ولا زينة ولا ديكور؟ أم تدخل مسجدا تأخذ زخارفه بالأبصار؟!

لقد «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ».. بهذا أخبرنا رسول الله ﷺ(٢)، فالعديد من المساجد اليوم يطلقون عليها تحفا معمارية في الديكور، والزخرفة، والمآذن الشاهقة، و... مع أن المطلوب غير ذلك... المطلوب أن يكون المسجد عاملا مساعدا للمصلي لكي يستحضر معاني الذل والانكسار والتصاغر لربه سبحانه.

صلاة الجماعة:

ألا يكفي المرء أن يجتهد في استحضار معاني العبودية في صلاته وهو منفرد بربه؟ لماذا ينبغي عليه أن يحرص على أداء الصلوات المكتوبة في جماعة؟

هذه تساؤلات قد تخطر في أذهان البعض، ومحورها يدور حول الحكمة من صلاة الجماعة..

والإجابة بعون الله: بأن صلاة الجماعة تمثل إعلانا عاما ومظهرا لخضوع الأمة لربها...

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء (برقم: ٦٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٦٤ برقم: ٣٥٥٧).
(٢) رواه مسلم (١/ ١٣٠ برقم: ١٤٥).

وهي تضع المؤمنين في هيئة تشبه هيئة الملائكة في صلاتها﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾[الصافات: ١].

... ومن شأنها تقوية وحدة الأمة، وإشعار المسلمين بأنهم جسد واحد.. نسيج واحد .. مصير واحد.

.. وهي مظهر لوحدة الهدف.

.. وهي إعلان عام بأن قوة المسلمين تنبع من صلتهم بربهم، ومتانة أخوتهم، واتحاد كلمتهم..

.. وهي المجتمع المصغر حيث التواد والتراحم والتكافل وتفقد الأحوال والتعرف على نقاط الضعف والعمل على تقويتها.

.. وفيها تمارس العديد من معاني الإسلام كالتواضع، وخفض الجناح، وحسن الخلق، والذلة على المؤمنين، والمساواة بين الجميع....

تضييع الصلاة:

الصلاة في جوهرها وحقيقتها هي اتصال بين العبد العاجز الضعيف الفقير الجاهل الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا... بالرب القادر القوي العظيم الملك، الحي القيوم، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء...

الصلاة هي الترجمة العملية للعهد الذي أعطيناه لله عز وجل حين أشهدنا على أنفسنا وكل البشر: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فإن ترك المرء الصلاة هبط إلى الأسفل، وابتعد عن الصراط المستقيم، ونقض العهد والوعد الذي وعد به ربه..

وإن قام المرء للصلاة ليؤديها كواجب عليه الانتهاء منه دون النظر لمعانيها وجوهرها، فرفع يديه بالتكبير وهو غافل .. وقرأ وهو غافل .. وركع فسبح كما يسبحون .. وسجد كما يسجدون .. وتمتم بدعوات حفظها من كثرة سماعها... هذه الصلاة التي يمكنها أن تدخل في باب التمارين الرياضية، وسواء صلاها المرء في جماعة أو منفردا؛ فإنها لا تعقد صلة بينه وبين الله، وكأنها لم تكن، والله أعلم.

...نعم، هي عند جمهور الفقهاء تُسقط الفرض عن المُكلَّف، ولكن أين العهد

الذي بيننا وبين الله؟ والصلة التي ترفعنا إليه، وتضعنا في مضمار العبودية..؟

.. إن الصلة تنعقد – والله أعلم – حين يتلبس المرء بمعاني العبودية، وقد يحدث هذا بدرجة (ما) في الصلاة، وقد لا يحدث، لذلك قال ﷺ: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»[1]، فإن خرج من الصلاة كما دخل ... وإن لم يعش فيها بكيانه مع حقيقته كعبد ولو قدرا يسيرا .. فهل يُكتب له منها شيء؟!

إن المساجد تملأ بلاد المسلمين، والملايين يذهبون إليها... يركعون ويسجدون في أقصى صور الذل والانكسار ... ولكن هل حققت صلاتهم وركوعهم وسجودهم أهدافها، وتواصلوا من خلالها مع ربهم؟! ... للأسف الواقع يخبرنا بأن صلاتنا وصلاة جموع المسلمين لم تنههم عن فعل المنكرات، فالمخالفات التي تستدعي غضب الله تشيع في جنبات الأمة، وليس أدل من مظاهر هذا الغضب أنه سبحانه تركنا لأعدائنا يسوموننا سوء العذاب مع أنه قد وعد في كتابه بنصر المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

إن هذه الآيات المحكمة تكشف لنا حقيقتنا .. لسنا من أولئك المؤمنين الذين وعدهم الله بنصره وتأييده... لسنا من عبيده الذين يكفيهم ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

.. ومع ذلك فهناك في الأمة – من لا يعلمهم إلا الله – يقيم الصلاة ويعقد بها الصلة الحقيقية بينه وبين ربه، ولكن كم تبلغ نسبة هؤلاء إلى المجموع؟ وكما نعلم أن الله عز وجل يعامل الأمة كوحدة واحدة وجسد واحد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

(١) رواه أحمد في المسند (٣١/ ١٨٩ برقم: ١٨٨٩٤)، وأبو داود (٢/ ٩٧ برقم: ٧٩٦)، وابن حبان (٥/ ٢١٠ برقم: ١٨٨٩)، وحسنه المنذري (١/ ٢٠٢) والألباني في أصل صفة صلاة النبي ﷺ (١/ ١٥).

الطريق إلى إقامة الصلاة

إن العهد الذي بيننا وبين الله عز وجل الذي ينبغي أن تترجمه الصلاة، وتُظهره بهيئتها وحقيقتها تلخصه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فالصلاة هي الترجمة العملية لضرورة إخلاص العبادة وإخلاص الاستعانة بالله ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣] .. فأين نحن من ذلك؟

إننا حين ندخل إلى الصلاة فإنما ندخلها بشخوصنا التي تمارس الحياة وتتعامل مع الناس وتواجه تقلبات الحياة بانفعالات وأفعال قد تكون بعيدة — إلى حد ما — عن مفهوم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا يدفع إلى القول بأنه لا يمكننا إقامة الصلاة على حقيقتها ونحن لم نتطهر من كل مظاهر العبادة والاستعانة والتعلق بغير الله..

فحين نسعى لرضا الناس ونعمل من أجل ارتفاع منزلتنا عندهم؛ أليس ذلك دليلا على أننا لسنا صادقين حين نقول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؟!

وحين نزكي أنفسنا ونمدحها ونفرح بها، وننسب الفضل والنجاح إليها؛ هل نحقق ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؟!

وهل حين نعتقد في الأسباب ونتعلق بها لجلب النفع أو دفع الضر نكون صادقين حين قلنا: ﴿بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ على ربوبية الله؟!

وحين نتفاخر ونتباهى، ونعتد برأينا ونتعالى على الآخرين؛ هل يتناسب هذا مع أخلاق العبيد؟ وهل يمكننا آنذاك أن ندخل إلى الصلاة فنتحول لأناس صاغرين لله عز وجل؟!

.. وحين ننسى يوم الحساب، ونغفل عن الآخرة، ونريد الحياة الدنيا وزينتها ولهوها ومباهجها، ونحرص على تحصيلها ... هل نتوقع أن تصفو قلوبنا لله حين ندخل إلى الصلاة؟!

... لذلك لا يمكننا للأسف أن نقيم الصلاة بحقيقتها إلا بعد أن نطهر قلوبنا من

هذه العلائق الفاسدة..

إن الأصنام تملأ القلوب: صنم النفس المتضخمة .. صنم التعلق بالأسباب .. صنم التعلق بالدنيا والرغبة في العلو فيها، ولا مناص من تحطيمها حتىٰ تطهر القلوب وتصلح للدخول علىٰ الملك العظيم..

وليس معنىٰ هذا هو ترك أداء الصلاة حتىٰ يتم هذا التطهير، ولكن المقصد هو معرفة أبعاد المشكلة وأصل الداء، والاجتهاد في الشفاء منه بإذن الله علىٰ أقصىٰ ما يمكن الاجتهاد...

ضرورة التزكية:

لابد من التزكية حتىٰ يطهر القلب، وترتحل الدنيا منه، ويكون رضا الله وحده هو المقصد والمطلب والغاية ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ويكون سبحانه هو الوكيل والمستعان ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] نعتصم به ونلجأ إليه في جميع أمورنا وأحوالنا مستشعرين أنه «لا حول ولا قوة إلا بالله...».

فإقامة الصلاة — إذن — لابد أن يسبقها ويسير معها عملية التزكية، لذلك نجد القرآن العظيم في العديد من الآيات يربط بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .. فالزكاة بمفهومها الواسع هي ترجمة للتزكية والتطهير.. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

الطريق إلى إقامة الصلاة يستلزم الاستشفاء بالقرآن والانتفاع به:

ومما لا شك فيه أن من أعظم وسائل التزكية والتطهير: إنفاق المال في سبيل الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] ولكنه وحده لا يكفي لتطهير القلب من أصنامه وأمراضه..؛ لذلك لابد من العزم والتشمير علىٰ القيام بالتزكية بشمولها حتىٰ تطهر القلوب وتصلح للقرب من علام الغيوب..، وأفضل منهج وطريقة للتزكية هو ما دلنا عليه الله جل شأنه... القرآن الكريم ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

فهو خطاب مباشر من الله عز وجل للناس جميعا يعرفهم فيه بنفسه، وبِعَدُوِّه وعدوهم، وبطبيعة الاختبار في الدنيا، وبالعهد والميثاق، وبالعقبات التي تعترضهم، والأمراض التي قد تصيبهم، وكيف يتخلصون منها ... يبشرهم فيه بالجنة، وينذرهم من النار، ويبين لهم فيه قدر الدنيا وقدر الآخرة، وحقيقة نفوسهم، وخطورة السير وراء أهوائها...، وبالإضافة إلى هذا كله فهو نور يبدد الظلمات... ظلمات الشك والجهل والهوى، وروح تسري في القلوب تحييها بعد موتها.. ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن القرآن وحده المؤهل للقيام – بإذن الله – بالتزكية الشاملة الصحيحة.. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩] ومن ثم فهو أكبر معين لتطهير القلوب والاتصال بالله.. قال رسول الله ﷺ: «كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض»[(١)].

لذلك نجد آيات تربط بين القرآن وبين إقامة الصلاة والإنفاق من ناحية، وبين الرجاء في الفوز برضا الله وجنته من ناحية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

فلنقبل على القرآن الحكيم إقبالا صحيحا، ولنتعامل معه من هذا المنطلق، ولنبحث فيه عن أمراضنا وعلاجها... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

تهيئة الأجواء لإقامة الصلاة:

ومع ما سبق من طرح قد يُسهم – بإذن الله – في ارتيادنا لطريق إقامة الصلاة حق الإقامة؛ إلا أنه من الضروري التذكير ببعض الوسائل العملية التي تهيئ الأجواء للقيام بهذه العبادة العظيمة، .. نعم، هذه الوسائل لها أثر محدود إن لم يكن هناك انتفاع

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٧/ ١٧٠ برقم: ١١١٠٤)، والترمذي (٥/ ٦٦٣ برقم: ٣٧٨٨)، وقال: حسن غريب، وصححه الأرنؤوط.

حقيقي بالقرآن، وارتياد لطريق التزكية -كما أسلفنا-.

ومن ذلك:

.. إسباغ الوضوء.

.. التبكير للصلاة قدر المستطاع.

.. عدم الدخول في الصلاة مع وجود شواغل تصرف الذهن عن التركيز فيها كحضور الطعام، ومدافعة الأخبثين.

.. ومن الأدوية النبوية لتهيئة القلب للدخول للصلاة: تذكر الموت... قال رسول الله ﷺ: «اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل يذكر الموت في صلاته لحريّ أن يُحسن صلاته، وصلِّ صلاة رجل لا يظن أن يصلي صلاة غيرها»[1].

---

(١) رواه البيهقي في الزهد (برقم: ٥٢٧)، وحسنه ابن حجر كما في المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٢٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٤٢١).

فلنحذر التهاون في أمر الصلاة

شكلا ومضمونا - فرضا وسنة

الصلاة عمود الدين، وتشكل مع غيرها من العبادات المظهر العملي للإسلام، وهي الركن الثاني بعد الشهادتين.

الصلاة هي العبادة والفريضة التي لا يجوز تركها تحت أي ظرف من سفر أو مرض أو قتال.

وهي آخر وصايا الرسول ﷺ قبل وفاته: «الصلاة، الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[1].

.. الصلاة هي اتصال مباشر بين العبد وربه، ومن ثم فهي تعبير عملي عن عبّوديته له وما ينبغي أن تشمله من خضوع وتذلل واستسلام وتعظيم ومهابة: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

ولأننا لم ننزل للأرض إلا لعبادة الله عز وجل؛ ولأن الصلاة هي أهم تعبير عملي لهذه العبادة، فقد فرض سبحانه على المسلمين في البداية خمسين صلاة في اليوم والليلة، وذلك قبل التخفيف.

معنى ذلك أنه من المتوقع — لو كانت خمسين صلاة — أن نكون في يومنا وليلتنا إما في صلاة أو ننتظر صلاة، ولقد خفف الله عز وجل هذا التكليف ليصبح خمس صلوات في اليوم والليلة، بعد الطلب المتكرر من الرسول ﷺ بناء على نصيحة أخيه موسى عليه السلام.

ففي حديث الإسراء والمعراج، قال رسول الله ﷺ: «فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ»، فقال: «ما فرض ربك على أمتك؟» قلت: «خمسين صلاة»، قال: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤ برقم: ٥٨٥)، وابن ماجه (٤/ ٧ برقم: ٢٦٩٨)، وأبو داود (٧/ ٤٦٤ برقم: ٥١٥٦) عن علي رضي الله عنه، وله شاهد عن أنس وأم سلمة رضي الله عنهما، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٨٦٨).

فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم»، قال: «فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب، خفف على أمتي، فحط عني خمسا»، فرجعت إلى موسى، فقلت: «حط عني خمسا»، قال: «إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف»، قال: «فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى، وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرا، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب شيئا، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة»، قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف»، فقال رسول الله ﷺ: «فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»[(١)].

فالصلاة وإن كانت قد خُفِّفت لخمس إلا أن قدرها وجوهرها وحقيقتها لم يخفف، بمعنى أن عبوديتنا لله عز وجل ينبغي أن تستغرق علينا يومنا وليلنا، وأهم تعبير لذلك هو الصلاة، والوقت الذي لا نعبد الله فيه يعرضنا للهلاك، لتأتي الصلاة فتخفف من أثر هذا الخطر، قال رسول الله ﷺ: «تحترقون، تحترقون فإذا صليتم الفجر غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا»[(٢)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملكا ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم، قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على أنفسكم، فأطفئوها بالصلاة»[(٣)].

فهذه الأحاديث الصحيحة تدل دلالة واضحة على أهمية الصلاة وقدرها، ومما

---

(١) رواه البخاري (١/ ٧٨ برقم: ٣٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٦ برقم: ١٦٢) واللفظ له.

(٢) رواه الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في المعجم الأوسط (٢/ ٣٥٨ برقم: ٢٢٢٤) والصغير (١/ ٩١ برقم: ١٢١) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٤٤)، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٣ برقم: ٩٤٥٢)، والصغير (٢/ ٢٦٢ برقم: ١١٣٥)، وحسن إسناده الضياء المقدسي في المختارة (٧/ ١٦٢ برقم: ٢٥٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

يؤكد هذا المعنىٰ أن أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة: الصلاة.

قال رسول الله ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، يُنظر في صلاته فإن صلحت فقد أفلح، وإن فسدت خاب وخسر»(١).

إنها خير موضوع، قال رسول الله ﷺ: «الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بقبر فقال: «من صاحب هذا القبر؟» فقالوا: فلان، قال: «ركعتان أحب إلىٰ هذا من بقية دنياكم»(٣).

الصلاة لوقتها:

لقد افترض الله عز وجل علىٰ المسلمين خمس صلوات في أوقات محددة، هذه الصلوات كانت في الأصل خمسين صلاة، أي أن الصلاة الواحدة تعدل عشر صلوات، والله أعلم، فماذا علينا أن نفعل معها لنُظهر اهتمامنا وتقديرنا وتلهفنا لعبادة ربنا، وحرصنا علىٰ إطفاء نيراننا؟

المطلوب هو المحافظة والمداومة علىٰ أدائها في وقتها وأن نُحسن الاستعداد لها

---

(١) رواه الترمذي (١/ ٥٣٥ برقم: ٤١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال: حسن غريب من هذا الوجه، ورواه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٤٠ برقم: ١٨٥٩، ٤/ ١٢٧ برقم: ٣٧٨٢) عن أنس رضي الله عنه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٣٥٨)، وروى الإمام أحمد في المسند (١٣/ ٢٧٨ برقم: ٧٩٠٢)، وابن ماجه (٢/ ٤٢٥ برقم: ١٤٢٥)، وأبو داود (٢/ ١٤٨ برقم: ٨٦٤)، والنسائي (١/ ٢٣٣ برقم: ٤٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه: "إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، يقول ربنا عز وجل لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عندي أتمها أم نقصها، فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئا قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه. ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم".

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٨٤ برقم: ٢٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في تعليقه على الترغيب والترهيب (برقم: ٣٩٠).

(٣) رواه ابن صاعد في زياداته على الزهد لابن المبارك (برقم: ٣١)، وقال: حسن غريب، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٢ برقم: ٩٢٠)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٥٣ برقم ٥٦٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٣٨٨).

بإسباغ الوضوء، وأن نؤديها في المساجد للرجال، وأن نتم أركانها، ونجتهد في تفاعل القلب مع اللسان مع الخشوع فيها:

فقد سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة لوقتها»[1].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات افترضهن الله عز وجل، من أحسن وضوءهن وصلاتهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وسجودهن، وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل، فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[2].

فضل صلاة الجماعة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، بضعا وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه»[3].

الترهيب من ترك حضور الجماعة لغير عذر:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر»[4].

---

(١) رواه البخاري (١/ ١١٢ برقم: ٥٢٧)، ومسلم (١/ ٩٠ برقم: ٨٥)، وعلى وقتها: أي في أول وقتها.

(٢) رواه أحمد (٣٧/ ٣٦٦ برقم: ٢٢٦٩٣)، وابن ماجه (٢/ ٤٠٨ برقم: ١٤٠١)، وأبو داود (١/ ٣١٦ برقم: ٤٢٥)، وابن حبان (٥/ ٢٣ برقم: ١٧٣٢) وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٢٨٨)، والنووي في المجموع (٣/ ١٧)، والألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ٥٧٠).

(٣) رواه البخاري (١/ ١٠٣ برقم: ٤٧٧)، ومسلم (١/ ٤٥٩ برقم: ٦٤٩).

(٤) رواه ابن ماجه (١/ ٥٠٧ برقم: ٧٩٣)، وأبو داود (١/ ٤١٣ برقم: ٥٥١)، وابن حبان (٥/ ٤١٥ برقم: ٢٠٦٤)، وصححه النووي في المجموع (٤/ ٤٨٩)، والألباني في إرواء الغليل (عند تخريجه لحديث رقم: ٥٥١).

وعن ابن أم مكتوم ﵁ قال: قلت: «يا رسول الله، إني شيخ ضرير البصر شاسع الدار، ولي قائد لا يلائمني فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي؟» قال: «أتسمع النداء؟» قال: «نعم»، قال: «ما أجد لك رخصة»[(١)].

عفوك يا رب:

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم، ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها» يعني صلاة العشاء[(٢)].

وعن ابن مسعود ﵁ قال: «من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفع بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنا إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»[(٣)].

وعن ابن عباس ﵄ قال: «من سمع "حي على الفلاح" فلم يجب فقد ترك سنة محمد ﷺ»[(٤)].

الترغيب في حضور صلاة العشاء والصبح خاصة في جماعة، والترهيب من التأخر عنهما:

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٤/ ٢٤٣ برقم: ١٥٤٩٠)، واللفظ له، ومسلم (١/ ٤٥٢ برقم: ٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٣١ برقم: ٦٤٤) ومسلم (١/ ٤٥١ برقم: ٦٥١) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (١/ ٤٥٣ برقم: ٦٥٤).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٨/ ٧٠ برقم: ٧٩٩٠)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٧٠).

إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا»[1].

والتهجير: التبكير.

وعن أُبيّ بن كعب ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فقال: «أشَهِد فلان؟» قالوا: لا، قال: «أشهد فلان؟» قالوا: لا، قال: «إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبوا على الركب»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»[3].

وعن سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله»[4].

وعن ابن عمر ﷺ قال: «كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظن»[5].

وفقد عمر بن الخطاب سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح، وأن عمر غدا إلى السوق ومسكن سليمان بين المسجد والسوق، فمر على الشفاء أم سليمان فقال لها: «لم أر سليمان في الصبح!» فقالت: «إنه بات يصلي، فغلبته عيناه!» قال عمر: «لأن أشهد صلاة الصبح في جماعة أحب إلي من أقوم ليلة»[6].

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٢٦ برقم: ٦١٥)، ومسلم (١/ ٣٢٥ برقم: ٤٣٧).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٥/ ١٨٨ برقم: ٢١٢٦٥)، وأبو داود (١/ ٤١٥ برقم: ٥٥٤)، والنسائي (٢/ ١٠٤ برقم: ٨٤٣)، وابن خزيمة (٢/ ٣٦٦)، وابن حبان (٥/ ٤٠٥ برقم: ٢٠٥٦)، والحاكم (١/ ٣٧٥ برقم: ٩٠٤) وصححه ابن السكن والعقيلي كما في التلخيص الحبير (٤/ ٢٨٤) لابن حجر، والألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١٠٦٦).

(٣) رواه مسلم (١/ ٤٥٤ برقم: ٦٥٦).

(٤) رواه مسلم (١/ ٤٥٤ برقم: ٦٥٧) من غير لفظ الجماعة، ورواه بهذا اللفظ أبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم (٢/ ٢٥٢ برقم ١٤٦٧).

(٥) رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢٩٢ برقم: ٣٣٥٣)، وابن حبان (٥/ ٤٥٥ برقم: ٢٠٩٩).

(٦) رواه مالك في الموطأ (١/ ١٣١).

صلاة المرأة في بيتها أفضل:

كل هذه الأحاديث في أهمية وضرورة الصلاة في المسجد تخاطب الرجال، أما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن، لأن أمر المرأة مبني على الصون والستر للحفاظ عليها وعلى غيرها.

عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي رضي الله عنها: أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك؟ قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي»، فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء في بيتها، وأظلمه، وكانت تصلي فيه، حتى لقيت الله عز وجل[١].

وليس معنى هذا النهي عن صلاتها في المسجد، ولكن المقصود هو الأفضلية لها وللمجتمع، والله أعلم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن»[٢].

ولقد علل رسول الله ﷺ ترغيبهن بالصلاة في بيوتهن حين قال: «المرأة عورة، وإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها[٣] الشيطان، وإنها لا تكون أقرب إلى الله منها في قعر بيتها»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٤٥/ ٣٧ برقم: ٢٧٠٩٠) وابن حبان (٥/ ٥٩٥ برقم: ٢٢١٧)، وحسنه ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٤٩)، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) رواه أحمد (٩/ ٣٣٧ برقم: ٥٤٦٨)، واللفظ له، والبخاري (٢/ ٦ برقم ٩٠٠)، ومسلم (١/ ٣٢٧ برقم: ٤٤٢).

(٣) يستشرفها: أي تطلع إليها وطمع في إغوائها، وقيل معناه: ينتصب ويرفع بصره إليها، ويهم بها، لأنها قد تعاطت سببا من أسباب تسلطه عليها، وهو خروجها من بيتها. انظر صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢١٠).

(٤) رواه الترمذي مختصرا (٣/ ٤٨٦ برقم: ١١٧٣) وقال حسن صحيح غريب، والبزار (٥/ ٤٢٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٩٣ برقم ١٦٨٥)، وابن حبان (١٢/ ٤١٢ برقم: ٥٥٩٨)، والطبراني (١٠/ ١٠٨) وصححه الألباني في إرواء الغليل (برقم: ٢٧٣)، والسلسلة الصحيحة (برقم: ٢٦٨٨).

ويقول عبد الله بن مسعود: «النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه، وإن المرأة لتلبس ثيابها، فيقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضا، أو أشهد جنازة، أو أصلي في مسجد، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها»(١).

الشكل والمضمون:

وليست إقامة الصلاة –كما قيل سابقا– بإقامة أركانها وإتمام ركوعها وسجودها فقط من الناحية الشكلية، بل لابد من أن يعقل المرء ما يقوله فيها، ويتفاعل معه بالخضوع والخشوع، وعلى قدر ذلك يكون قدر صلاته عند الله سبحانه وتعالى... عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشر صلاته، تُسعها، ثُمنها، سُبعها، سُدسها، خُمسها، رُبعها، ثُلثها، نِصفها»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فلما سلم نادى رجلا كان في آخر الصفوف، فقال: «يا فلان، ألا تحسن صلاتك؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي؟ فإنما يصلي لنفسه، إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي»(٣).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقوم في صلاته، فيعلم ما يقول إلا انفتل وهو كيوم ولدته أمه»(٤).

وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن التلفت في الصلاة، فقال: «اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»(٥).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٥)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٤٢).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣١/ ١٨٩ برقم: ١٨٨٩٤)، وأبو داود (٢/ ٩٧ برقم: ٧٩٦)، وابن حبان (٥/ ٢١٠ برقم: ١٨٨٩)، وحسنه المنذري (١/ ٢٠٢) والألباني في أصل صفة صلاة النبي ﷺ (١/ ١٥).

(٣) رواه مسلم (١/ ٣١٩ برقم: ٤٢٣).

(٤) رواه مسلم (١/ ٢٠٩ برقم: ٢٣٤)، والحاكم (٢/ ٤٣٣ برقم: ٣٥٠٨) واللفظ له وقال: صحيح، ووافقه الذهبي، لفظ مسلم وغيره: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة»

(٥) رواه البخاري (١/ ١٥٠ برقم: ٧٥١).

أهمية صلاة التطوع:

كما أسلفنا فالصلاة هي أهم مظهر عملي لعبوديتنا لله عز وجل، ولقد كانت الصلاة المفروضة في البداية خمسين صلاة، وخففت لخمس... هذا التخفيف يستدعي من العبد تشميرا واجتهادا في التطوع بالسنن قدر المستطاع، حتى يجبر أي نقص في صلاة الفريضة التي أداها.

عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضته قال الله تعالى: انظروا هل لعبدي من تطوع يكمل به ما انتقص من الفريضة؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك»[1].

ومن فوائد صلاة التطوع أنها تديم اتصال العبد بربه من خلال تلك الهيئة — هيئة الصلاة — وما فيها من خضوع واستسلام مما يضعه في طريق استجلاب حب الله له كما وعد سبحانه بذلك.

جاء في الحديث القدسي: «... وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[2].

والتطوع بالصلاة لله بوجه عام مندوب، وهناك سننٌ مؤكدة وقيامُ الليل، وغير ذلك من صلاة التطوع على المرء أن يحافظ عليها، ويرجو فضلها ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٣/ ٢٧٨ برقم: ٧٩٠٢)، وابن ماجه (٢/ ٤٢٥ برقم: ١٤٢٥)، وأبو داود (٢/ ١٤٨ برقم: ٨٦٤)، والنسائي (١/ ٢٣٣ برقم: ٤٦٦) وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه البخاري (٨/ ١٠٥ برقم: ٦٥٠٢).

أسأل الله عز وجل أن يجعلني وإياك – أخي القارئ – وذريتنا ممن يقيمون الصلاة حق إقامتها، وأن يغفر لنا ويرحمنا، ويعيننا على الوفاء بعهدنا.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾

[سورة إبراهيم: ٤٠ – ٤١].

الفصل الرابع

الفِكر والذِّكر

الفصل الرابع
الفكر والذكر

يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فيضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ ذكر الله»[١].

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، كمثل الحي والميت»[٢].

دُور الجنة تُبنى بالذكر:

قال رسول الله ﷺ: «لقد لقيت ليلة أُسري بي إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: «يا محمد، أقرِئْ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٣].

«فدور الجنة تُبنى بالذكر، فإن أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء، فإذا أخذ في الذكر أخذوا في البناء»[٤].

بالذكر تحيا القلوب:

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل»[٥].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٦/ ٣٣ برقم: ٢١٧٠٢)، والترمذي (٥/ ٤٥٩ برقم: ٣٣٧٧)، والحاكم (١/ ٦٧٣ برقم: ١٨٢٥)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٤٥)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه البخاري (٨/ ٨٦ برقم: ٦٤٠٧).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٥١٠ برقم: ٣٤٦٢)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٠٥).

(٤) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ١٦١).

(٥) شعب الإيمان (٢/ ٦٣ برقم: ٥٢٠).

وينقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية قوله: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء»(١).

وهو الحصن الحصين من الشيطان الرجيم:

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات، أن يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، ... وفيه: ... وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى إلى حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحرزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»(٢).

يقول أبو حامد الغزالي: «فإن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها؟ فاعلم أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى كما قال النبي ﷺ: «واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاه»(٣)».

ويقول ابن القيم: «وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، إنما هو القول التام، كقوله ﷺ: «من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»(٤).

وليس هذا مرتباً على قول اللسان فقط... نعم من قالها بلسانه، غافلاً عن معناها، معرضاً عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجياً من

---

(١) الوابل الصيب (ص:٨٥).

(٢) جزء من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، رواه أحمد (٢٨/ ٤٠٤ برقم: ١٧١٧٠)، والترمذي (٥/ ١٤٨ برقم: ٢٨٦٣) وقال: حسن صحيح، وابن خزيمة (٣/ ١٩٥ برقم: ١٨٩٥)، وابن حبان (١٤/ ١٢٤ برقم: ٦٢٣٣)، وصححه الأرنؤوط.

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٣٠١)، والحديث رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه (٥/ ٥١٧ برقم: ٣٤٧٩) وقال: حسن غريب، ورواه أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (١١/ ٢٣٥ برقم: ٦٦٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٥٩٤).

(٤) رواه البخاري (٨/ ٨٦ برقم: ٦٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٧١ برقم: ٢٦٩١).

ذلك ثوابها، حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل ما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض»[1].

كيف نحيي قلوبنا بالذكر؟

فإن كان الذكر على مثل هذه الدرجة من الأهمية، فكيف نستفيد منه في إيقاظ الإيمان وعودة الحياة إلى القلب؟!

أو بعبارة أخرى: كيف نذكر الله ذكراً صحيحاً نافعاً؟!

يقول ابن القيم: «فالذكر إما أن يكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة.

فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياة، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، وَيَزَعُ عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا من هذه الآثار، وإن أثمر شيئاً منها، فثمرة ضعيفة»[2].

إن مواطأة القلب للسان في الذكر أمر شاق على أمثالنا، فما منا من أحد إلا ويشكو عدم القدرة على ذلك والله أعلم.

وهذا الأمر ليس بأيدينا، لأن الذكر يكشف حجم الإيمان في القلب، فمهما حاولنا تكلف الخشوع وحضور القلب معه إلا أننا بعد فترة قصيرة نكتشف أن اللسان في واد والقلب في واد آخر.

فالذكر يخرج ما في القلب من معاني العبودية لله، وبقدرها تكون المواطأة بين

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٨٨).

(٢) الوابل الصيب (ص: ١٨١).

القلب واللسان والله أعلم، فكما يقول ابن القيم: القلوب كالقدور، والألسنة مغارفها.

فالبداية إذن تكون بغرس هذه المعاني في القلوب من خوف، وهيبة، وتعظيم، ورجاء، ومحبة، وإنابة، وخضوع، وفقر، وانكسار لله عز وجل.

والطريق إلى زيادة هذه المعارف في القلوب يبدأ بكثرة التفكر... التفكر في القرآن وما فيه من آيات مقروءة، والتفكر في الكون وما فيه من آيات منظورة.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

ففي هذه الآيات المباركات يحثنا الله عز وجل على النظر في ملكوت السموات والأرض والتفكر في عظيم خلقه، هذا التفكر عندما يقترن بالذكر فإنه يُحدث في القلب مزيداً من الخشية والإنابة ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

إنها آيات عظيمة ترسم بوضوح الحال الصحيح للمؤمن من دوام الفكر والذكر، فلا ينبغي أن نفصل كل منهما عن الآخر، ولقد أمرنا رسولنا ﷺ بتدبر هذه الآيات جيداً والعمل بها، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي» قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟، قال: «أفلا أكون عبدا شكورا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾»[1].

يقول القرطبي: «قال العلماء: يستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر آيات اقتداءً بالنبي ﷺ ثم يصلي ما كُتب له، فيجمع

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠)، وصححه الأرنؤوط.

بين التفكر والعمل، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بات عند خالته ميمونة، وفيه: «... فقام رسول الله ﷺ فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران، وقام إلى شَن معلق فتوضأ وضوءاً خفيفاً ثم صلى ثلاث عشرة ركعة...»[1].

فانظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكر في المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده»[2].

أهمية ربط الذكر بالفكر:

فكما أن الذكر حياة القلوب وماؤها فإن التفكر يورث اليقين، سُئل أبو الدرداء: أفترى التفكر عملاً من الأعمال؟ قال: «نعم هو اليقين»[3].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[4].

ولكي تتم الاستفادة المرجوة من هاتين العبادتين لابد من الجمع بينهما.

يقول ابن القيم: «والتفكر والتذكر منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم»[5].

ويقول الحسن البصري: «إن أهل العقل مازالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا القلوب فنطقت بالحكمة»[6].

فالبداية تكون بالتفكر ثم يتبع بالذكر المناسب له، فلو تفكر الإنسان في ذنوبه

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٧ برقم: ١٨٣)، ومسلم (١/ ٥٢٦ برقم: ٧٦٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ١٩٧ – ٢٠٠).

(٣) عزاه القرطبي في التفسير (٤/ ٣١٤) لابن القاسم عن مالك.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (برقم: ٩٤٩).

(٥) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢٣٧).

(٦) حلية الأولياء (١٠/ ١٩).

وتقصيره في جنب الله، وتذكر ذلك جيداً، ثم أتبع ذلك بالاستغفار، فسيكون لهذا الاستغفار حرارة وتفاعل وشأن آخر غير الذي يشعر به عندما يبدأ فيه دون أن يلازمه مثل هذا التفكر.

والسر في ذلك هو تجاوب القلب مع اللسان لاستشعاره حاجته إلى عفو الله ومغفرته، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ونلمح ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: ١ – ٥]، فهنا الأمر بالتسبيح مقترن بذكر قدرة الله في خلقه.

ومثل ذلك ما جاء في سورة الواقعة، فبعد أن توالت الآيات التي تتحدث عن قدرة الله المطلقة والتي من شأنها أن تجعل المتفكر فيها يستشعر عظمته سبحانه وقيّوميته... بعد ذلك طالبتنا الآيات بالتسبيح: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧١ – ٧٤].

وأيضا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾ [الزخرف: ١٢ – ١٣].

فأرشدنا الله عز وجل إلى ضرورة ذكر النعمة والتفكر فيها أولا ثم النطق بالتسبيح ثانيا.. والله أعلم.

إن هذا التسبيح – بلا شك – سيكون تسبيحاً مختلفاً عن ذلك الذي نردده بألسنتنا، وقلوبنا تَسْبح في بحر الدنيا.

تأهيل القلب للذكر والفكر:

فإذا ما تبين لنا أهمية ربط الذكر بالفكر ليحدث التجاوب بين القلب واللسان بإذن الله، يبقى الحديث حول المجالات التي يكون فيها التفكر.

ونحن هنا لا نأتي بجديد، فالقرآن تحدث عن هذه المجالات كثيراً، وطالبنا مرات ومرات بالقيام بها لأهميتها في ترسيخ معاني العبودية في القلب وبلوغ درجة اليقين.

هذه المجالات سيكون لها – بمشيئة الله – أثر عظيم في قلوبنا إذا ما أفردنا لها أوقاتاً كافية، ومجالس خاصة، شريطة تأهيل القلوب وحسن استعدادها لاستقبال آثار التفكر في تلك المجالات.

وهناك أعمال من شأنها أن تساعد على تأهل القلوب .. منها:

– الخوف من الله عز وجل:

يقول تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦ – ٨].

– تدبر القرآن:

فهو من أهم أسباب تأهيل القلب وإعادته لصحته وحياته، وهو يجمع بين الذكر والفكر، ويرشد صاحبه إلى مجالات النظر والاعتبار في صفحة الكون المشهود.

– حياة القلب ويقظته:

فبمقدار النور الذي يحمله القلب تكون قوة بصيرته واعتباره بالآيات، يقول تعالى ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

- **حضور العقل:**

فمع كل ما سبق يبقى حضور العقل وعدم انشغاله بأمور أخرى وقت العبادة من أهم عوامل حدوث الأثر المطلوب لها.

يقول ابن القيم: «وقد بين الله سبيل حصول المعرفة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فالله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة:

- أحدها: أن يكون له قلب حي واع فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.
- الثاني: أن يصغي بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب، فإن لم يفعل لن ينتفع بكلامه.
- الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم به، وهو "الشهيد" أي الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر، لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن البصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحدَّق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك، فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه ولكن قلبه في موضع آخر: لم يدركه، فكثيراً ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغولاً بغيره فلا تشعر بمروره، فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء»[١].

... فهذه الأمور الأربعة من لوازم تأهيل القلب قبل دخوله في مجالات الفكر والذكر، ولعل القارئ يلحظ تأخر ترتيب هذه الوسيلة إلى المرتبة الرابعة كي يكون القلب قد أحسن الاستعداد للتعامل معها بإذن الله..

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٥٦٨).

مجالات التفكر

المجال الأول: التفكر في خلق الله:

يقول أبو حامد الغزالي: «إن الطريق إلى معرفة الله سبحانه: التعظيم له في مخلوقاته، والتفكر في عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، فيكون ذلك هو السبب في رسوخ اليقين.

ولقد خلق الله تعالى العقول وكمَّل هداها بالوحي، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته، لقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات، التي يفهمها كل ذي عقل سليم، والترقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه، التي هي سبب السعادة والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة»[1].

يقول تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١] والأمثلة على إبداع الله في مخلوقاته ليس لها نهاية، ولقد ندبنا سبحانه وتعالى إلى التفكر فيها، لنصل من خلالها إلى معرفته واليقين به.

فمن ذلك خلق الإنسان:

يقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

ويقول تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

---

(١) الحكمة في مخلوقات الله لأبي حامد الغزالي (ص: ١٣، ١٤) بتصرف يسير.

يقول ابن القيم: «وهذا كثير في القرآن، يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه؛ وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خالقها عن كفره، قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ – ٢٢]، فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا، لنسمع ذكر النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب، وإليه جرى ذلك الحديث: فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، ولو مرت بها ساعة من الزمن فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة القياد على ضيق طريقها، واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع – سبحانه – بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قيدهما بسلسلة الشهوة والمحبة، إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما في أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد جُعل لهما قراراً مكيناً، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشرقة علقة حمراء تضرب إلى السواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها وهيئتها وقدرها وملمسها ولونها.

وانظر إلى كيف قسم كل الأجزاء المتشابه المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رابط وأشده وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحماً ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحفظاً، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به، وكيف صورها وأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤوس الأصابع، ثم قسمها بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب، والمعدة، والكبد، والطحال، والرئة، والرحم، والمثانة، والأمعاء، كل واحد منها له

قدر يخصه ونفعه تخصه.

... وشق سبحانه الفم في أحسن موضع وأليقه به، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه، فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه، وجعله ترجمان لملك الأعضاء مبيناً مؤدياً عنه، كما جعل الأذن رسولاً مؤدياً مبلغاً عنه، فهي رسوله وبريده الذي يؤدىٰ به الأخبار، واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد.

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هي جمال له وزينة، وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها أرحاء للطحن، وبعضها آلة للقطع، فأحكم أصولها وحدود رؤوسها، وبيض لونها، ورتب صفوفها، متساوية الرؤوس، متناسقة الترتيب، كأنها الدر المنظوم بياضاً وصفاء وحسناً.

وأحاط سبحانه علىٰ ذلك حائطين، وأودعهما من المنافع ومن الحكم ما أودعهما وهما الشفتان، فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما، وهيأهما، وجعلهما غطاء للفم وطبقاً له، وجعلهما إتمام لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصىٰ الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطاً، ولذلك كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة.

واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحماً صرفاً، لا عظم فيه ولا عصب؛ ليتمكن بهما من مص الشراب، ويسهل عليه فتحهما وطبقهما.

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال، في الضيق والسعة، والخشونة والملاسة، والصلابة واللين، والطول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادراً.

وكذلك خلقه سبحانه لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه، ورأس ماله ومعيشته، فطولهما بحيث تصلان إلىٰ ما شاء من بدنه، وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل والإبهام باثنين، ووضع الأصابع الأربع في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام علىٰ الجميع، فجاءت علىٰ أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولون

والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعاً آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيل، صنع الرب الحكيم، وتقدير العزيز العليم، في قطرة من ماء مهين، فويل للمكذبين وبعداً للجاحدين.

ومن عجائب خلقه ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد، كالقلب، والكبد، والطحال، والرئة، والأمعاء، والمثانة، وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة، والقوى المتعددة المختلفة المنافع.

والمقصود، التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة في خلق الإنسان، والأمر أضعاف ما يخطر بالبال أو يجري فيه المقال.

وينتقل ابن القيم إلى خلق السماوات فيقول رحمه الله:

فمن هذا صنعه في قطرة ماء، فكيف صنعه في ملكوت السماوات وعلوها وسعتها واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟ فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقا، وأتقن صنعاً، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات: ٢٧ – ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فبدأ بذكر خلق السماوات وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن، فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السماء – بالإضافة إلى السماوات – قطرة في بحر، ولهذا قلَّ أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخباراً عن عظمتها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على

ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

فأرجع البصر إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها، وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها، بل تجري في منازل قد رتُبت لها بحساب مقدار لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها.

ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة، ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه، ولولا طلوعها وغروبها لما عُرف الليل والنهار ولا المواقيت، ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء، ولم يتميز وقت المعاش عن وقت السبات والراحة.

وانظر إلى القمر وعجائب آياته! كيف يُبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، فتميزت به الأشهر والسنون، وقام به حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر التي لا يُحصيها إلا الله.

ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض...

فإنك إن تأملت هذا السحاب الكثيف المظلم كيف يجتمع في جو صاف لا كدور فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء، وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض، إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعاً بالقطرات، كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء على الأرض رشاً، ويرسله قطرات مفصلة، لا تختلط قطرة منها بأخرى، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمتزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رُسم لها فلا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة

قطرة، قد عُينت كل قطرة لجزء من الأرض لا تتعداه إلىٰ غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم علىٰ أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه.

فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقاً للعباد والدواب والطير والذر والنمل، يسوقه رزقاً للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني، فيصل إليه علىٰ شدة الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا.

ثم يقول ابن القيم: ولو أردنا أن نستوعب ما في آيات الله المشهودة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف: لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنىٰ عُشر مِعشار ذلك، ولكن ما لا يُدرك جميعه لا ينبغي تركه ألبتة والتنبيه علىٰ بعض ما يُستدل به علىٰ ذلك(1).

فهذه أمثله للتفكر في خلق الله، علينا أن نحذو حذوها في سائر ما يحيط بها من آيات. فنتفكر في الليل والنهار، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وفي الدواب بأنواعها ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

وفي الجبال والبحار والأنهار والنبات والهواء وسائر المخلوقات، ونقرن ذلك بالأذكار المناسبة من تسبيح وتهليل(2).

***

المجال الثاني من مجالات التفكر:

المجال الثاني: التفكر في آثار أسماء الله الحسنى:

إن كثرة التفكر في آثار أسماء الله الحسنىٰ في النفس والكون يؤدي إلىٰ معرفته واليقين به سبحانه.. يقول تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٥- ٤٦) بتصرف واختصار.

(٢) توجد مؤلفات تجمع بعضاً من الحكم في مخلوقات الله مثل كتاب أبو حامد الغزالي: الحكمة في مخلوقات الله، وكتاب ابن القيم: مفتاح دار السعادة، كما توجد بعض المؤلفات الحديثة والمواد المرئية مثل أفلام الإعجاز العلمي في القرآن وغيرها.

﴿ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الروم: ٥٠].

فلقد سخر الله لنا ما في السماوات وما في الأرض، وخلق الكون كله بما فيه من مخلوقات لا تعد ولا تُحصىٰ ليیسر لنا الحياة علىٰ الأرض فنتفرغ لعبادته... هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن هذا الكم من المخلوقات له دور مهم في زيادة معرفة العباد بربهم، فهي شواهد وآثار لأسمائه وصفاته.

ولله في كل تحريكة	وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل علىٰ أنه الواحد

فليست الحكمة في خلق الشمس - مثلاً - إمدادنا بالضياء والطاقة فحسب، بل لنتفكر فيها كآية عظيمة من آيات الله، وكيف أظهر وجودها العديد من أسماء الله وصفاته... نرىٰ فيها آثار الإبداع والحياة والقيومية والرحمة والقهر و...

يقول ابن القيم: «وإذا اعتبرت بالمخلوقات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة علىٰ الصفات، وحقائق الأسماء الحسنىٰ... ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

فالمخلوقات كلها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه، فهي كلها تشير إلىٰ الأسماء الحسنىٰ وحقائقها، وتنادي عليها، وتدل عليها، وتخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها	من الملك الأعلىٰ إليك رسائل
وقد خُط فيها لو تأملت خطها	ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها	فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلست ترىٰ شيئاً أدل علىٰ شيء من دلالة المخلوقات علىٰ صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فهي تدل عقلاً

وحساً، وفطرة ونظراً واعتباراً.

... والتفكر يساعد على هذا الإدراك، ولذلك كان من صفات المؤمنين أنهم يتفكرون في الآيات، فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه...

وبذلك وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب، ونور البصيرة، يدل على إثبات صفات الكمال، ونعوت الجلال»[(١)].

فلابد – إذن – من دوام النظر والتأمل في آياته سبحانه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

فكثرة التفكر في ملكوت السماوات والأرض تقودنا إلى اليقين بأنه – سبحانه – ما خلق هذا الكم الهائل من الآيات بلا هدف أو غاية.

فكل مخلوق من مخلوقات الله يمثل شهادة على وحدانيته، ويتجلى فيه بعض آثار صفاته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويالها من خسارة تلك التي نخسرها ونحن نمر على آيات الله دون أن نتدبرها ونستخدم شهادتها في زيادة معرفتنا به سبحانه.

ويا لها من حسرة تلك التي يشعر بها الغافل المعرض عن هذه الآيات عندما ينكشف عنه غطاء الغفلة ويرى الحقيقة عند الموت ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٦٢٥، ٦٢٦).

وسيدرك حجم الظلم الذي أوقعه على آيات الله بإعراضه عنها وعدم اعتباره بها.

يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فلنبادر قبل فوات الأوان ولنكثر من التفكر في آيات الله، ولنعمل على استخراج آثار صفاته فيها.

يقول ابن القيم: «فالمخلوق يدل على وجود خالقه... على حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيئته... وما فيه من الإتقان والإحكام ووقوعه على أكمل وجه: يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدل على رحمة خالقه وإحسانه وجوده.

وآثار الكمال: تدل على أن خالقه أكمل منه، فمعطي الكمال أحق بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق: أحق أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة أحق أن يكون هو كذلك في نفسه، فما من المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدل شيء على إدارة الرب سبحانه، ومشيئته وحكمته، والتي اقتضت التخصيص... وحصول الإجابة عقيب سؤال الطالب على الوجه المطلوب دليل على علم الرب تعالى بالجزيئات، وعلى سمعه لسؤال عبيده، وعلى قدرته على قضاء حوائجهم، وعلى رأفته ورحمته بهم، والإحسان إلى المطيعين والتقرب إليهم، والإكرام، وإعلاء درجاتهم يدل على محبته ورضاه.

فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل، ولهذا دعا سبحانه عباده في كتابه إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته المشهودة، والقرآن مملوء بذلك، فيظهر لمشاهد اسم "الخالق" من نفس المخلوق، واسم "الرازق" من وجود الرزق والمرزوق، وشاهد اسم "الرحيم" من شهود الرحمة المبثوثة في العالم، واسم "المعطي" من وجوه العطاء الذي هو مدرار لا ينقطع لحظه واحدة، واسم "الحليم" من حلمه على العصاة والجناة وعدم معاجلتهم، وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد في خلقه وأمره، يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله، فالخلق

والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته»[1].

ومفتاح التفكر الآمن في آثار الأسماء الحسنىٰ هو القرآن، وتأتي السنه المطهرة بعده شارحة له مبينة لما أُجمل فيه.

يقول الدكتور عمر الأشقر: «إن الطريق الآمن الذي يقودنا إلىٰ معرفه الباري جلَّ وعلا هو طريق الوحي الذي جلَّىٰ لنا هذا العلم أعظم تجلية، وهذا السبيل سبيل نيِّرٌ مأمونُ العواقب لأن مصدره العليم الخبير ورسوله الكريم، ولا يوجد أحد أعلم بالله من الله، كما لا يوجد في خلق الله أحد أعلم بالله من رسول الله ﷺ»[2].

وهناك طريقتان يمكننا اتباعهما ليسهل علينا التفكير في هذا المجال:

- الأولىٰ: التفكر في آثار صفة من الصفات في أكثر من آية مشهودة.
- الثانية: التفكر في آثار الأسماء والصفات التي تجتمع في آية واحدة.

والقرآن مملوء بالآيات التي تشير إلىٰ الطريقتين.

فللنظر إلىٰ الآيات والاستدلال من خلالها علىٰ صفة من الصفات الإلهية أمثلة كثيرة ... منها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

فالآية تشير إلىٰ مظاهر متعددة لصفة القدرة.

.. يقول تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فهنا آثار عديدة لصفة العلم.

.. ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٦٢٤).

(٢) أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنه والجماعة (ص: ١٥).

مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

فهذه الآية تحمل العديد من آثار صفة الخلق ..

.. أما الطريقة الثانية والتي نتعرف من خلال التفكر فيها على آثار الأسماء والصفات التي تجتمع في آية واحدة من آيات الله المنظورة فالأمثلة عليها:

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: ٢٤ – ٣٢].

فهنا علينا أن ننظر إلى الطعام الذي نأكله ونتفكر في آثار أسماء الله وصفاته التي من خلال وجودها تيسر لنا هذا الطعام، فنرى فيه آثار لأسماء: الحي، القيوم، الخالق، الرحيم، المحيط، القدير، البديع، اللطيف..

.. ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [النحل: ١٠ – ١١].

فالآية هنا تدفعنا للتفكير في الماء وما يدل عليه من آثار أسماء الله وصفاته.

.. ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

فاللبن آية عظيمة أظهرت العديد من أسماء الله الحسنى علينا أن نتفكر فيها ونستخرج منها ما تدل عليه من الأسماء والصفات..

وكذلك العسل...

يقول تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ [النحل: ٦٨ – ٦٩].

ومن خلال التفكر بهاتين الطريقتين يمكننا أن نستخرج بعض آثار أسمائه الحسنىٰ في مخلوقاته، فننظر في آية من الآيات كالماء أو الهواء أو الطعام أو الشجر أو الرياح أو... ونحصي أسماء الله وصفاته التي أظهرتها تلك الآية.

وكذلك نتفكر في صفة من الصفات وآثارها في الكون، فعلىٰ سبيل المثال: لو تفكرنا في صفة القهر لوجدنا من آثارها: النوم والمرض والموت... وهكذا.

ضوابط لابد منها:

ومع التفكر في هذا المجال علينا أن نستصحب دوما ما جاء في القرآن أنه سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال السعدي في تفسيره: «﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس يشبهه ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنىٰ، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالىٰ أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه»[1].

ومن الضوابط المهمة أيضاً في هذا المجال ترك التفكر في حقيقة الذات الإلهية، وقد نهىٰ الرسول ﷺ عن التفكر في ذات الله، وأمر بالتفكر في خلق الله، ففي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله»[2].

ولقد بين رسول الله ﷺ طريقة دفع وساوس الشيطان في هذا الباب، قال ﷺ: «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟ فيقول: الله،

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٥٤)، ويُفضل الاطلاع على كتاب من الكتب التي صنفها العلماء في هذا الباب، ومنها كتاب " شرح العقيدة الطحاوية " لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، وكتاب " أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة" وكتاب "العقيدة في الله" لعمر الأشقر، وكذلك "رسالة العقائد" لحسن البنا.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٧/ ٢٢١٩ برقم: ١٢١١١)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٥٠ برقم: ٦٣١٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٧٨٨).

فيقول: من خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله ورسله»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتىٰ يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله ولينته»[2].

فهذا الحديث يشير إلىٰ وسيلة مهمة لدفع تلك الوساوس بالاستعاذة بالله من الشيطان، وصرف الذهن عن الاستطراد في تلك الخواطر، والانشغال بأمر آخر.

ومن وسائل دفعها أيضاً ما جاء في الحديث: «يوشك الناس يتساءلون، حتىٰ يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ من الشيطان»[3].

أخي.. إن الشيطان لا يريد الخير لأحد منا فعلينا مراغمته ومحاربته بالأسلحة التي دلنا عليها الله عز وجل، وأرشدنا إليها رسوله ﷺ.

.. فائدة عظيمة:

وقبل نهاية الحديث عن هذا المجال ننقل كلاماً للإمام ابن القيم ينبهنا فيه علىٰ أهمية التفكر في آثار الأسماء والصفات، فيقول رحمه الله: فالسير إلىٰ الله عن طريق الأسماء والصفات شأنه عجب، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق علىٰ فراشه غير تعب ولا مكدود، ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وليس العجب من سائر في ليله ونهاره وهو في الثرىٰ لم يبرح مكانه، إنما العجب من ساكن لا يُرىٰ عليه أثر السفر وقد قطع المراحل والمفاوز...

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٢٠ برقم: ١٣٤).

(٢)رواه مسلم (١/ ١٢٠ برقم: ١٣٤).

(٣) رواه البخاري عن أنس بن مالك ﷺ (٩/ ٩٦ برقم: ٧٢٩٦)، والنسائي في عمل اليوم والليلة عن أبي هريرة ﷺ (١/ ٤١٩ برقم: ٦٦١)، واللفظ له.

فشتان ما بين من يتلقى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات، وبين من يتلقها عن الأوضاع الاصطلاحية والرسوم، أو عن مجرد ذوقة ووجده...»[١].

***

المجال الثالث من مجالات التفكر:

المجال الثالث: التفكر في عبودية الكون والتفاعل معها:

فالكون الذي نعيش فيه كما يقول خالد أبو الفتوح: «كون يسبح الله عز وجل... سماواته وأرضه، بره وبحره، جباله وسهوله، جماده وحيواناته، إنسه وجنه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

بل إن هذا الكون يذعن بالعبودية لله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، والمسلم يؤمن بأنه ليس وحده في هذا الكون الذي يؤمن أن محمد ﷺ رسول الله، كما قال ﷺ: «إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس»[٢].

كون يغار على توحيد الله جلَّ وعلا ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١]، جباله مهيأة للتأثر بالقرآن ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ومن حجارته ما يُرى عليه أثر خشية الله خلافاً لكثير من قساة القلوب من البشر ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، بل صاحبت بعض الجبال والطير نبياً من أنبياء الله في عبادته ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [سبأ: ١٠].

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٢١٥، ٢١٦ - بتصرف يسير).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٢/ ٢٣٦ برقم: ١٤٣٣٣)، والدارمي (١/ ١٦٩ برقم: ١٨)، وصححه الأرنؤوط.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، ويحدث هذا التفاعل مع كل مسلم موحد « ما من مُلَبٍّ يُلبي إلا لبىٰ ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر، حتىٰ تنقطع الأرض من ههنا وههنا»(١).

ولا غرو بعد ذلك أن تتشابه حركه المسلم في عبادته كالحج مع الكون من أصغره إلىٰ أكبره، فدورانه حول الكعبة في الطواف يشبه – في الشكل والاتجاه – دوران الإلكترون حول النواه في الذرة، كما يشبه دوران الكوكب حول النجم في المجرة، وعدد مرات طوافه وعدد مرات سعيه هو نفسه عدد السماوات وعدد الأرضين: سبعة.

ويحس المسلم أن في الكون من الحيوانات والجمادات ما يتودد إليه، فعن أبي ذر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه، أو أحب أهله وماله إليه»(٢).

وفيه ما يعينه علىٰ تحسس الخير والابتعاد عن الشر، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذا بالله من الشيطان فإنه رأي شيطاناً»(٣).

وفيه ما يستغفر له، فعن أبي الدرداء ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض، حتىٰ الحيتان في الماء»(٤).

وفي حس المسلم أنه ليس وحده الذي يؤمن بقيام الساعة، ولكن الكون كله يترقب معه قيامها، ويشفق منها إشفاق العبد الوجل: عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤/ ١٥٩ برقم: ٢٩٢١)، والترمذي (٣/ ١٨٠ برقم: ٨٢٨)، ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (برقم: ٢٥٥٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٥/ ٣٩٢ برقم: ٢١٤٩٧)، والبزار (٩/ ٣٣٩ برقم: ٣٨٩٣)، والنسائي (٦/ ٢٢٣ برقم: ٣٥٧٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٠١ برقم: ٢٤٥٧) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري (٤/ ١٢٨ برقم: ٣٣٠٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٢ برقم: ٢٧٢٩).

(٤) جزء من حديث رواه أحمد (٣٦/ ٤٥ برقم: ٢١٧١٥)، وابن ماجه (١/ ١٦١ برقم: ٢٣٩٩، وأبو داود (٥/ ٤٨٥ برقم: ٣٦٤١)، والترمذي (٥/ ٤٨ برقم: ٢٦٨٢)، وحسنه الأرنؤوط.

قال: «وما من دابة إلا وهي مُسِيخَة (منصتة) يوم الجمعة من حين تصبح حتىٰ تطلع الشمس، شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس... »[1].

... وفيه أي: «يوم الجمعة تقوم الساعة، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا أرض ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة»[2].

مشاعر متبادلة مع الكون كله:

ومن هذه العلاقات تنبثق مشاعر الحب والبغض، والموالاة والمعاداة عند المسلم، علاقات ومشاعر متبادلة بينه وبين الكون كله.

فالسماء والأرض لا تبكيان علىٰ موت الكافرين والطغاة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]، بخلاف المؤمن الذي يبكي عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله إلىٰ السماء –كما ورد عن علي وابن عباس رضي الله عنهم –[3].

والمسلم قد يتبادل مشاعر المحبة مع جبل أصم، عن أنس رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلىٰ أحد فقال: «إن أحُداً جبل يحبنا ونحبه»[4].

ومن مقتضيات هذه المحبة عدم إزعاج المحب لمحبوبه، عن قتادة أن أنس رضي الله عنه حدثهم أن النبي ﷺ صعد أحداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد! فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان»[5].

والحجر والشجر يناصران أهل التوحيد، ويتعاونان معهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ١٥٠ برقم: ٣٦٤ - تحقيق الأعظمي)، وأحمد في المسند (١٦/ ٢٠٤ برقم: ١٠٣٠٣)، وأبو داود (٢/ ٢٧٧ برقم: ١٠٤٦)، والنسائي (٣/ ١١٣ برقم: ١٤٣٠)، وابن حبان (٧/ ٧ برقم: ٢٧٧٢)، والحاكم (١/ ٤١٣ برقم:١٠٣٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (برقم: ٧٧٣).

(٢) رواه أحمد (٢٤/ ٣١٤ برقم: ١٥٥٤٨)، وابن ماجه (٢/ ١٨٥ برقم: ١٠٨٤)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (برقم: ١٣٦٣).

(٣) انظر تفسير الآية عند ابن جرير الطبري رحمه الله.

(٤) رواه البخاري (٤/ ٣٥ برقم: ٢٨٨٩)، ومسلم (٢/ ١٠١١ برقم: ١٣٩٣).

(٥) رواه البخاري (٥/ ٩ برقم:٣٦٧٥).

رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمين اليهود، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعالَ فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»(١).

فحتى الحجر والشجر يوالي ويعادي على أساس الدين.

والمسلم ينتظر الهلال فيرى العلاقة المشتركة معه «اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله»(٢).

وهو منهي عن لعن الريح فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ، فقال: «لا تلعنها فإنها مأمورة»(٣).

والمسلم لا ينسى للوزغ عداءه القديم لخليل الرحمن، فيبادله العداوة بمثلها، فعن أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام»(٤).

بينما دواب أخرى يلتقي المسلم معها في تسبيح ربها ودعوتها إلى التوحيد ونفعها، نُهي المسلم عن قتلها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأُحي إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمه من الأمم تسبح»(٦).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٣٩ برقم: ٢٩٢٢).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٧ برقم: ١٣٩٧)، والدارمي (٢/ ١٠٥٠ برقم: ١٧٣٠)، والترمذي (٥/ ٥٠٤ برقم: ٣٤٥١) وقال: حسن غريب، وحسنه الأرنؤوط.

(٣) رواه أبو داود (٧/ ٢٧٠ برقم: ٤٩٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٥٠ برقم: ١٩٨٧)، وابن حبان (١٣/ ٥٦ برقم: ٥٧٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٥٢٨٩).

(٤) رواه البخاري (٤/ ١٤١ برقم: ٣٣٥٩).

(٥) رواه أحمد (٥/ ١٩٢ برقم: ٣٠٦٦)، وأبو داود (٧/ ٥٣٩ برقم: ٥٢٦٧)، وابن ماجه (٤/ ٣٧٧ برقم: ٣٢٢٤)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٦/ ٣٤٥)، والألباني في إرواء الغليل (برقم: ٢٤٨٩).

(٦) رواه مسلم (٤/ ١٧٥٩ برقم: ٢٢٤١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «إن نقيقها تسبيح»[1].

وحدة العبودية في الكون:

«فوحدة العبودية وتكاملها في أجزاء هذا الكون حقيقة يراها المتفكر، إذا استطاع أن يفلت من الصخب الملهي، ويتأمل في هدوء وروية.. منها: عبودية لا يشوبها الوساوس.. لَبِساط الأرض جميعه، حشائشه والباسقات، نبهك القرآن لها في قوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

قال الطبري: «يعني بالنجم: ما نجم عن الأرض من نبت، وبالشجر: ما استقل على ساق».

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة، يديم له سجوداً قلبياً، آيته الرضا عن الله... به يستكمل سجود جبهته مغزاه.

ومتى ذاق المؤمن بالخلوات المسترسلة لذة مراقبة هذا السجود الأخضر المتوشح بألوان الزهر، وأذن لقلبه أن يبالغ في الهبوط مقلدا حتى يلامس أوطأ الإخبات نادى غيره للمشاركة»[2].

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذى الصحاري والجبال الرواسيا

سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا

وسل هذه الانسام والأرض والسما ... وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا

سبَّحت الكائنات بحمده فملأ الكون تحميده... يسبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده، يمجده رهبان الطيور في صوامع الأشجار فيضرب السامع

---

(١) مجلة البيان (العدد ١٤٩) مقال بعنوان (توحيد المشاعر علاقة ممتدة) لخالد أبو الفتوح (٢٦ - ٣٠)، والحديث رواه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٠٤ برقم: ٣٧١٦).

(٢) الرقائق لمحمد أحمد الراشد (ص: ٣٨- ٤٨).

تمجيده... ما أصغي إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوي ريح ولا قعقعة رعد إلا أجده مردداً ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

تسبحه نغمات الطيور	يسبحه الظل تحت الشجر
يسبحه النبع بين المروج	يسبحه دوما أريج الزهر
يسبحه النور بين الغصون	وسمر المساء وضوء القمر[١].

فلنعمل على التفاعل مع الكون، ولنجتهد في ملاحظة عبوديته وتسبيحه، فبالمداومة على ذلك ستزداد العلاقة بيننا وبينه شيئاً فشيئاً بإذن الله.

يقول مالك بدري: «وإن لم يفقه المتفكر تسبيح الكون، لكنه يحسه إحساساً لا يتطرق إليه الشك، ويشعر بتلاحم وتناغم تسبيحه مع تسبيح كل المخلوقات، ويزداد هذا الإحساس عمقاً مع مداومة التفكر حتى يصل إلى قمم روحية سامية، وإلى شعور بالسرور واللذة الروحية التي لا يشبهها من نعيم هذه الدنيا شيء»[٢].

***

ومن مجالات التفكر:

المجال الرابع: التفكر في النعم والعمل على إحصائها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

فالله عز وجل يطلب من الناس ذكر نعمه عليهم ليصلوا إلى النتيجة الحتمية: أنه لا يوجد خالق غير الله يرزقهم.

---

(١) موارد الظمآن (ص: ٨٤ – ٨٦).

(٢) التفكر من المشاهدة إلى الشهود.

فإذا ما رسخت تلك الحقيقة في أذهانهم سهل عليهم بعد ذلك القيام بمقتضياتها.

إنها دعوة متكررة في القرآن تطالبنا بذكر نِعَم الله، لعلنا نستشعر فضله العظيم علينا فيقودنا ذلك إلى العمل الدائم على شكره سبحانه.

إن مجالس ذكر النعم لمن الأهمية بمكان لمن يريد الفلاح في الدنيا والآخرة، تأمل ما قاله هود عليه السلام لقومه ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فمن الأهمية بمكان عقد هذه المجالس مع أنفسنا، ومع أهلنا لنتفكر في نعم الله علينا، ونعمل على إحصائها بشتى الوسائل حتى نصل إلى مرحلة اليأس من عدها كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وبتكرارها يستشعر الإنسان تقصيره الشديد في حق الله عز وجل... يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فلو تفكرنا في نعمة الخلق وكيف كنا في العدم، ثم أصبحنا في بطون أمهاتنا لا نملك من أمرنا شيئاً، ثم صار لنا سمع وبصر وفؤاد... ولو تفكرنا في هذا كله فمن شأنه أن يدفعنا إلى العمل على شكر هذه النعم.

إن جميع ما خلق الله لنا من نعم له مقابل لابد من الوفاء به... هذا المقابل هو الشكر ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

فالعبودية الصحيحة تستوجب الشكر ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

وكل النعم التي أكرمنا الله بها – صغيرها وكبيرها – تستوجبه ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

فتسخير الدواب لنا نعمة تستحق الشكر ..

يقول تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ويقول تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

فهذه أمثلة لنعم لا نستشعر حجمها ولا نقدرها قدرها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

إن فضل الله علينا كبير، ولكننا لا نستشعره لغفلتنا عنه، ولنسياننا نعمه... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

ولن نستطيع معرفة حجم الشكر المطلوب منا إلا إذا جلسنا مع أنفسنا، وقمنا بالعمل علىٰ إحصاء النعم بشتىٰ أنواعها، وكلما كان الإحصاء دقيقاً كانت الفائدة كبيرة، ولنبدأ في كل مجلس من حيث انتهينا، وبكتابتها يسهل العودة إليها لتُحدث الأثر المطلوب.

وفي مثل هذه المجالس علينا أن نُكثر من التسبيح والحمد فنربط بذلك بين الفكر والذكر المناسب له.

***

المجال الخامس: التفكر في شكل الحياة بدون بعض النعم:

إن استمرار ورود النعم علىٰ الإنسان، وعدم زوالها عنه قد يجعله ينسىٰ المنعم، ولكن عندما يتفكر في شكل حياته إذا ما سُلبت منه بعض النعم فإن هذا من شأنه أن يشعره بعظيم فضل الله عليه، ويدفعه إلىٰ العمل علىٰ شكر نعمه، وينتابه شعور دائم بالخوف من سلبها.

ومن رحمة الله بعباده تذكيره الدائم لهم بحجم النعم التي أوردها عليهم، مثل ابتلاء البعض منهم بأمراض في أماكن مختلفة من الجسم، ليدركوا قيمة العافية فيزداد انكسارهم وعبوديتهم لربهم ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

فعلينا دوام التفكير في هذا المجال، ونتخيل حياتنا دون نعمة البصر أو الكلام أو السمع أو المشي أو... إلخ.

نتخيل كيف تكون الحياة عندما يحدث خلل في وظائف أعضاء الجسم كالقلب، والكبد، والرئتين، والكليتين، وقل مثل ذلك على الأجهزة المختلفة كجهاز المناعة والامتصاص والإخراج والتمثيل الغذائي...

ولنتفكر في حجم الأمراض التي قد تصيبها لندرك قيمة ما نحن فيه من تمام العافية.

والقرآن مليء بالآيات التي تذكرنا بنعم الله – سبحانه وتعالى– علينا، وتطلب منا تصور الحياة بدونها ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ – ٧٠].

فهلّا تفكرنا في الحياة بدون ماء زلال كيف تكون؟! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

وهلّا تفكرنا في يوم لا تغيب شمسه، ولا يأتي ليله؟! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١ – ٧٣].

إن هذا المجلس من أنفع المجالس التي ينبغي أن يجلسها الواحد منا مع نفسه... ففي واحدة منها يتفكر – على سبيل المثال– في نعمة البصر وكيف تكون الحياة

بدونها، وكيف أن الله لم يسلبها منه كما سلبها من بعض الناس، وفي مجلس آخر يتفكر في نعمة السمع، وكذلك نعمة الأمن، والستر، ونعمة الإسلام والهداية وهي أجلُّ النعم، ويقابل هذا كله بأضدادها ليدرك كم هو غارق في نعم الله ومغمور بها ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

إن التفكير في شكل الحياة بدون النعم من الأهمية بمكان ليدرك الإنسان مدى عجزه، وضعفه، وتقصيره في جنب الله، فإذا ما أتبع ذلك بالذكر المناسب مثل «لا حول ولا قوة إلا بالله» و«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» فإنه بعون الله سيجد قلبه معه حاضراً مستشعراً معاني تلك الأذكار.

***

ومن مجالات التفكر:

المجال السادس: التفكير في الماضي.

يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

فالإنسان كثيراً ما ينسى ماضيه، وكيف كان حاله من فقر أو مرض أو ضلال أو فسق... هذا النسيان قد يؤدي به إلى عدم إدراك حجم النعم التي تُحيط به، ومن هنا تبرز أهمية عقد مثل هذا المجلس.

وهناك أمثلة كثيرة في القرآن على ذلك.

ففي آيات متعددة يُذَكِّر الله عز وجل بني إسرائيل بحجم النعم التي تفضل بها عليهم، ليعودوا إليه، وينكسروا له، ولا يتمادوا في ظلمهم وطغيانهم ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٤٧ – ٥٠].

وتستمر الآيات في تذكير بني إسرائيل بماضيهم وما فعلوه، وبما مَنَّ الله عليهم من نعم عظيمة، كي لا يستمروا في الطريق الذي ساروا فيه: طريق الظلم وكفران النعم.

إنها طريقة قرآنية عظيمة لابد لنا أن نتبعها ليزداد انكسارنا واستسلامنا لمولانا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فعلى سبيل المثال: لكي نستشعر نعمة الهداية، وندرك حجمها علينا تذكر ماضينا، وكيف كنا في ضلال مبين.

ولقد كان الرسل يتبعون تلك الوسيلة في دعوة قومهم.. يقول تعالى على لسان شعيب عليه السلام وهو يخاطب قومه ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦].

إن ذكر الماضي من شأنه أن يزيد القلب فقراً وانكساراً لله عز وجل، ويمحو أي أثر للغرور أو تكبر على الآخرين.. تأمل قول الله عز وجل مخاطباً المهاجرين بعد بدر ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وتأمل قوله للأنصار: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتذكيره للصحابة بما حدث يوم الأحزاب، وكيف كان النصر منه وحده سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩ – ١١].

فليجلس كل منا مع نفسه وليتفكر في ماضيه، وكيف كان ضالاً فاسقاً يتبع الشهوات فمنَّ الله عليه بالهداية والرشاد.

ويتفكر كذلك في حاله أيام الضيق والفقر والمرض والوحدة، وكيف أبدله الله ذلك بنعم لا تعد ولا تحصى.

وفي أثناء ذلك علينا ترديد الأذكار المناسبة لهذا المجلس، والتي تستخرج من القلب معاني الحمد والثناء على الله، والافتقار الماس إليه.

***

ومن مجالات التفكر:

المجال السابع: التفكر في حقيقة الفقر إلى الله:

وهذا مجال عظيم من مجالات التفكر، بل إنه مفتاح العبودية.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾ [فاطر: ١٥ – ١٧].

ففقرنا إلى الله فقر ذاتي لا تغيره العوارض كمظاهر القوة العضلية والصحة لدى الشباب، وكمظاهر الغنى لدى البعض فهذه أمور عارضة لا تغير الأصل .. هذه الحقيقة تشمل جميع جوانب الحياة ومهما ادعى المدَّعون بقدرتهم على الاستغناء عنه سبحانه إلا وتأتي عليهم لحظات يشعرون فيها بمدى ضعفهم وفقرهم إليه.

ففي مجال حفظ الحياة:

لنتفكر في القلب - على سبيل المثال — وكيف يعمل؟ وكم مرة يضخ فيها الدم إلى جميع أنحاء الجسم في الدقيقة الواحدة؟!.. وماذا لو توقف دقائق عن العمل؟! ماذا سيحدث للأعضاء؟! وماذا سيحدث للمخ؟!

إن هذا القلب يعمل ليل نهار منذ أن خلقنا الله عز وجل، ولم يأخذ فترة راحة واحدة... من الذي يحفظه؟!

ولنتفكر في وظيفة الكليتين ودورهما الحيوي في حفظ الحياة.

هل تعلم أن الدم يمر عليها مرات عديدة في اليوم الواحد لتنقيته من السموم؟!

تخيل أنها توقفت يوماً في العام، بل بضع ساعات، ماذا سيحدث لك؟! وكيف يمكنك أن تعيدها إلى العمل مرة أخرى؟!

وقل مثل ذلك على بقية أجزاء الجسم من مخ، وأعصاب، وغدد، وكبد، ومعدة، وأمعاء، وعظام، ونخاع، وعضلات، وكذلك الأجهزة المختلفة كجهاز المناعة، والتنفس، والامتصاص، والإخراج، والجهاز التناسلي، والبولي، والدم وما يحتويه، والحواس من سمع وبصر، و.....

إن هناك آلافا وآلافا من العمليات الحيوية التي لابد من توافرها جميعاً في آن واحد كل لحظة كي نستطيع أن نحيا حياة طبيعية.

ولابد كذلك من استمرار وجودها على مدار الوقت...

فمن الذي يديرها ويحفظها لنا؟! ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الأنبياء: ٤٢].

فلنتفكر في ذلك، ولنتفكر في حجم الأمراض التي يمكن أن يصاب بها كل عضو من أعضاء الجسم؛ لندرك مدى فقرنا وحاجتنا إليه سبحانه.

لنتفكر في عدد الفيروسات والجراثيم التي يمكن أن تهاجمنا، ومع ذلك فنحن نتمتع بالصحة والعافية.

إن كمَّ الأمراض الهائل التي يمكن أن يصاب بها الإنسان يجعلنا – بالحسابات المادية- نخرج بنتيجة تقول: إن الأصل هو المرض، أما الصحة فهي أمر نادر الحدوث.

هذه النتيجة تختلف اختلافاً جذرياً مع الواقع، فكما نرى أن الأصل هو الصحة والعافية عند الغالبية من الناس، والمرض عكس ذلك.

إن هذا يحدث فقط بفضل الله وحفظه ورعايته لنا ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

فأي افتقار إليه سبحانه ينبغي أن نعيش فيه؟!

إننا بحاجة إلى حفظه ورعايته، وتوالي إمداده لنا بأسباب الصحة والعافية بعدد أنفاسنا، بل أضعاف أضعاف ذلك....

والذي يشك في هذا الأمر عليه أن يسأل نفسه: ماذا لو نقص الهواء المحيط بنا؟! وماذا لو فُقد الماء أو الغذاء؟!

هذا في جانب حفظ الصحة والعافية، أما في جانب دوام حفظ الأمن والستر: فلو تفكرنا في الأسباب التي يمكن أن تجعلنا نفقد هذه النعمة، من حدوث زلازل وبراكين، وفيضانات وصواعق، وحرائق وجرائم، لأدركنا مدى حاجتنا إليه – سبحانه – وإلى أمنه وستره.

أما في جانب الهداية فالفقر إليه عز وجل أشد وأشد... فجميعنا لو تُرِك لنفسه ما ثبت لحظة، وسيكون الضلال والفسق والإجرام أقرب إليه من شراك نعله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

فلا طاقة لأحد بنفسه وإلحاحها وطلباتها الدائمة بالحصول على الشهوات، ولولا فضل الله علينا ورحمته لكنا مع المجرمين أو الفاسقين.

لنتفكر في عُبّاد الصليب والبقر والشمس والقمر... ولنسأل أنفسنا: ماذا لو نشأنا في تلك البيئات، ووجدنا آباءنا ممن يعبد هذه الأوثان؟ ولماذا وجدناهم مسلمين موحدين؟ أبفضلٍ منا؟ أم بموهبة لدينا؟ أم أنه محض فضل الله عز وجل؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دخول الإيمان في قلوبنا نعمة عظمى منه وحده .. سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ومع هذا الفضل العظيم فإن الثبات على الحق، وعدم زيغ القلب إلى الهوى فضل منه سبحانه، لا يستطيع أحد من البشر مهما كان إيمانه أن يدَّعيه لنفسه ولو للحظة واحدة.

ألم يقل إبراهيم ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]؟

وكذلك قال شعيب ﷺ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال يوسف ﷺ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وهذا رسول الله ﷺ سيد المرسلين يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(1)].

ويقول: «إنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة، وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك»[(2)].

ويقول: «... إنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك»[(3)].

فقد يصلي المرء الفجر بالصف الأول بالمسجد، ثم يكون في كنيسة يترنم بترانيم النصارى وقت الظهر... كل ذلك قد يحدث إذا ما تخلى عنه ربه، وتركه لنفسه ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

فنحن نحتاج إلى عون الله وفضله ورحمته بعد أنفاسنا، وإلا فالخذلان والخطيئة، والزيغ والضلال ينتظرنا.

....إن دوام التفكر في هذا المجال من شأنه أن يرسخ حقيقة الفقر إليه سبحانه في أذهاننا، فندرك المعنى الحقيقي لذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ونستشعر كذلك حاجتنا الماسة إلى رحمته،فنكثر من الصلاة والسلام على حبيبه ومصطفاه ﷺ.

***

ومن مجالات التفكر:

المجال الثامن: التفكر في العواقب:

وهذا مجال آخر من مجالات التفكر طالبنا به المولى عز وجل، يقول: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

---

(١) رواه أحمد (٤٤/ ١٣٨ برقم: ٢٦٥١٩)، والترمذي: (٥/ ٤٢٣ برقم: ٣٥٢٢) عن أم سلمة رضي الله عنها ،وقال حديث حسن، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٠٩١)، وله طرق عن كثير من الصحابة.

(٢)رواه أحمد (٣٥/ ٥٢٠، برقم: ٢١٦٦٦) والطبراني (٥/ ١١٩، ١٥٧) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد (٧/ ٣٢ برقم: ٣٩١٦)، والحاكم (٢/ ٤٠٩ برقم: ٣٤٢٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

فالنظر في العواقب له أهمية كبرى في معرفة سنن الله عز وجل في الظالمين ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

والمجرمين: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وكذلك المفسدين: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ومع معرفة سنن الله في هؤلاء، لابد من النظر في عواقب الصبر والتقوى ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويقول سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

لابد أن تكون لنا وقفات ومجالس، نتفكر من خلالها في عواقب الظلم والإسراف والفساد، وكذلك في عواقب التقوى والصلاح، على مستوى الأفراد والمجتمعات.

فالله عز وجل لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس هم الذين يصنعون لأنفسهم مآلهم وعاقبتهم... فسنن الله لن تتبدل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

إننا نصنع لأنفسنا السعادة والشقاء بالسير بإرادتنا واختيارنا في الطريق المؤدي إلى أيهما، ولعل الحث المتكرر في القرآن على النظر في العواقب كي نعتبر مما حدث من السابقين، ولا نكون ممن يعتبر بهم اللاحقون.

فالسنن هي السنن لن تتغير، وكذلك الأفراد ونزعاتهم، واتجاهات تفكيرهم، فلماذا لا نعتبر بمن سبقونا؟!

لماذا نكرر التاريخ، ولا نستفيد منه؟!

فالقرآن بين أيدينا يبين السنن الكونية وقواعدها، ويشير إلى بعض من تطبيقاتها العملية.

فمن أراد أن يعرف عاقبة الإعراض عن الشكر فليتأمل ماذا حدث لسبأ، وإذا أحب إن يرى تطبيقاً عملياً لعاقبة العلو في الأرض والإسراف ففي قصة قارون أكبر نموذج لذلك.

وما حدث لفرعون وعاد وثمود وقوم نوح وشعيب أكبر دليل على أن سنة الله لا تتبدل في المكذبين الضالين.

إنها قوانين واجبة النفاذ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، تأتمر بأمره سبحانه في الوقت الذي حدده لها، ليس لأحد أن يستعجلها ولكن له أن ينتظرها ويترقبها ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

إن القيام بمثل هذه المجالس وكثرة النظر في العواقب من شأنه أن يزيد اليقين في القلوب بحقيقة: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

فمهما انتفش الباطل فإنه يحمل في طياته عوامل فنائه، ومهما علا صوت الظالمين فلن يخيف إلا أبناء الدنيا، أما أبناء الآخرة فهم على ثقة بربهم، لا يستعجلون أمره، فسيأتي في الوقت الذي حدده له سبحانه، عندما يكتمل طرف المعادلة، ويصل الظلم إلى الدرجة التي تستدعي صدور الأمر بالتنفيذ ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

والتاريخ القديم والحديث خير شاهد على هذا....

لنتذكر الشيوعية وما وصلت إليه من عنفوان، ثم لنتذكر كيف انهارت في عقر دارها.

ولنتأمل ماذا حدث لهتلر وموسوليني، ولنعد بالذاكرة إلى الوراء حيث يحكي لنا التاريخ كيف كانت نهاية الحجاج بن يوسف، وكل من شارك في قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، وكذلك نهاية بعض رؤوس المعتزلة الذين تسببوا في تعذيب إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله.

ولنتأمل كذلك سنن الله عز وجل في التغيير، فلم يبدل سبحانه نعمة أنعمها على الناس إلا بعد أن بدأوا هم بالإعراض عن شكره وعبادته.. يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

تأمل حال من أبدله فقراً بعد غنى، ومرضاً بعد صحة وعافية، وذلاً بعد عز، وتفكر فيمن أفنى حياته من أجل أولاده؛ ليؤَمِّن لهم مستقبلهم في الدنيا، ونسي أن يربيهم على الإسلام، كيف خذلوه وتركوه وحيداً عند كِبَره.. فدوام التأمل في أحوال الناس يجعلنا نردد قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

إن النظر في العواقب يثبت القلوب، ويجعل الهم هماً واحداً هو هم الخوف من الله عز وجل، وبكثرة التفكر فيها تتأكد لدينا حقيقة أن الظلم له نهاية، والباطل زاهق لا محالة، ولا يصح إلا الصحيح مهما طال الزمن، وادلهمت الخطوب، واشتد الظلام.

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وفي هذه المجالس سيوقن العبد أن الله ليس بغافل عما يعمل الناس ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وفي نهاية هذه المجالس على كل منا أن يردد من الأذكار ما يؤكد حقيقة أن الله غالب على أمره، وأنه فعال لما يريد(١).

***

ومن مجالات التفكر:

المجال التاسع: التفكر في أيام الله:

في مثل هذا العصر الذي نحيا فيه، ومع اشتداد الظلام، وتكالب الأعداء على المسلمين من كل جانب، والتنكيل بالعاملين للإسلام تأتي أهمية التفكر في أيام الله ووقائعه في أعدائه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

إنها وسيلة مهمة لإيقاظ روح الأمل في النفوس، والتطلع إلى السماء، والتمسك بالعروة الوثقى، فما أكثر الأيام التي نصر الله فيها أولياءه بأقل الأسباب الأرضية، وأذل

---

(١) للدكتور السيد حسين العفاني مؤلف نفيس بعنوان «الجزاء من جنس العمل» فيه الكثير من الأمثلة في هذا المجال.

فيها الكفر وأهله مع ما كان معهم من قوة وعتاد.

فمن هذه الأيام يوم غرق قوم نوح ونجاته عليه السلام ومن معه من المؤمنين، ويوم نجاة لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته.

ومنها يوم هلاك عاد وثمود، وكذلك يوم غرق فرعون ومن معه، ونجاة موسىٰ عليه السلام وقومه.

ومن هذه الأيام يوم الانتصار في بدر مع قلة العدد والعدة، وكذلك يوم الأحزاب، يوم أن أرسل الله علىٰ المشركين ريحاً زلزلتهم وأجبرتهم علىٰ الفرار.

ومنها ما حدث في القادسية، ونهاوند، واليرموك، والزلاقة، والأرك، وحطين، وعين جالوت، وفتح القسطنطينية.

فهذه وغيرها أيام انتصارات عظيمة، انتصر فيها المسلمون عندما أخذوا بأسباب النصر، وأحسنوا صلتهم بالله، وصدقوا في توكلهم عليه.

إنها أيام فاصلة في تاريخنا علينا أن نديم ذكرها، ونأخذ منها الدروس والعبر التي تعيننا علىٰ مواجهة الواقع الذي نحياه.

ومع التفكر في تلك الأيام المباركة، علينا كذلك التفكر في أيام الله التي انتقم فيها من أعدائه ممن خانوا الأمانة، وعبدوا الشيطان، وعاثوا في الأرض ظلماً وفساداً، فنتذكر أيام الزلزال والبراكين والفيضانات المدمرة التي احتاجت قراهم ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

ومع تذكرنا لهذا كله علينا في هذه المجالس الإكثار من الأذكار المناسبة، مثل ذكر: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير.

إمكانية الجمع بين مجالات الفكر:

يمكننا – بعون الله – أن نجمع بين المجالات السابقة، خاصة عند التفكر في صفحة الكون المشهود، فننظر مثلاً إلىٰ الشمس ونتفكر في خلقها، وإبداعها، ودقة صنعها، وكيف نستدل من خلال وجودها علىٰ وجود الله ووحدانيته؟ ونحصي كذلك

أسماء الله وصفاته والتي أظهر وجود الشمس آثارها.

ونعمل على إحصاء نعم الله علينا من خلالها، ونتفكر في شكل الحياة بدونها، ونستشعر مدى فقرنا إليها، والذي يعكس بدوره الفقر المحض إليه سبحانه وتعالى، وهكذا مع بقية آيات الله في الكون.

مع طريقة أخرى للانتفاع بالذكر:

ومع الطريقة السابقة في ربط الذكر بالفكر، هناك طريقة أخرى ميسرة – بفضل الله – يمكننا استخدامها بالتوازي مع ما سبق لتحقيق شيء من التجاوب بين القلب واللسان عند الشروع في الذكر، وتتلخص في العمل على توليد الرغبة داخل الإنسان لترديد ذكر معين، وذلك من خلال تذكر فضائله[١].

فعندما يتخيل العبد أن اسمه يذكر عند العرش في الملأ الأعلى وقت ذكره لمولاه كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

عندما يتخيل نفسه وهو ذرة يسيرة في مُلك ليس له نهاية... فرد واحد من بلايين البشر، لا يكاد يعرفه أحد... يتخيل اسمه وهو يتردد في السماء... يتخيل أن رب الأرباب يذكره .. فماذا سيفعل؟ وبأي حال سيُقبل على الذكر؟!

يقول يحيى بن معاذ: «يا جهول يا غفول لو سمعت صرير القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك لمت طربا»[٢].

ومع تذكرنا لفضائل الذكر بصفة عامة، علينا أن نُذكِّر أنفسنا بفضل الذكر الذي نريد البدء به.

فقبل الاستغفار – مثلاً – نتذكر فضله وحاجتنا إليه، وكذلك قبل الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وغير ذلك من الأذكار.

---

(١) وفي كتاب الوابل الصيب لابن القيم، الكثير من فضائل الذكر التي تحرك الهمم وتولد الرغبة للإكثار منه والمداومة عليه، وكذلك في كتاب المتجر الرابح للحافظ الدمياطي.

(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٥٦).

وبالمداومة على السير المتوازي في هذين الطريقين يبدأ القلب - شيئاً فشيئاً - بالتفاعل مع الذكر حتى يصير من أحب الأعمال إليه فلا يكاد يفارقه.

وصية أخيرة:

يقول ابن القيم في فوائده: «من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان، وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطأ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطأ جميعاً، فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى النطق اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»[1].

ولكي ننتفع – بعون الله – بهذه الوصية علينا أن نملأ القلب بمعاني الأذكار حتى تتحقق الفائدة، وهذا يستدعي الإكثار من التفكر في المجالات السابقة وغيرها وربطها بالأذكار المناسبة ... والله أعلم.

---

(١) الفوائد (ص: ٢٤٧).

الفصل الخامس

مداومة الإنفاق في سبيل الله

الفصل الخامس
مداومة الإنفاق في سبيل الله

إن المتأمل لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، يجد الكثير والكثير من الآيات والأحاديث التي تحث المسلم على الإنفاق في سبيل الله، وترغبه فيه من خلال تكرار الحديث عن ثمراته العظيمة في الدنيا والآخرة.

وعندما نجد حثاً دائماً ومتكرراً على الإتيان بفعل معين؛ فإن هذا من شأنه أن يدفعنا إلى المسارعة بتنفيذه؛ فالله عز وجل – الذي خلقنا – خبير بما ينفعنا ويحقق لنا السعادة في الدنيا والآخرة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

لذلك عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن أهمية الإنفاق، علينا أن نسأل أنفسنا: أليس الله هو الغني؟! أليس المال ماله؟! والأرض ومن عليها ملك له؟! فلماذا إذن هذا الترغيب المستمر في إنفاق المال الذي هو في حقيقته هبة منه سبحانه وتعالى؟!

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تستدعي من كل منا النظر إلى نفسه، واستعراض ميولها وطموحاتها... سيجد – من يفعل ذلك – أن أكثر شيء تميل إليه نفسه حب المال والحرص على جمعه كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

هذا الميل وهذه الشهوة لا تنطفئ أبداً، عكس الكثير من شهوات الدنيا، بل على العكس فكلما ازداد المال ازداد النهم تجاهه، كالنار كلما زيد في وقودها اشتد اشتعالها.

يقول رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[١].

---

(١) متفق عليه رواه البخاري (٨/ ٩٣ برقم: ٦٤٣٩)، ومسلم (٢/ ٧٢٥ برقم: ١٠٤٨).

ولقد خلق الله النفس بهذه الصفة – صفة الشح والحرص على المال – وطالبنا بتطهيرها منها، وجعل من أهم وسائل التطهير والتزكية دوام الإنفاق في سبيل الله..

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٨]، ويقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

إن مساعدة الفقراء والمساكين وتجهيز المجاهدين في سبيل الله أمر مهم، وعظيم الفائدة، وأعظم منه مساعدة أنفسنا وفك أسرها من الشح المجبولة عليه.. يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] يعني والله أعلم: أن الأنفس جيء بها مقيدة للحبس لدى الشح، فالنفس أسيرة للشح مُحضَرة عنده مقيدة تحت سلطانه...

فالشح مفتاح كل شر، ومن شأنه أن يدفع صاحبه إلى الحرص والتشبث بالدنيا، قال أبو الهياج الأسدي: «رأيت رجلاً في الطواف يدعو: «اللهم قني شح نفسي»، لا يزيد على ذلك شيئاً، فقلت له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟! فقال: «إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل»، فإذا بالرجل عبد الرحمن بن عوف»[1].

إن بداية الانطلاق بالنفس إلى السماء، وتخلُّصها من جواذب الأرض، هو تطهرها من الشح بدوام الإنفاق في سبيل الله حتى يصير سجية من سجاياها، فتزهد في المال ويخرج حبه من القلوب، فلا يفرح صاحبه بزيادته، ولا يحزن على نقصانه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

إنه المنهج السماوي لتزكية النفوس: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهذا ما كان يهتم به رسول الله ﷺ في توجيهاته لأمته، ولم لا؟ وقد جعل الله – سبحانه وتعالى – تزكية النفوس وتطهير القلوب من أهم مهماته ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١].

---

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧/ ٢٤٩) وابن كثير في التفسير (٤/ ٣٠٥ – مكتبة العبيكان).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»، قال أنس: وإن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بقي منها؟» قالت: «ما بقي منها إلا كتفها»، قال: «بقي كلها غير كتفها»(٢).

من فوائد الصدقة:

وكما أن للصدقة أثر عظيم في تزكية النفوس فإن لها فوائد أخرى عظيمة في الدنيا والآخرة.

فهي أفضل استثمار للمال:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله»(٣).

وهي حجاب من النار:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»(٤).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٨٠٦ برقم: ٢٣١٢).

(٢) رواه أحمد (٤٠/ ٢٨٦ برقم:٢٤٢٤٠)، والترمذي (٤/ ٦٤٤ برقم: ٢٤٧٠)، وقال: حديث صحيح، وصححه الأرنؤوط.

(٣) رواه البخاري (٢/ ١٠٨، رقم ١٤١٠)، ومسلم (٢/ ٧٠٢، رقم ١٠١٤) والفلو بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو هو الفرس أول ما يولد.

(٤) رواه أحمد (٤١/ ٤٩ برقم: ٢٤٥٠١) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٦)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٣/ ٣٩) وابن حجر في فتح الباري (٣/ ٢٨٤)، والألباني في الصحيحة (برقم: ٨٩٧).

وهي ظل لصاحبها يوم القيامة:

عن عقبة بن عامر ﵁ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس»[١].

والصدقة تدفع العذاب وقد ترد الحقوق بين الناس:

عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير...»[٢].

قال ابن حجر في الفتح: «وفي هذا الحديث... أن الصدقة تدفع العذاب، وأنها قد تكفر الذنوب بين المخلوقين»[٣].

أما في الدنيا ففوائدها كثيرة ومجربة:

فهي دواء للمرضى:

عن أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة»[٤].

تدفع البلاء:

عن الحارث الأشعري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا

---

(١)رواه أحمد (٢٨/ ٥٦٨ برقم:١٧٣٣٣)، وابن خزيمة (٤/ ٩٤ برقم: ٢٤٣١)، وابن حبان (٨/ ١٠٤ برقم: ٣٣١٠)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه البخاري (١/ ٦٨ برقم: ٣٠٤)، ومسلم (١/ ٨٦ برقم: ٧٩)، واللفظ له، ومعنى جزلة أي: ذات عقل ودين.

(٣) فتح الباري (١/ ٥٣٦).

(٤)رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٨٤ برقم: ٣٢٧٩)، عن أبي أمامة ﵁، والطبراني في الدعاء (برقم: ٣٤) عن عبادة بن الصامت ﵁، وفي المعجم الكبير (١٠/ ١٢٨ برقم: ١٠١٩٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٥٣٦ برقم: ٦٥٩٣) عن ابن مسعود ﵁، ورواه في شعب الإيمان (٥/ ١٨٤ برقم: ٣٢٧٨ عن ابن عمر ﵁، وعن سمرة بن جندب ﵁ (برقم: ٣٢٨٠)، ورواه أبو داود في المراسيل عن الحسن البصري (برقم: ١٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٨)..

بخمس كلمات أن يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن – فذكر الحديث إلى أن قال فيه –: ... وآمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه»[1].

يقول ابن القيم في التعليق على ذلك: «هذا من الكلام الذي برهانه وجوده، ودليله وقوعه، فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه»[2].

وفي تمثيل النبي ﷺ ذلك بمن قُدِّم ليُضرَب عنقه فافتدى نفسه منهم بماله كفاية، فإن الصدقة تفدي العبد من عذاب الله تعالى، فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه، فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه.

وفي بعض الآثار: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة»[3].

ويقول رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر من آيات الله، وإنهما لا ينخسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فكبروا، وادعوا الله وصلوا وتصدقوا...»[4].

تُيَسَّر الأمور:

فما من عسير يواجه صاحب الصدقة إلا تيسر بفضل الله عز وجل، وهذا أمر مُشاهد أكده القرآن في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ – ٧].

(١) جزء من حديث الحارث الأشعري ﷺ، رواه أحمد (٢٨/ ٤٠٤ برقم: ١٧١٧٠)، والترمذي (٥/ ١٤٨ برقم: ٢٨٦٣) وقال: حسن صحيح، وابن خزيمة (٣/ ١٩٥ برقم: ١٨٩٥)، وابن حبان (١٤/ ١٢٤ برقم: ٦٢٣٣)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) الوابل الصيب (ص: ٥٧).

(٣) الوابل الصيب (ص: ٥٩)، والأثر رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ٩ برقم: ٥٦٤٣) عن علي بن أبي طالب ﷺ مرفوعا، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣١٨ برقم: ٧٨٣١) عن أنس ﷺ موقوفا.

(٤) رواه البخاري (٢/ ٣٤ برقم: ١٠٤٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨ برقم: ٩٠١).

تجلب الرزق:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل في فلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرّة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله لم سألتني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثا، وأرد فيها ثلثه»(١).

تقي مصارع السوء، وتطفئ غضب الرب:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «صاحب المعروف لا يقع، فإن وقع وجد متكأً»(٣).

تزيل أثر الذنوب:

عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر... فذكر الحديث إلى أن قال فيه: ثم قال – يعني النبي ﷺ –: «ألا أدلك على أبواب الخير؟» قلت: «بلى يا رسول الله» قال: «الصوم جُنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار»(٤).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٨ برقم: ٢٩٨٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦١ برقم: ٨٠١٤)، وحسّنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ١٥ برقم: ١٣١٧)، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ١٩٦).

(٤) رواه أحمد في المسند (٣٦/ ٣٨٧ برقم: ٢٢٠٦٨)، وابن ماجه (٥/ ١١٦ برقم: ٣٩٧٣)، والترمذي (٥/ ١١ برقم: ٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح، والحاكم (٢/ ٤٤٧ برق: ٣٥٤٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الأرنؤوط.

فهل بعد هذا نترك الصدقة؟!

عن عمر ﷺ قال: «ذُكر لي أن الأعمال تتباهى، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم»(١).

حجم الإنفاق في حياة الصحابة:

لقد كان الصحابة ﷺ يدركون جيداً أهمية الإنفاق في سبيل الله، ويظهر هذا جلياً في حرصهم الشديد على البذل في أوجه الخير.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدا(٢).

ويقول الأعمش عن عمر بن الخطاب ﷺ «كنت عنده يوماً، فأُتي باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يقم من مجلسه حتى يفرقها، وكان إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، وكان كثيراً ما يتصدق بالسُّكَّر، فقيل له في ذلك؟ فقال: إني أحبه، وقد قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»(٣).

ولقد اشترى عثمان ﷺ بئر رومة بأربعين ألف درهم، وأنفق في جيش العسرة

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٩٥ برقم: ٢٤٣٣)، والحاكم (١/ ٥٧٦ برقم: ١٥١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (برقم: ٨٦٧).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٦١٤ برقم: ٣٦٧٥)، وقال: حسن صحيح، وأبو داود (٣/ ١٠٧ برقم: ١٦٧٨).

(٣) الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود لعبد الرؤوف المناوي (ص: ٦٤) نقلا عن صلاح الأمة في علو الهمة (٢/ ٥٢٦)

الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ٢٦٢)

وأخرج ابن المنذر عن نافع قال: كان ابن عمر يشتري السكر فيتصدق به فنقول له: لو اشتريت لهم بثمنه طعاما كان أنفع لهم من هذا فيقول: إني أعرف الذي تقولون ولكن سمعت الله يقول {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} وابن عمر يحب السكر.

عشرة آلاف درهم[1].

وكان للزبير بن العوام ألف يؤدون له الخراج، فلا يدخل بيته من خراجهم شيئاً... بل يتصدق بها كلها[2].

ولقد باع طلحة بن عبيد الله أرضاً له بسبعمئة ألف، فبات ذلك المبلغ عنده ليلة، فبات أرقاً من مخافة المال، حتى أصبح ففرقه[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء» وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله»، قال: فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ ذاك مال رابح، بخٍ ذاك مال رابح»[4].

وعن نافع قال: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتد عُجْبُه بشيء من ماله قربه لربه عز وجل، قال نافع: كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك، فربما شمر أحدهم فلزم المسجد فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة، أعتقه، فيقول أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلا أن يخدعوك! فيقول ابن عمر: «فمن خدعنا في الله انخدعنا له»[5].

وكان سعد بن عبادة رضي الله عنه يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم[6].

---

(١) روى البخاري (٤/ ١٣ برقم: ٢٧٧٨) عن أبي عبد الرحمن، أن عثمان رضي الله عنه حين حوصر أشرف عليهم، وقال: أنشدكم الله، ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «من حفر رومة فله الجنة»؟ فحفرتها، ألستم تعلمون أنه قال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»؟ فجهزتهم، قال: فصدقوه بما قال.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٦).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٨٨).

(٤) رواه البخاري (٢/ ١١٩ برقم: ١٤٦١)، ومسلم (٢/ ٦٩٣ برقم: ٩٩٨)، وبيرحاء موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بني جديلة.

(٥) حلية الأولياء (١/ ٢٩٤).

(٦) حلية الأولياء (١/ ٣٤١).

علاقة الإنفاق بالسير إلى الله - عز وجل -:

للإنفاق في سبيل الله علاقة وثيقة بالسير إلى الله، فهو وسيلة مؤثرة غاية التأثير – وإن غفل عنها الكثير – ولا يخطئ من يقول إنه من الوسائل المحورية في إحياء القلب وإيقاظ الإيمان، فالشح المجبولة عليه النفس، وحب المال الملازم لها يشكلان العقبة الكبرى للعبد في طريقه إلى الله، ولا مناص من تخطيها.

يقول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن أمام الإنسان طريقين، طريقا للخير وطريقا للشر، وهو مخير في السير فيهما...

طريق الخير يؤدي إلى رضا الله وجنته، وطريق الشر يؤدي إلى غضب الله والنار، فما الذي يمنع الإنسان من ولوج طريق الخير؟! ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ [البلد: ١٠ – ١٢].

يخبرنا القرآن أن هناك عقبة في طريق الخير لابد من اقتحامها كي يستقيم السير فيه، فما هي تلك العقبة؟! ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٣ – ١٦].

فالعقبة الكبرى أمام الانسان هي الشح والحرص، واقتحامها إنما يكون بدوام الإنفاق في سبيل الله.

والآيات التي تتحدث عن علاقة الإنفاق بالسير إلى الله كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فالقرب منه سبحانه فضل، ونيل رحمته فضل، والتلذذ بمناجاته فضل، والهداية فضل... كل هذا وغيره يحتاج إلى الإنفاق في سبيل الله مما نحب.

ويقول تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨]، فمن يرد وجه الله والقرب منه، فالإنفاق خير وسيلة له، والله أعلم.

ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ

وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٩٩].

فالآية تدل دلالة واضحة على أن الإنفاق يقرب صاحبه من الله عز وجل، فهو — سبحانه قريب غير بعيد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولكن نحن الذين ابتعدنا عنه بذنوبنا وغفلاتنا وتقصيرنا في القيام بحقوقه.

وكما أن الغفلة والذنوب أبعدتنا عنه، فإن الإنفاق وسائر الطاعات تقربنا منه — سبحانه، وبدوام الإنفاق من العبد يزداد القرب شيئاً فشيئاً إلى أن يدخل في رحمته عز وجل ويصبح من عباده المخلصين.

يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾ أي تقربهم من رحمة الله، يعني نفقاتهم.

يا حسرة على العباد:

عند الموت يكتشف الغافلون أهمية الإنفاق، ودوره العظيم في دفع العذاب؛ فيتمنون من الله أن يؤخر قبض أرواحهم ليتمكنوا من الإنفاق والعمل الصالح .. يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

أرأيت أن أول أمنية يتمنى الإنسان فعلها لو تأخر أجله بعد رؤيته لملك الموت هي الإنفاق في سبيل الله؟!!

ما الذي دفعه لذلك؟!!

لقد اكتشف الحقيقة، وزالت الغشاوة عن عينيه، واكتشف أنه أفنى عمره في جمع المال لغيره مع أن الواجب كان يحتم عليه أن ينفقه لما فيه الخير لنفسه أولا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآ﴾ [المؤمنون: ٩٩ — ١٠٠].

فهو يريد العودة إلى الدنيا ليعمل صالحًا فيما ترك من أموال وتجارات وعقارات و...

وفي الحديث يقول الله تعالىٰ: «ابن آدم أنىّ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتىٰ إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتىٰ إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق، وأنىٰ أوان الصدقة؟»[1].

إن للإنفاق أهمية كبرىٰ في السير إلىٰ الله وإنقاذ العبد من العذاب، فالسير إليه سبحانه إنما يكون بالقلوب، ولا يوجد ما يعطلها عن سيرها مثل الذنوب والمعاصي.

ومن منا لم يعص الله؟!

فكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون كما قال ﷺ[2].

فالسعيد من تدارك الفائت، ولحق بالركب، وأتبع السيئة الحسنة فمحاها وأزال أثرها.

وهل هناك أفضل من الصدقة في محو الخطايا؟! ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

فالإنفاق يعين السائر علىٰ سيره، ويقربه من مولاه، ويزيل العوائق من أمامه، ويمحو أثر ذنوبه، ويطفئ غضب ربه.

متى تؤتي الصدقة ثمارها؟!

قد يقول قائل إن الواقع المشاهد لا يؤكد ما أشرنا إليه من فوائد الإنفاق، فالكثير من الناس ينفق من ماله، ومع ذلك لا نرىٰ أثراً لهذا الإنفاق في حياتهم.

مما يفسر هذا الأمر أننا قد ننفق مرة ونبخل مرات، بل ونحسب حساباتنا قبل أي نفقة ننفقها، ونفكر كثيرا في تأثيرها السلبي علىٰ رصيدنا من الأموال ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة: ٩٨].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٩/ ٣٨٥ برقم: ١٧٨٤٢)، وابن ماجه (٤/ ١٢ برقم: ٢٧٠٧)، وحسنه الأرنؤوط، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١١٤٣).

(٢) رواه أحمد (٢٠/ ٣٤٤ برقم: ١٣٠٤٩)، وابن ماجه (٥/ ٣٢١ برقم: ٤٢٥١)، والترمذي (٤/ ٦٥٩ برقم: ٢٤٩٩)، وحسنه الأرنؤوط في تخريج سنن ابن ماجه.

فالذي يعتبر ما ينفقه خسارة، وغرامة، ونقص من رصيده، ليس له أن ينتظر شيئاً من ثواب تلك النفقة.

وكذلك الذي يعطي مرة ثم يتوقف ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤]، أي أعطى قليلا ثم انقطع وتوقف.

إننا إذا ما أردنا أن ننتفع بهذه الوسيلة فعلينا المداومة على الإنفاق حتى يصبح سجية من سجايانا.

فليس المقصد من الإنفاق هو إخراج المال مرة ولو كان كثيراً ثم الانقطاع بعد ذلك فترة طويلة، بل المطلوب هو تتابع الإنفاق في كل الأحوال والأوقات، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

أهمية تدريب النفس على مداومة الإنفاق:

يقول د. عبد الرحمن حسن حبنكة: «إن تدريب النفس على البذل والعطاء مرة بعد مرة يكسبها خلق حب العطاء، ففي المراحل الأولى يكون البذل صعباً على النفس، ثم يسهل شيئاً فشيئاً، ثم يكون حلواً، ثم تزداد حلاوته، حتى يكون ممتعاً للنفس ومسعداً لها، ولقد صور الرسول ﷺ معالجة النفس بهذه الوسيلة تصويراً غريباً ودقيقاً.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد (أي: درعان من حديد) قد اضطرت أيديهما إلى ثُديّهما وتراقيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كلُّ حلقة بمكانها»[1].

هذا الحديث يصور حالة الأنفس تصويراً بديعاً، ويمثلها تمثيلاً بارعاً، فيصور الأنفس لدى محاولات البذل والعطاء في سبيل الله بلابس درعٍ من حديد، وهذا الدرع ضاغطُ على الصدر، وليس له أكمام تنطلق منه اليدان حتى تتحركا بيسر وسهولة

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١١٥ برقم: ١٤٤٣)، ومسلم (٢/ ٧٠٨ برقم: ١٠٢١)، واللفظ له.

وحرية، يضاف إلى ذلك أن اليدين داخل الدروع مشدودتان على الثديين والترقوتين، في حالة تشبه الغُلّ، وكذلك شح الأنفس يأخذ باليدين فيجعلهما مغلولتين إلى العنق.

ويصور الرسول ﷺ أثر التدريب العملي على البذل بقوله: «فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه» أي: انبسطت عنه حلقات الدرع شيئاً فشيئاً، بتكرار تدريب النفس على دفع الصدقة، وينفرج الدرع الحديدي الضاغط شيئاً فشيئاً، حتى تتحرر اليدان تحرراً تاماً، على أن هذا يختلف من إنسان لآخر بحسب استعداد النفس ومقدار التدريب.

هذه الصورة التمثيلية تبرز مدى تأثير عمليات التدريب في اكتساب خلق حب العطاء، ونظيره سائر الأخلاق.

أما الذي لا يعالج نفسه بتحمل مشقة التدريب على اكتساب هذا الخلق، فقد صوره الرسول ﷺ بقوله: «وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها» أي: قلصت الجُنَّة — وهي الدرع — على يديه وأخذت كل حلقة بمكانها فلم تنفرج، لأنه لم يجد من قوة إرادته ما يغلب به شح نفسه، الذي جاء تمثيله في الحديث بالدرع الذي تشتد حلقاته وتقلص على الجسم واليدين معاً، وإنما أدخلت اليدان في الدرع كما جاء في التمثيل، لأنهما أداء العطاء عادة، وإنما ضُمَّتا إلى الصدر والعنق، لأن هذه الصورة هي صورة البخل وهي الصورة التي يُكنَّى بها عن الشح، ولذلك قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فالشحيح الذي يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا ينفق في سبيل الله، إنسان قصير النظر، يعمل ضد مصلحة نفسه، لأن عمله هذا سيجعله يقعد ملوما محسوراً على ما فرط في حق نفسه، وفرط في نصيبه من السعادة التي ينالها المنفقون في سبيل الله»[1].

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (٣٩٠ – ٣٩١) بتصرف.

فلنداوم على الصدقة اليومية:

لكي ننتفع بهذه الوسيلة لابد لنا من دوام الإنفاق في سبيل الله بصورة يومية، فلا يمر علينا يوم إلا ونكون قد تصدقنا فيه.

ولا عذر لأحد في ترك الإنفاق، فالله عز وجل لم يحدد لنا قدراً معيناً نتصدق به بل جعل سبحانه وتعالىٰ الباب مفتوحاً للجميع، كلّ حسب استطاعته ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

فلننفق ولو ما يعادل شق تمرة، قال يزيد: كان أبو مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة، وفي رواية لابن خزيمة، عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن أبي عبد الله اليزَني أنه كان أول أهل مصر يروح إلى المسجد، وما رأيته داخلاً المسجد قط إلا في كمه صدقة، إما فلوس، وإما خبز، وإما صدقة، قال: حتىٰ ربما رأيت البصل يحمله، قال: فأقول: يا أبا الخير، إن هذا ينتن ثيابك، قال: فيقول: يا ابن أبي حبيب، أما إني لم أجد في البيت شيئاً أتصدق به غيره، إنه حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ظل المؤمن يوم القيامة صدقته»(١).

فإن لم نجد ذلك — وهذا أمر قد يكون مستبعداً على الكثير منا — فهناك حلول بديلة منها: حض الناس على الإنفاق في سبيل الله، وكذلك صنائع المعروف، والسعي في قضاء حوائج المحتاجين.

فالصدقة لابد أن تتوالىٰ وتتابع كل يوم، ولا تكون في وقت السراء والسعة فقط، بل في الضراء والشدة أيضاً، فكما أشرنا أن مقصدها ليس فقط مساعدة الفقراء والمساكين، وإنما أيضاً مساعدة أنفسنا وتخليصها من رق الشح، لذلك كان من صفات المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أخرج الإمام مسلم وغيره عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم

(١) رواه أحمد (٢٩/ ٥٧٩ برقم: ١٨٠٤٣)، وابن خزيمة (٤/ ٩٥ برقم ٢٤٣٢)، وصححه الأرنؤوط.

أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا، والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟»، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا، يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»(١).

وأخرج الإمام مالك في الموطأ أن عائشة رضي الله عنها قد سألها مسكين وهي صائمة. وليس في بيتها إلا رغيف. فقالت لمولاة لها: أعطيها إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطيها إياه، ففعلت، قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت، أو إنسان، ما كان يهدي لنا، شاة وكفنها، فدعتني عائشة فقالت: كلي من هذا، هذا خير من قرصك(٢).

إن النفقة في الشدة والضراء لها عظيم الأثر في تزكية النفس وربطها بالسماء والخروج من رق الأسباب.

يقول رسول الله ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم، قد كان رجل أو كأنه رجل له مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف فتصدق به، وكان رجل ليس له إلا درهمان فأخذ خيرهما فتصدق به»(٣).

إن هذا الدرهم الذي أخرجه صاحب الدرهمين ليس له أثر واضح في تغيير حال الفقراء والمساكين مثل المائة ألف، ولكن أثره على صاحبه يفوق بكثير أثر المائة ألف على صاحبها الموسر.

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٦٢٤ برقم: ٢٠٥٤).

(٢) الموطأ بتحقيق الأعظمي (٥/ ١٤٥١ برقم: ٣٦٥٥)، وقال المحقق: «شاة وكفنها» أي: مطبوخة للأكل.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٢/ ٢٣)، وأحمد في المسند (١٤/ ٤٩٨ برقم: ٨٩٢٩)، والنسائي (٥/ ٥٩ برقم: ٢٥٢٧)، وابن خزيمة (٤/ ٩٩ برقم: ٢٤٤٣)، وابن حبان (٨/ ١٣٥ برقم: ٣٣٤٧)، والحاكم (١٥/ ٥٧٦ برقم: ١٥١٩)، وصححه المناوي في التيسير (٢/ ٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحرص في توجيهاته للصحابة الكرام على مداومة الصدقة مهما كانت الظروف.

عن أم بُجيد رضي الله عنها أنها قالت: «والله إن المسكين ليقوم على بابي فما أجد له شيئا أعطيه إياه»، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجدي له شيئا تعطينه إياه إلا ظلفا محرقا فادفعيه إليه في يده»[1].

وخلاصة القول أنه لابد من المداومة على الإنفاق لنستمر في تحطيم القيود التي تحيط بأنفسنا فنرتقي شيئاً فشيئاً إلى السماء بإذن الله.

فإن قال قائل: ماذا أفعل إن لم أجد فقيراً أو مسكيناً لكي أعطيه صدقتي كل يوم؟!

الحل في غاية السهولة واليسر بإذن الله، وذلك بأن نقوم بتخصيص صندوق في المنزل لهذا الغرض، ونضع فيه صدقاتنا اليومية، وبعد كل فترة نأخذ ما فيه ونعطيه لمن يستحق.

وعلينا أن نبكر بالصدقة لننال دعوة الملكين.

يقول رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[2].

المحروم من حُرِم الخير:

إن الصدقة باب عظيم من أبواب الخير، من فاته فهو المحروم حقاً.

عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال لي النبي ﷺ: «لا توكي فيوكي عليك».

وفي رواية قال: «لا تحصي فيحصي عليك»[3].

يقول ابن حجر في شرحه للحديثين: «والإيكاء شد رأس الوعاء بالوكاء، وهو

---

(١) رواه أحمد (٤٥/ ١٢٨ برقم: ٢٧١٥٠)، وأبو داود (٣/ ١٠٠ برقم: ١٦٦٧)، والترمذي (٣/ ٤٣ برقم: ٦٦٥)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الأرنؤوط، والظلف: بكسر الظاء المعجمة للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس.

(٢) رواه البخاري (٢/ ١١٥برقم: ١٤٤٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٠ برقم: ١٠١٠).

(٣) رواه البخاري (٢/ ١١٣ برقم: ١٤٣٣).

الرباط الذي يربط به، والإحصاء معرفة قدر الشيء وزناً أو عدداً، وهو من باب المقابلة، والمعنىٰ النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب علىٰ العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطي ولا يحسب»[1].

فلا نبخل علىٰ أنفسنا بالخير ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فلنؤمِّن مستقبلنا في الآخرة بالصدقة، ولنعتق أنفسنا من النار بالصدقة، ولنتذكر صهيبا الرومي الذي اشترىٰ رضا الله بماله كله، ففيه وأمثاله نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

إنفاق المال طريق الشهادة:

إننا جميعا نتمنىٰ نيل الشهادة في سبيل الله، ونردد كثيراً: والموت في سبيل الله أسمىٰ أمانينا.

والطريق السهل الميسر لإقناع النفس بالحب الصادق للشهادة والسعي لنيلها يبدأ بتحريرها من أسر الشح المجبولة عليه.

فإذا ما تم ذلك تصبح الدنيا بما فيها صغيرة الحجم عندنا، فنتطلع إلىٰ شيء آخر يرضينا... يقول تعالىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧ – ٢١].

فأي شيء يمكن أن يُجزىٰ به هذا المتصدق ليفرحه؟ المال.. كيف وقد تركه بمحض إرادته؟!

إنه يسمو لأمر آخر ليس له علاقة بالأرض والطين... إنه يسمو لرضا ربه: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٢١].

فالهدف الأساسي من كثرة الإنفاق والمداومة عليه التخلص من جواذب الأرض

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٣/ ٣٠٠).

وتعلق القلوب بالدنيا، فإذا تم ذلك للعبد سهل عليه التضحية بنفسه لنيل رضا ربه، فتراه يسعى إلى نيل الشهادة ما وسعه إلى ذلك سبيلاً.

والآيات التي تقدم الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس عديدة.. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾ [الصف: ١٠ - ١١]، ويقول سبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

فهلّا اقتحمنا العقبة؟!!

فلنبادر بالصدقة... عند طلوع الفجر، وانفلاق الصبح، وعند دخول الليل، وعند المرض، ووقوع البلاء، وعند الدعاء... ولاستجلاب التوفيق والإحسان من رب الأرض والسماء.

وقبل بدء أي عمل مهم... وكلما استغلقت علينا أبواب الفهم والتيسير... وبعد الوقوع في الذنب أو التقصير في حق من الحقوق.

لنتصدق بالليل والنهار... في السراء والضراء... سراً وعلانية.

ولنُذكّر أنفسنا دائما بقول الرسول ﷺ: «ما نقص مال عبد من صدقة»(١).

وأخيراً... فخير الصدقة ما أبقت غنىً:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «خير الصدقة ما أبقت غنىً واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول»(٢).

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٢٩/ ٥٦١ برقم: ١٨٠٣١)، والترمذي (٤/ ٥٦٢ برقم: ٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الأرنؤوط.

(٢) رواه البخاري (٢/ ١١٢ برقم: ١٤٢٦)، ومسلم (٢/ ٧١٧ برقم: ١٠٣٤)، والبزار في المسند (١٦/ ٨٢ برقم: ٩١٤١)، واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل السادس

قيام الليل والتضرع بالأسحار

الفصل السادس
قيام الليل والتضرع بالأسحار

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

فقيام الليل من الوسائل المهمة في إيقاظ الإيمان، داوم عليها الصالحون ممن سبقنا فوجدوا لها أبلغ الأثر في إحياء القلوب.

يقول رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»(١).

ويقول ﷺ: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر؛ فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»(٢).

إنه وقت الغنيمة، ولكن لمن تُعطى؟

«لمن حضر الواقعة...فما يطلع فجر الأجر إلا وقد حاز القوم الغنيمة، وفازوا بالفخر، وحمدوا عند الصباح السُرى، وما عند أهل النوم والغفلة خبر مما جرى...لا تزال القصص تستعرض، ويُوقع بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر، كان أبو سليمان يقول: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

... وسط الليل للمحبين؛ للخلوة بمناجاة حبيبهم، والسَّحر للمذنبين، للاستغفار من ذنوبهم، فوسط الليل خاص لخلوة الخواص، والسحر عام لرفع قصص الجميع، وبروز

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٥٣ برقم: ١١٤٥)، ومسلم (١/ ٥٢١ برقم: ٧٥٨).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥٦٩ برقم: ٣٥٧٩)، وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي (١/ ٢٧٩ برقم: ٥٧٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٨٢ برقم: ١١٤٧)، والحاكم (١/ ٤٥٣ برقم: ١١٦٢)، وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١٢٢٩).

التواقيع لأهلها بقضاء الحوائج، فمن عجز عن مسابقة المحبين في ميدان مضمارها، فلا يعجز عن مشاركة المستغفرين في استغفارهم واعتذارهم... صحائف التائبين خدودهم، ومدادهم دموعهم»[1].

لابديل عن أنات السحر:

إن التعرض لنفحات الله في السحر، واقتسام الغنيمة مع المتهجدين، لمن أعظم وسائل غرس الإيمان في القلوب.

قال ابن الحاج في المدخل: «وفي قيام الليل من الفوائد جملة:

فمنها: أنه يحط الذنوب كما يحط الريح العاصف الورق اليابس من الشجرة.

ومنها: أنه ينور القلب.

ومنها: أنه يحسن الوجه.

ومنها: أنه يذهب الكسل وينشط البدن.

ومنها: أن موضعه تراه الملائكة من السماء، يتراءى مثل الكوكب الدري لأهل الأرض، ونفحة من نفحات قيام الليل تعود على صاحبها بالبركات والأنوار والتحف التي يعجز عنها الوصف»[2].

ويوجه محمد إقبال نصيحة غالية لأهل العلم فيقول: «كن مع من شئت في العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنّةٌ في السَّحَر»[3].

وقد كان - رحمة الله - عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة، التي يقضيها في السَّحَر، ويعتقد أنها رأس ماله، ورأس مال كل عالم ومفكر، لا يستغني عنها أكبر عالم أو زاهد، كان لا يبغي بها بدلا، ولا يعدل بها شيئا، يقول - رحمة الله -: «خذ مني ما شئت يا رب ولكن لا تسلبني اللذة بأنَّة السحر، ولا تحرمني نعيمها».

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٤٩).

(٢) المدخل لابن الحاج (٢/ ١٣٧).

(٣) روائع إقبال للندوي (ص: ٤٦).

بل كان- رحمة الله – يتمنى على الله أن تتعدى هذه الأنة السَّحَرية، والحرقة القلبية، إلى شباب الأمة المتنعمين، فتحرك سواكن قلوبهم، وتنفخ الحياة في هياكلهم»[1].

ويبين سيد قطب أهمية قيام الليل كزاد للدعاة فيقول: «إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية، والاتصال بالله، وتلقي فيضة ونوره، والأنس بالوحدة معه، والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى، وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل، بلا لفظ بشرى ولا عبارة، واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي... إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ، والجهد المرير، الذي ينتظر الرسول ﷺ وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير»[2].

ويقول رحمة الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦]: إن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كد النهار، أشد وطأ وأجهد للبدن ولكنها إعلان لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله، وإيثار للأنس به، ومن ثم فإنها أقوم قيلا، لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها. وإنها لتسكب في القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره.. والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا وتهيؤا، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه.

والله سبحانه وهو يعد عبده ورسوله محمدا ﷺ ليتلقى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم، اختار له قيام الليل[3].

---

(١) روائع إقبال (ص: ٤٦).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٤٥).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٤٥، ٣٧٤٦).

إنه شرفنا:

قال رسول الله ﷺ: «شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه استغناؤه عما في أيدي الناس»(١).

قال المناوي: الشرف لغة العلو، وشرف كل شيء أعلاه، لمّا وقف في ليلِهِ وقتَ صفاءِ ذكرِهِ متذللا متخشعا بين يدي مولاه لائذا بعِزِّ جنابه وحماه شَرَّفَه بخدمته ورَفَعَ قدره عند ملائكته وخواص عباده بِعِزِّ طاعته على من سواه (وعزه استغناؤه عما في أيدي الناس) يعني عدم طمعه فيما في أيديهم فإنه لما أنزل فقره وفاقته برب الناس أعزه بعزه وأغناه بغناه(٢).

فمن يرد الشرف وعلو القدر فعليه بقيام الليل...

ومهما كثرت دعاوى المحبة طُولب أصحابها بالدليل، وشهدت عليهم ساعات الليل فالبينة على من ادعى.

فأهل القيام هم الأشراف بين الناس، أما أهل النوم والغفلة — من أمثالنا — فقد فضحتهم تلك الساعات، فأسقطت ذكرهم، وأدنت شرفهم.

الليل مزرعة الإخلاص:

بالليل يتم الغرس... غرس بذور الإخلاص والصدق، وعلى قدر غرسك سيكون الخير في قلبك، وكلما ازدادت مساحته؛ ازداد توالي الهدايا عليه من كل جانب: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالليل مدرسة الإخلاص، لا يلتحق بها إلا المحبون، ولا يواظب عليها إلا الصادقون.

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٣٦٠ برقم: ٧٩٢١)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وحسنه المنذري (١/ ٢٤٣)، والدمياطي في المتجر الرابح (ص: ٧١)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٩٠٣).

(٢) فيض القدير (٤/ ٢١٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية»[1].

«وإنما فُضلت صلاة الليل على صلاة النهار، لأنها أبلغ في الإسرار، وأقرب إلى الإخلاص، وكان السلف يجتهدون على إخفاء تهجدهم.

قال الحسن: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون علانية أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم عز وجل، ذلك أن الله تعالى عز وجل يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وذلك أن الله تعالى ذكر عبدا صالحا ورضي قوله، فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣]»[2].

وقال محمد بن واسع: «لقد أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه»[3].

وبالليل تخرج الكنوز من القلوب، وتُستفرغ معاني العبودية المخزونة، فالمفترض من كل عابد لله أن تكون له في يومه نظرات وتأملات في القران والذكر، وفي الدعوة والجهاد والحركة وسط الناس، بل وفي الكون الفسيح وما فيه من آيات.

كل هذا وغيره مما يقابل المسلم في حياته اليومية، من شأنه أن يملأ قلبه بمعاني العبودية والخشية لله عز وجل.

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٣/ ٤٦ برقم: ٤٧٣٥).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (برقم: ١٤٠).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

فإذا ما تم له ذلك فأين يُخرج هذه المعاني؟ ومتى يظهرها؟

من أجل هذا وغيره... كان وقت الخلوة بالحبيب، فتخرج فيه معاني الذل والانكسار، والافتقار والخشية... تُكتب الرسائل بالدموع ليحملها نسيم الأسحار إلى من قال: «هل من سائل فأعطيه؟»[1].

القيام من أهم صور الشكر:

فشكر الله عز وجل على نعمه التي لاتعد ولا تحصى غاية من غايات العبودية، والشكر عمل، والعبد الشكور هو الذي يظهر عليه أثر النعمة، وأبلغ أثر للنعمة ينبغي أن يظهر على العبد هو الذل والانكسار والتعظيم لولي النعم ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: ٨ – ٩].

فالآيات تتحدث عن صنفين من الناس، أنعم الله عليهما بنعَمِه... الأول مرَّ بتجربة شديدة، وكان في ضيق وهم فدعا الله بصدق ففرج همه، وكشف كربه، لكنه أعرض عن شكره وعاد إلى غيّه.

أما الآخر فقد سار في طريق الشكر بطول القنوت بالليل، والتضرع لله عز وجل، ويُعقّب القرآن على الحالتين بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تورمت قدماه، فقالت له السيدة عائشة رضي الله عنها لما تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[2].

---

(١) حديث قدسي رواه البخاري (٢/ ٥٣ برقم: ١١٤٥)، ومسلم (١/ ٥٢١ برقم: ٧٥٨).

(٢) رواه البخاري (٦/ ١٣٥ برقم: ٤٨٣٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧٢ برقم: ٢٨٢٠).

بالليل يتم الوصال:

يقول عبد الرحيم الطحان: «تأملت حال الأمة الإسلامية، فرأيت حالتهم تقطع الأكباد وتدمي القلوب، وإذا أراد الإنسان أن يفكر في صلاح الأمة فعليه بالنظر في حال أولها، فلن ينصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فرأيت الهداية في أول هذا الأمر كانت في إصلاح القلوب، وربطها بعلام الغيوب عن طريق قيام الليل وغيره.

ومن العجيب الغريب الذي يلفت أذهان العقلاء أن الله افترض قيام الليل قبل أن تنزل الفرائض، وقبل أن تشرع الحدود، بل قبل أن تفرض الصلوات الخمس، وهذا لأمر عظيم، لأن الإنسان إذا خلا بربه – جلا وعلا – واتصل قلبه بالله في جنح الليل طهر القلب، ونزلت عليه الفوائد، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] إذا طهر القلب فإنه يصبح في حالة استعداد لتلقي كل أمر طاهر بعد ذلك، وإذا كان القلب فيه فساد فلن يتقبل الأوامر الطاهرة إذا وُجِّهت إليه، ولذلك عندما ربُي الرعيل الأول على هذا المعنى خرجت نماذج من جيل فريد، ما عرفت له البشرية نظيراً...

من هنا قال أئمتنا الكرام: من رحمة الله بالحدث والشاب أن يوفق في بدايته لرجل من أهل السنة، ليربط قلبه بالله عز وجل وليعرفه الطريق المستقيم، ثم بعد ذلك يقبل على العلوم، ويأخذ منها وينهل، فعن جندب بن عبد الله قال:«كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا»(١).

وتعلم الإيمان يكون عن طريق الخلو مع الرحمن جلَّ وعلا في جوف الظلام؛ لأن القلب إذا طهر، واتصل بالله جلَّ وعلا تطهرت سائر الجوارح، وقد ربَّى الله جلَّ وعلا هذه الأمة على هذا المعنى، ففي صحيح البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٤٢ برقم: ٦١)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٢)، والألباني في صحيح ابن ماجه.

أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[١].

لو تفكر الإنسان في شرع الرحمن: حُرِّم الخمر في العام الثاني من الهجرة، بعد البعثة بخمس عشرة سنة، وفرض الله الحجاب في العام السادس من الهجرة، بعد تسع عشرة سنة من بعثة النبي ﷺ... لماذا كان يركز على القلب؟! لأن الظاهر يُغير بعد هذا بإشارة، فلا بد من تطهير القلب وربطه بالرب»[٢].

هكذا كان أسلافنا:

دخل على السيدة عائشة رضي الله عنها يوماً عبيد بن عمير وعطاء فسألاها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال فسكتت ثم قالت لما كان ليلة من الليالي قال «يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي» قلت والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك قالت فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت فلم يزل يبكي حتى بل حجره قالت ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته قالت ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر قال «أفلا أكون عبدا شكورا لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[٣].

وقالت رضي الله عنها لرجل: «لا تدع قيام الليل؛ فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض- أو قالت كسل- صلى قاعداً»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٨٥ برقم: ٤٩٩٣).

(٢) رهبان الليل لسيد العفاني (٢/ ٣٤، ٣٦).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠)، وصححه الأرنؤوط.

(٤) رواه أحمد (٤٣/ ٢١٨ برقم: ٢٦١١٤) وأبو داود (٢/ ٤٧٦ برقم: ١٣٠٧)، وابن خزيمة (٢/ ١٧٧ برقم: ١١٣٧)، والحاكم (١/ ٤٥٢ برقم: ١١٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

وما كان رسول الله ﷺ يترك قيام الليل في السفر، فعن حميد بن عبد الرحمن قال: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ: والله لأرقبن رسول الله ﷺ للصلاة حتى أرى فعله، فلما صلى صلاة العشاء وهي العتمة، اضطجع هوياً من الليل ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤]، ثم أهوى رسول الله ﷺ إلى فراشه فاستل منه سواكا، ثم أفرغ في قدح من إداوة عنده ماء فاستن، ثم قام فصلى حتى قلت: قد صلى قدر ما نام، ثم اضطجع، حتى قلت: قد نام قدر ما صلى، ثم استيقظ ففعل كما فعل أول مرة، وقال مثل ما قال، ففعل رسول الله ﷺ ثلاث مرات قبل الفجر[(١)].

أما في الشدائد فكان ﷺ له مع القيام والتضرع شأن آخر... انظر إليه ﷺ يوم بدر.

يقول علي رضي الله عنه: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح».

وفي رواية: «فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح»[(٢)].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: «بات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة هناك، ويكثر في سجوده أن يقول: «يا حي يا قيوم»، يكرر ذلك، ويلظّ ﷺ بقيام الليل، والبكاء، حتى الصباح، والدعاء، والاستغاثة بطلب النصر "اللهم إني أنشدك

---

(١) رواه النسائي (٣/ ٢١٣ برقم: ١٦٢٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٩٩ برقم: ١٠٢٢)، وابن خزيمة (٢/ ٥٢ برقم: ٨٩٩)، وابن حبان (٦/ ٣٢ برقم: ٢٢٥٧)، وحسنه الأرنؤوط.

عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تُعْبد بعد اليوم»[1].

يصلي هو وأبو بكر، ويقول في صلاته: «اللهم لا تودع مني، اللهم لا تخذلني، اللهم لا تترني، اللهم أنشدك ما وعدتني»[2].

«اللهم هذه قريش، أتت بخيلائها وفخرها، تجادل وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني»[3].

يقول ابن مسعود: ما سمعنا مناشداً ينشد ضالة أشد مناشدة من محمد لربه يوم بدر: «اللهم إني أنشدك ما وعدتني»[4].

يدعو حتى يسقط رداءه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله – عز وجل-: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، فأمده الله بالملائكة[5].

وكذلك كان الصحابة ومن سار على نهجهم، يقول عنهم ابن القيم:

القانتون المخبتون لربهم	الناطقون بأصدق الأقوال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم	بتلاوة، وتضرع، وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم	مثل انهمال الوابل الهطال
في الليل رهبان وعند جهادهم	لعدوهم من أشجع الأبطال
وإذا بدا علم الرهان رأيتهم	يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود لربهم	وبها أشعة نوره المتلالي

(١) جزء من حديث البخاري (٤/ ٤١ برقم: ٢٩١٥).
(٢) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٣٦٢ برقم: ٢٨٧٢).
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢١).
(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٤٧ برقم: ١٠٢٧٠).
(٥) رواه أحمد (١/ ٣٣٤ برقم: ٢٠٨) وغيره عن عمر بن الخطاب.

ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم في سورة الفتح المبين العالي

وبرابع السبع الطوال صفاتهم قوم يحبهم ذوو إدلال

وبراءة والحشر فيها وصفهم وبهل أتى وبسورة الأنفال[1].

جاءت هند زوج أبي سفيان ﭬ زوجها صبيحة فتح مكة، فقالت له: «أريد أن أبايع محمدا ﷺ»، قال أبو سفيان: «قد رأيتك تكفرين»، قالت: «إي والله! والله ما رأيت الله تعالىٰ عُبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً»[2].

ولما هُزمت جنود هرقل أمام المسلمين، قال لهم: «فما بالكم تنهزمون؟!» فقال شيخ من عظمائهم: «من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار»[3].

وقال العباس بن عبد المطلب ﭬ: «كنت جارا لعمر بن الخطاب ﭬ، فما رأيت أحداً من الناس كان أعظم من عمر، إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام وفي حاجات الناس»[4].

وطلب معاوية بن أبي سفيان ﭬ من ضرار بن ضمرة الكناني وَصْف علي بن أبي طالب ﭬ فكان مما قال: «يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه، يُعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما جشب[5]، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه ويلبينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ولا نبتدئه تعظمة، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يُعظِّم أهل الدين ويحب المساكين، لا يُطمع القوي في باطله ولا يُيئس الضعيف من عدله، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد

---

(١) إغاثة اللهفان.

(٢) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب عن هشام بن عروة (٦/ ٢٩٣ – دار الفكر)، وغيره من أصحاب السير.

(٣) المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٤/ ٩١ برقم: ١٢٥٩).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٥٤).

(٥) جشب الطعام: غلظ وخشن.

أرخى الليل سرباله وقد غارت نجومه وقد مثُل في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه وهو يقول يا دنيا يا دنيا إياي أردت أم بي تشوقت هيهات هيهات غري غيري لا حان حينك قد بِنتُكِ[1] ثلاثا لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»[2].

وقيل للحسن البصري: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهاً؟! قال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره»[3].

وقال عبد الرحمن بن زيد: «كنا في غزاة وكان عطاء الخرساني يحيي الليل صلاة، فإذا مضى من الليل ثلثه أو نصفه، أقبل علينا ونحن في فسطاطنا فنادى: قوموا فتوضئوا وصِلوا صيام هذا النهار بقيام هذا الليل، فهو أيسر من مقطعات الحديد، وشراب الصديد، الوحاء الوحاء، النجاء النجاء، ثم يقبل على صلاته»[4].

ويقول الحافظ ابن كثير عن الملك الشهيد نور الدين محمود زنكي – رحمه الله-: «كان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهال في الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل في أموره كلها، وكان يقول في سجوده: «اللهم ارحم المكَّاس العشَّار الظالم محمود»، وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون تكثر القيام في الليل، فنامت ذات ليله عن وردها، فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل وأعطى الضارب على الطبلخانة أجراً جزيلاً وجراية كثيرة»[5].

وقال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: «بينما أنا ساجد إذ ذهب بي النوم، فإذا أنا بالحوراء، قد ركضتني برجلها، فقالت: يا حبيبي، أترقد عيناك، والملك

---

(١) بنتك: فارقتك.

(٢) مقتل علي لابن أبي الدنيا (برقم: ١٠٥).

(٣) مختصر قيام الليل للمروزي (١/ ٥٨).

(٤) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٢٢٥٠).

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٧٩ – دار الفكر).

يقظان، ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم؟ بؤساً لعين آثرت لذة النوم على مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ، ولقي المحبون بعضهم بعضاً، فما هذا الرقاد؟! حبيبي وقرة عيني، أترقد عيناك وأنا أُربى لك في الخدور منذ كذا وكذا؟! فوثبت فزعاً، وقد عرقت استحياء من توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي»[1].

وقال بعضهم: «ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة»[2].

ويؤكد يحيى بن معاذ على أهمية هذه الوسيلة فيقول: «ما وجدنا في الفضائل عملاً أفضل من قيام الليل، ولا ورثوا عن شيء من تلك الأعمال ما ورثوا عن قيام الليل، به وجدوا القلوب، وزايلوا الذنوب، ووقعوا على الطريق إلى علام الغيوب»[3].

ما أحلاها لحظات!

ما أحلاها لحظات الانكسار والندم، واستشعار الفقر والحاجة إلى من بيده ملكوت كل شيء...

ما أحلاها من لحظات تستشعر فيها قربك من مولاك، وتستنشق فيها نسيم الأسحار...

ما أحلاها من لحظات وأنت تنظر في الساعة فتجد أن الوقت قد حان، وأن السائلين قد بدؤوا في تقديم الطلبات، فتنفض النوم عن وجهك، وتسرع إلى المحراب تتذلل إلى مولاك، وتسأله مسألة المسكين، وتستغيث به استغاثة الخائف الضرير، تعود فيها إلى أصل ضعفك، وتنسى عوارض قوتك .. تلح في الدعاء، وتذرف الدمع لعله يرى صدقك وفقرك ومسكنتك فيعطيك من خزائنه ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ١٨٣ برقم: ٧٠٢).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٧١).

(٣) رهبان الليل للعفاني (ص: ١١٨٨).

أتراه يردك عن بابه وما أيقظك سواه؟!

أجب مولاك وقل: نعم يا رب أنا السائل فأعطني، وأنا المستغفر فاغفر لي، وأنا العاري فاكسُني، وأنا الجائع فأطعمني، وأنا الضال فاهدني، وأنا الحائر فأرشدني، وأنا الفقير فأغنني، وأنا الذليل فأعزني، وأنا الضعيف فقوني.

أدمن قرع الباب، وأَلِحَّ في دعائك واستغث بمولاك استغاثه المشرف على الغرق، وفر إلية فرار الخائف الوجل.

سهام السحر لا تخطئ:

سأل داود جبريل، فقال: «يا جبريل، أي الليل أفضل؟»، قال: «يا داود ما أدري، إلا أن العرش يهتز من السَحَر»[1].

وقال سفيان: «إن لله ريحاً مخزونة تحت العرش، تهب عند الأسحار، فتحمل الأنين والاستغفار»[2].

وتذكر قول حسن البنا – رحمه الله –: «إن دقائق الليل غالية، فلا تضيعوها بالغفلة»[3].

فجهز مطالبك، وحدد أهدافك، وكن خفيف النوم، تنتظر دقات الساعة للخلوة بالحبيب.

لا تستوحش من الظلام عندما ترى الكل نائماً، والكون ساكناً، فالملائكة فرحة بك ناظرة إليك، تؤمن على دعائك.

قال محمد بن قيس: «بلغني أن العبد إذا قام من الليل للصلاة، تناثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، وهبطت عليه الملائكة لتستمع إلى قراءته، واستمع له عُمَّار داره، وسكان الهواء، فإذا فرغ من صلاته وجلس للدعاء، أحاطت به الملائكة

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٣٦٥).

(٢) ذكره ابن الجوزي في المدهش (ص: ٤٣٢ – دار الكتب العلمية بيروت).

(٣) الرقائق للراشد.

تؤمِّن علىٰ دعائه، فإن هو اضطجع بعد ذلك نودي: نم قرير العين مسروراً، نم خير نائم علىٰ خير عمل»[1].

قلت لليل كم بصدرك سر أنبئني ما أروع الأسرار

قال ما أضاء في ظلامي سر كدموع المنيب بالأسحار

لا تترك الكنز:

لو بلغنا أن هناك كنزا من المال والذهب ينتظر من يأتيه قبل الفجر لينال منه ما يريد... هل يغمض لنا جفن؟

فما بالنا نضيع كل يوم كنزاً حقيقياً، ويسبقنا إليه السابقون، الذين استشعروا قيمته، فباتوا سجداً قياماً ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

يقول ابن رجب: «الليل منهل يرده أهل الإرادة كلهم، ويختلفون فيما يردون، قد علم كل أُناس مشربهم، فالمحب يتنعم بمناجاة محبوبه، والخائف يتضرع لطلب العفو ويبكي علىٰ ذنوبه، والراجي يلح في سؤال مطلوبه، والغافل المسكين أحسن الله عزاءه في حرمانه، وفوات نصيبه»[2].

وصية البنا:

يقول – رحمه الله-: «يا أخي، لعل أطيب أوقات المناجاة أن تخلو بربك والناس نيام، والخَلِيُّون هُجَّع، قد سكن الكون كله، وأرخىٰ الليل سدوله، وغابت نجومه، فتستحضر قلبك، وتتذكر ربك وتتمثل ضعفك، وعظمة مولاك، فتأنس بحضرته، ويطمئن قلبك بذكره، وتفرح بفضله ورحمته، وتبكي من خشيته، وتشعر بمراقبته، وتلح في الدعاء، وتجتهد في الاستغفار، وتفضي بحوائجك لمن لا يعجزه شيء، ولا يشغله شيء عن شيء، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وتسأله دنياك وآخرتك،

---

(١) مختصر قيام الليل للمروزي (١/ ٦٦).

(٢) لطائف المعارف (ص: ٥٠).

وجهادك ودعوتك، وأمانيك، ووطنك وعشيرتك، ونفسك، وإخوانك ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦][(١)].

اسجد واقترب:

أخي.. لنطل القيام، وكذا السجود، ولنتذكر قول الله عز وجل: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

ولنعلم جميعاً أنه بدون العمل بهذه الوسيلة ستظل المسافة بعيدة بيننا وبين مولانا، فقيام الليل هو التطبيق العملي لما تعلمناه من القرآن، وفيه يكون للتلاوة طعم خاص.

إن هذه الوسيلة التي تجمع بين تدبر القرآن، وما فيه من كنوز، وبين الركوع والسجود، وما فيها من معاني الذل والخضوع والانكسار لله عز وجل ... لمن أهم وسائل إحياء القلوب، والشعور الحقيقي بالقرب منه – سبحانه، يقول رسول الله ﷺ «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات ومطردة للداء عن الجسد»[(٢)].

ولا ينبغي أن تفوتنا ليلة دون قيام – مهما كانت الظروف– والأفضل أن نستيقظ قبل طلوع الفجر بوقت كاف للتهجد والاستغفار، ومن تحول ظروفه دون ذلك –لعذر طارئ ألم به – وخشي عدم الاستيقاظ في هذا الوقت، فليكن قبل النوم، على سبيل الاستثناء .. فلا بديل عن أنَّة السحر.

من معينات القيام:

هناك أمور كثيرة تعين العبد – بإذن الله – على قيام الليل، ذكرها العلماء في كتبهم، في مقدمتها أمران:

الأول: وجود رغبه أكيدة للقيام يتم ترجمتها بدعاء الله – سبحانه وتعالى –

---

(١) رسالة المناجاة لحسن البنا.

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥٥٢ برقم: ٣٥٤٩) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٨ برقم: ٦١٥٤)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ١٢٢٧).

والإلحاح عليه أن يعيننا على الاستيقاظ.

يا رجال الله جدوا   رب صوت لا يرد

لا يقوم الليل إلا   من له عزم وجد

والثاني: أن نعمل على قطع صلة قلوبنا بالدنيا قبل النوم، من خلال ممارسة وسيلة من وسائل استجلاب الخوف من الله – والتي أشرنا إليها سابقاً –، فلقد كان رسول الله ﷺ يُذكِّر الناس بالآخرة في الليل، لتنهض هممهم، فعن قبيصة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه»[1].

ولا ننسى النوم على طهارة مع ترديد أذكار النوم.

وعندما يمن الله علينا بالاستيقاظ، علينا أن نجلس مع أنفسنا بضع دقائق قبل أن نشرع في الصلاة، نتذكر فيها ذنوبنا، وحاجتنا إلى عفو الله عز وجل ومغفرته؛ كي نقبل على الصلاة بقلوب وجلة مشفقة، طالبة العفو منه سبحانه، ونستمر على ذلك حتى ترق قلوبنا، وتشعر بالحنين الدائم إلى مناجاته، وعندها لن نحتاج إلى مثل هذه الجلسات إلا عندما نشعر بشيء من القسوة في قلوبنا، كما قال بعض السلف: «متى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق».

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٥/ ١٦٥ برقم: ٢١٢٤١)، والترمذي (٤/ ٦٣٦ برقم: ٢٤٥٧)، وقال: هذا حديث حسن، والحاكم (٢/ ٤٥٧ برقم: ٣٥٧٨)، واللفظ له، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

الفصل السابع

الصيام

الفصل السابع
الصيام

أشرنا سابقاً إلىٰ أن الدافع للعمل إما الإيمان أو الهوىٰ، وعندما نسعىٰ لإيقاظ الإيمان في قلوبنا فإننا نريد أن نصل به إلىٰ الدرجة التي يعلو فيها علىٰ الهوىٰ، فتنطلق الأعمال مستجيبة له.

والوسائل التي تم ذكرها في هذا الكتاب تؤثر في كفة الإيمان بالزيادة، أما الوسيلة التي نحن بصددها هنا وهي الصيام فإنها تؤثر علىٰ كفة النفس وهواها بالسلب، وبذلك يزداد الإيمان والله أعلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالصوم: «إعدادٌ للأمة التي فُرِض عليها الجهاد في سبيل الله، لتقرير منهجه في الأرض، لتستعلي علىٰ ضرورات الجسد كلها، ولتحتمل مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك، والذي تتناثر علىٰ جوانبه الرغبات والشهوات»[(١)].

ذلك لأن الصوم أعظم مربٍّ للإرادة وكابح لجماح الأهواء.

والصوم لا مثيل له قال رسول الله ﷺ: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له»[(٢)].

والصوم كفارة للخطايا .. قال ﷺ: «فتنه الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[(٣)].

ويكفي الصائم تشريف الله والملائكة له بالصلاة عليه، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل وملائكته يصلون علىٰ المتسحرين»[(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٦٧).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٦/ ٤٥٤ برقم: ٢٢١٤٠)، والنسائي (٤/ ١٦٥ برقم: ٢٢٢٠)، وابن حبان (٨/ ٢١٢ برقم: ٣٤٢٥)، وصححه الأرنؤوط.

(٣) رواه البخاري (١/ ١١١ برقم: ٥٢٥)، ومسلم (٤/ ٢٢١٨).

(٤) رواه أحمد في المسند (١٧/ ١٥٠ برقم: ١١٠٨٦) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ورواه ابن حبان في صحيحه ٨/ ٢٤٦

والصوم جُنَّه من النار، قال رسول الله ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه بين النار خندقاً كما بين السماء والأرض»(١).

وقال: «إن في الجنة بابا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد»(٢).

خطورة الشبع:

عن المقداد بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ بن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفَسِه»(٣).

وعن أبي جحيفه ﷺ قال: «أكلت خبز بُر بلحم سمين، فأتيت النبي ﷺ، فتجشأت»، فقال: «احبس — أو اكفف — جشاءك، فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة»(٤).

قال الحليمي: «وكل طعام حلال فلا ينبغي لأحد أن يأكل منه ما يثقل بدنه، فيحوجه إلى النوم، ويمنعه من العبادة، وليأكل بقدر ما يسكن جوعه، وليكن غرضه من

برقم: ٣٤٦٧ عن ابن عمر ﷺ، وصححه الأرنؤوط.

(١) رواه الترمذي (٧/ ١٦٧ برقم: ١٦٢٤) وقال: حديث غريب، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٥ برقم: ٧٩٢١)، . وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٢)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٥٦٣).

(٢) رواه البخاري (٣/ ٢٥ برقم: ١٨٩٦)، ومسلم (٢/ ٨٠٨ برقم: ١١٥٢).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٨/ ٤٢٢ برقم: ١٧١٨٦)، والترمذي (٤/ ٥٩٠ برقم: ٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤/ ٤٤٨ برقم: ٣٣٤٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٤٩ برقم: ٦٧٤)، والحاكم (٤/ ٣٦٧ برقم: ٧٩٤٥) وصححه ووافقه الذهبي، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٦٦٥).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الجوع (برقم: ١٩) عن أبي جحيفة ﷺ، ورواه الترمذي (٤/ ٦٤٩ برقم: ٢٤٧٨) وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه (٤/ ٤٤٩ برقم: ٣٣٥٠) عن ابن عمر ﷺ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٤٥ برقم: ٥٢٦٠) عن أنس بن مالك ﷺ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٤٣).

الأكل أن يشتغل بالعبادة ويقوىٰ عليها»[1].

من فوائد عدم الشبع:

لقد ذكر الإمام الغزالي في الإحياء الكثير من فوائد عدم الشبع، نذكر منها:

١. صفاء القلب، وإيقاد القريحة، وإنفاذ البصيرة؛ فإن الشبع يورث البلادة، ويثقل القلب، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه، وفسد ذهنه، وصار بطيء الفهم والإدراك... ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

٢. رقة القلب وصفاؤه، الذي به يتهيأ به لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب، ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر، كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب، قال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة.

٣. الانكسار والذل، وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالىٰ، فلا تنكسر النفس ولا تُذل بشيء كما تُذل بالجوع، فعندها تسكن لربها، وتخشع له، وتقف على عجزها وذلها.

٤. وهي من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوىٰ، ومادة القوىٰ والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يُضعف كل شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد قضاء نبيها ﷺ: الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فتصعبت قلوبهم، وجمحت شهواتهم»[2].

---

(١) شعب الإيمان (٥/ ٢٢).

(٢) روى ابن أبي الدنيا نحوه في الجوع (برقم: ٢٢).

وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج، وشهوة الكلام، فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام؛ فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة، والفحش، والكذب، والنميمة، وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك.

وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها، وإن شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف لم يملك فِكْره، فيخطر له من الأفكار الرديئة، وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

٥. دفع النوم، فإن من شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه، وفي كثرة النوم ضياع العمر، وفوات التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد وفيه يتجر، والنوم موت؛ فتكثيره يُنقص العمر، ثم فضيلة التهجد وفي النوم فواتها.
٦. يستفيد من قله الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل ثم إن المريض يُمنع من العبادات، ويُشوش القلب، ويمنع من الذكر والفكر، وينغص العيش، ويحوج إلى الدواء والطبيب، وفي التقليل من الطعام ما يمنع ذلك كله.
٧. خفة المؤونة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال القدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له، آخذاً بمخنقه كل يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم؟»[١].

وخطب عمر يوماً فقال: «أيها الناس، إياكم والبطنة من الطعام، فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسد، مورثة للسقم، وأن الله تبارك وتعالى يبغض الحبر السمين، ولكن عليكم بالقصد في قوتكم، فإنه أدنى من الإصلاح، وأبعد من السرف، وأقوى على عبادة الله، وإنه لن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه»[٢].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٠-١٣٤ بتصرف).
(٢) الجوع لابن أبي الدنيا (برقم: ٨١).

وقال الفضيل بن عياض: «ثنتان تقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل»[1].

وقال لقمان لابنه: «لا تأكل شبعا على شبع، وألق فضلك للكلب»[2].

وقال عبد الواحد بن زيد: «من قوي على بطنه قوي على دينه، ومن قوي على بطنه قوي على الأخلاق الصالحة، ومن لم يعرف مضرته في دينه من قبل بطنه فذاك رجل في العابدين أعمى»[3].

حد الاعتدال في الطعام والشراب:

يقول ابن قدامة المقدسي: «وقد بالغ من الزهاد في التقليل من الأكل، والصبر على الجوع... ومقام العدل في الأكل رفع اليد مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام الحسن قوله ﷺ: «ما ملأ بن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفَسِه»[4].

فالأكل في مقام العدل يصح البدن، وينفي المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، والدوام على التقليل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس ذلك، ومن مدح الجوع فإنما أشار إلى الحالة التي ذكرناها.

وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن: أن من تعود استدامة الشبع فينبغي له أن يقلل من مطعمه يسيراً يسيراً مع الزمان، إلى أن يصل إلى حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوسطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر،

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان (١/ ٤٣).

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في الجوع (برقم: ٧٤).

(٣) حلية الأولياء (٦/ ١٥٧).

(٤) رواه أحمد في المسند (٢٨/ ٤٢٢ برقم: ١٧١٨٦)، والترمذي (٤/ ٥٩٠ برقم: ٢٣٨٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤/ ٤٤٨ برقم: ٣٣٤٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٤٩ برقم: ٦٧٤)، والحاكم (٤/ ٣٦٧ برقم: ٧٩٤٥) وصححه ووافقه الذهبي، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٦٦٥).

ومن زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ، حتى يغطي مكان الفكر وموضوع الذكر، ويجلب أمراضاً أخرى»[1].

خير الهدي هدي محمد ﷺ:

يقول ابن رجب: «وكان النبي ﷺ يتوسط في إعطاء نفسه حقها، ويعدل فيها غاية العدل، فيصوم ويفطر، ويقوم وينام، وينكح النساء، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ولحم الدجاج، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر، وقال ﷺ: «عرض عليَّ ربي يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أجوع يوماً واشبع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[2] فاختار لنفسه أفضل الأحوال ليجمع بين مقامي الشكر والصبر والرضا»[3].

وخلاصة القول: أن النفس تطغى، ويزداد خلودها إلى الأرض كلما ازداد شبعها، وفي المقابل فإنها لا تنكسر بسلاح أقوي من سلاح الجوع، فالمطلوب منا ألا نصل إلى حد الشبع المذموم -كما ذكر العلماء فيما مر علينا-، وأن نستخدم سلاح الجوع كل فترة لنسيطر على النفس أكثر وأكثر، فيُستحب صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، والمداومة على ذلك، فقد كان النبي ﷺ يتحرى صيامهما، كما روت ذلك عائشة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما[4].

ومن لم يستطع صيامهما فليصم ثلاث أيام من كل شهر، وذلك أن الله جعل الحسنة بعشر أمثالها، فثلاثة أيام من الشهر كأنها صيام الشهر كله، وكان النبي ﷺ يصومها، ويحض على صيامها، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاث أيام من كل شهر، وصلاة الضحى،

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ١٧٧-١٧٨).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٦/ ٥٢٨ برقم: ٢٢١٩٠)، والترمذي (٤/ ٥٧٥ برقم: ٢٣٤٧)، وقال: حديث حسن.

(٣) لطائف المعارف (ص: ١٣٩-١٤٠).

(٤) رواه أحمد عن عائشة رضي الله عنها (٤١/ ٥٢ برقم: ٢٤٥٠٨)، والترمذي (٣/ ١١٢ برقم: ٧٤٥)، وقال: وفي الباب عن حفصة وأبي قتادة وأبي هريرة وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، وصححه الأرنؤوط.

ونوم على وتر»[1].

ومع هذه الأيام المباركة لا ننسي صيام يوم عرفه، والتاسع والعاشر من محرم، وست من شوال وكذلك الإكثار من الصيام في شعبان وعشرة ذي الحجة والمحرم.

(١) رواه البخاري (٢/ ٥٨ برقم: ١١٧٨)، ومسلم (١/ ٤٩٨ برقم: ٧٢١).

الفصل الثامن

التعلق بالمساجد

الفصل الثامن
التعلق بالمساجد

يقول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فالآية تتحدث عن نور الله عز وجل، وأنه سبحانه يهدي إليه من يشاء من عباده، فمن هم هؤلاء الذين تفضل عليهم المولىٰ عز وجل بتلقي نوره؟

الإجابة واضحة في الآيات التي تليها ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

فلا يكفي وجود الرجال بالصفات التي حددتها هذه الآيات للحصول علىٰ النور، بل لابد لهم من تلقيه في المساجد، ولم لا؟! وهي بيوت الله في الأرض، وعمارها زوارها، وحق علىٰ المزور أن يكرم زائره.

فعن سلمان ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتىٰ المسجد فهو زائر لله، وحق علىٰ المزور أن يكرم الزائر»[1].

وقال ابن عباس: «المساجد بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض»[2].

فمن أراد أن يشرق قلبه بنور الإيمان فعليه أن يتصف بصفات هؤلاء الرجال، والتي منها عمارة المساجد، وليس المقصود بالعمارة أداء الصلوات فيها فقط، ولكن لابد

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٣ برقم: ٦١٣٩)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٣٥)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١١٦٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٢ برقم: ١٠٦٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٨٠ برقم: ٢٦٨٧).

كذلك من تعلق قلبه بها، كما في حديث السبع الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «... ورجل قلبه معلق في المساجد»[1].

قال النووي في شرحه: «معناه شديد الحب لها والملازمة للجماعة فيها، ليس معناه دوام القعود في المسجد»[2].

وقال ابن حجر في الفتح: «ظاهره أنه من التعلق، كأنه شبه بالشيء المعلق في المسجد، كالقناديل مثلاً، وإشارة إلى طول الملازمة بقلبه، إن كان جسده خارجاً عنه، ويدل عليه رواية الجوزقي: كأنما قلبه في المسجد»[3].

علاقة المسجد بالسير إلى الله عز وجل:

ومما يدل على أن كثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة فيها من وسائل ربط القلوب بالله ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحوا الله بها الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: «بلى يا رسول الله» قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[4].

يقول القرطبي: «المرابطة عند العرب: العقد على الشيء حتى لا ينحل فيعود إلى ما كان صبر عنه، فيحبس القلب على النية الحسنة، والجسم على فعل الطاعة»[5].

وفي لسان العرب: «الرباط اسم لما يُربط به الشيء أي يُشد يعني أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عن المحارم»[6].

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٣٣ برقم: ٦٦٠)، ومسلم (٢/ ٧١٥ برقم: ١٠٣١).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ١٢١).
(٣) فتح الباري (٢/ ١٤٥).
(٤) رواه مسلم (١/ ٢١٩ برقم: ٢٥١).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠٦).
(٦) لسان العرب (٣٠٢/٧).

حاجة القلوب إلى الرباط:

لقد سُمي القلب قلباً من كثرة تقلبه فهو أشد تقلباً من القدر في غليانها.

يقول النبي ﷺ: «إنما سُمِّي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب مثل الريشة في الفلاة، تعلقت في أصل شجرة، يُقَلِّبها الريح ظهراً لبطن»(١).

وقلب المؤمن يتقلب من حالة إلى حالة؛ نتيجة التنازع المستمر بين داعي الإيمان وداعي الهوى، وبين إلهام الملك ووسوسة الشيطان، لذلك كان من عامه دعائه ﷺ «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(٢).

فثبات القلب هو عدم تقلبه عن الحالة التي هو عليها.

يقول تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

فلولا أن ثبَّت الله قلب أم موسى، وربطه على الإيمان والسكينة، لكانت من الفزعين.

وعندما دعا موسى ربه لينزل العقاب على فرعون قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

لقد طلب من الله — سبحانه وتعالى — أن يثّبت قلب فرعون وملئه على الحالة التي وصلوا إليها من الكفر والطغيان، ويربطه على ذلك حتى يلاقوا مصيرهم الأليم.

فربط القلب معناه تثبيته على وضعه أياً كان، وفي حديث محو الخطايا ورفع الدرجات ذكر النبي ﷺ ثلاث أشياء من شأنها أن تربط القلب على الإيمان.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعا (٣٢/ ٤٣١ برقم: ١٩٦٦١)، والبزار (٨/ ١٦٧ برقم: ١٣٩١)، وصحح الأرنؤوط روايته موقوفا.

(٢) رواه أحمد (٤٤/ ١٣٨ برقم: ٢٦٥١٩)، والترمذي: (٥/ ٤٢٣ برقم: ٣٥٢٢) عن أم سلمة رضي الله عنها ،وقال حديث حسن، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٢٠٩١).

عن داوود بن صالح قال: قال لي أبي سلمة بن عبد الرحمن: «يا ابن أخي هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]؟» قلت: لا، قال: «يا ابن أخي إني سمعت أبا هريرة يقول: إنه لم يكن يا ابن أخي على عهد رسول الله ﷺ غزو يرابَط فيه ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة»[١].

فضل الارتباط بالمساجد:

إن المتأمل لأحاديث رسول الله ﷺ عن فضل الارتباط بالمسجد يجد الثواب العظيم في فضل المشي إليها، وأداء الصلوات فيها، وطول المكث بها، وهذا مما يدل على أن المسجد ينبغي أن يحتل مساحة معتبرة في الحياة اليومية للمسلم، وأن يرتب أموره وارتباطاته الحياتية عليه.

ومن هذه الفضائل:

زيادة الحسنات ومحو السيئات:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة، وخطوة تُكتب له حسنه، ذاهباً وراجعاً»[٢].

الحياة الطيبة وحسن الخاتمة:

ففي حديث اختصام الملأ الأعلى «... فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الدرجات والكفارات، وفي نقل الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ومن يحافظ عليهن عاش بخير ومات بخير، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٣].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (برقم: ٤٠٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٩ برقم: ٣١٧٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (١١/ ١٧٢ برقم:٦٥٩٩)، وابن حبان (٥/ ٣٨٧ برقم: ٢٠٣٩)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٤٢)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤٢٩)، وصححه الأرنؤوط.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٤٣٧ برقم: ٣٤٨٤)، والترمذي (٥/ ٣٦٦ برقم: ٣٢٣٣، ٣٢٣٤)، وقال حسن غريب، وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ٧٢٥).

ومن هذه الفضائل تبشبش الله له:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوضأ أحد فيحسن وضوءه ويسبغه، ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا تبشبش الله به كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته»(١).

ومنها إعداد النُزُل له في الجنة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح»(٢).

ومنها صلاة الملائكة عليه مادام في مصلاه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاَّه الذي صلى فيه ما لم يحدث: اللهم اغفر، له اللهم ارحمه»(٣).

ومنها البشارة بالنور التام يوم القيامة:

قال النبي ﷺ: «بشر المشّائين في الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»(٤).

ومنها أنه ضامن على - الله عز وجل -:

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة كلهم ضامن على الله إن عاش رُزق وكُفي، وإن مات أدخله الله الجنة: من دخل بيته فسَلَّم فهو ضامن على الله، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله، ومن خرج في سبيل الله فهو ضامن على الله»(٥).

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٣/ ٤٢٧ برقم: ٨٠٦٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٣٧٤ برقم: ١٤٩١)، وابن حبان (٤/ ٤٨٤ برقم: ١٦٠٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٣٢ برقم: ٧٧١)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) رواه البخاري (١/ ١٣٣ برقم: ٦٦٢)، ومسلم (١/ ٤٦٣ برقم: ٦٦٩).

(٣) رواه البخاري (١/ ٩٦ برقم: ٤٤٥)، ومسلم (١/ ٤٥٩ برقم: ٦٤٩).

(٤) رواه أبو داود (١/ ٤٢١ برقم: ٥٦١)، والترمذي (١/ ٤٣٥ برقم: ٢٢٣)، وحسنه الأرنؤوط.

(٥) رواه أبو داود (٤/ ١٥٠ برقم: ٢٤٩٤)، وابن حبان (٢/ ٢٥٢ برقم: ٤٩٩) واللفظ له. والحاكم في المستدرك (٢/ ٨٣ برقم: ٢٤٠٠) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (برقم: ٧٢٧).

ومنها أن الله عز وجل يباهي به الملائكة:

عن عبد الله بن عمرو قال: صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع من رجع، وعقّب من عقّب، فجاء رسول الله ﷺ مسرعاً، قد حَفزَه النَفَسُ، قد حسر عن ركبته، قال: «أبشروا معشر المسلمين، هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة، يقول: هؤلاء عبادي، قضوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى»[1].

ومنها حصول الرحمة والجواز على الصراط:

عن أبي الدرداء ﵁ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسجد بيت كل تقي، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالروح والرحمة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله، إلى الجنة»[2].

ومنها علاقة خاصة بالملائكة:

عن عبد الله بن سلام ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إن للمساجد أوتاداً الملائكة جلساؤهم، إن غابوا يفتقدونهم، وإن مرضوا عادوهم، وإن كانوا في حاجة أعانوهم»[3].

فلنربط قلوبنا بالمساجد، ولنجعلها بيوتنا، ولنكن كصحابة رسول الله ﷺ في تعلقهم بها، وشعورهم بالأمان فيها، فقد كانوا إذا فزعوا من شيء أتوا المسجد.

ولنحجز أماكننا بالصف الأول لننال المنزلة العظيمة المعدة لأهله، قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكة يصلون على الصف الأول»[4].

فالصف الأول على مثل صف الملائكة، كما قال رسول الله ﷺ: «والصف الأول

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ٣٦٣ برقم: ٦٧٥٠)، وابن ماجه (١/ ٥١٣ برقم: ٨٠١)، والبزار (٦/ ٣٥٧ برقم: ٢٣٦٥)، وقال المنذري (١/ ١٧٢): رواته ثقات، وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه الطبراني (٦/ ٢٥٤ برقم: ٦١٤٣)، وأبو نعيم (١/ ٢١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٨١ برقم: ٢٦٨٩)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٣٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٧١٦).

(٣) رواه أحمد (١٥/ ٢٤٨ برقم: ٩٤٢٤)، عن أبي هريرة ﵁، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٤٠١).

(٤) رواه أحمد في المسند (٣٠/ ٣١٥ برقم ١٨٣٦٤)، والبزار (٨/ ١٨٩ برقم: ٣٢٢٤) عن النعمان بن بشير ﵁، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٨٧)، وصححه الأرنؤوط.

على مثل صف الملائكة، ولو تعلمون فضيلته لابتدرتموه»[1].

يقول أحمد عبد الرحمن البنا في شرحه للحديث: «مثل صف الملائكة أي في القرب من الله عز وجل، ونزول الرحمة، وإتمامه واعتداله»[2].

وأخيراً فإن اعتياد الذهاب إلى المساجد، والتعلق بها من علامات صدق الإيمان، يقول رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]»[3].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٥/ ١٩١ برقم: ٢١٢٦٦) وأبو داود (١/ ٤١٦ برقم: ٥٥٤)، وابن حبان (٥/ ٤٠٥ برقم: ٢٠٥٦) عن أبي كعب ﷺ، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٦١)، وحسنه الأرنؤوط.

(٢) الفتح الرباني في شرح مسند الإمام أحمد.

(٣) رواه أحمد (١٨/ ١٩٤ برقم: ١١٦٥١)، وابن ماجه (١/ ٥١٣ برقم: ٨٠٢)، والترمذي (٥/ ١٢ برقم: ٢٦١٧) وقال غريب حسن، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٦ برقم: ١٧٢١).

الفصل التاسع

اغتنام مواسم الخيرات

والأوقات الفاضلة

الفصل التاسع
اغتنام مواسم الخيرات والأوقات الفاضلة

يقول الحافظ ابن رجب: «جعل الله سبحانه لبعض الشهور فضلاً على بعض، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خير من ألف شهر، وأقسم بالعشر، وهي عشر ذي الحجة على الصحيح.

وما من هذه المواسم الفاضلة من موسم إلا ولله تعالى وظيفة من وظائف طاعاته يُتَقرب بها إليه، ولله فيها لطيفة من لطائف نفحاته يصيب بها من يشاء من فضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات»[(١)].

عن محمد بن مسلمة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها؛ لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً»[(٢)].

فليرتقب المسلم هذه المواسم، وليجتهد فيها غاية اجتهاده.

فهناك أوقات فاضلة في اليوم والليلة، يطلق عليها العلماء أوقات السير إلى الله، كناية عن شرفها، وهناك أيضاً يوم فاضل من كل أسبوع ألا وهو يوم الجمعة، أما رمضان فله أفضليته عن بقيه الشهور.

الأوقات الفاضلة في اليوم:

هناك أوقات ثلاثة يحثنا الله عز وجل على الاجتهاد فيها ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٣٣) والأوسط (٣/ ١٨٠)، عن محمد بن مسلمة ﷺ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٨٩٠).

ويؤكد على هذا المعنى رسولنا المصطفى ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لن يُنّجي أحداً منكم عمله» قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟!» قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدُّلجَة، والقصد القصد تبلغوا»(١).

وفي موضع آخر للبخاري: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»(٢).

يقول ابن رجب: «يعني أن هذه الأوقات الثلاثة تكون أوقات السير إلى الله بالطاعات، وهي آخر الليل، وأول النهار وآخره، وقد ذكر الله هذه الأوقات في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

.. فهذه الأوقات الثلاثة منها وقتان، وهما: أول النهار وآخره، يجتمع في كل من هذين الوقتين عمل، وهما البَرْدان، اللذان من حافظ عليهما دخل الجنة... وأما عمل التطوع فهو ذكر الله بعد صلاة الصبح، حتى تطلع الشمس، وبعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس، وقد وردت في فضله نصوص كثيرة، وكذلك وردت في النصوص الكثيرة من أذكار الصباح والمساء، وفي فضل من ذكَر الله حين يصبح وحين يمسي، وكان السلف لآخر النهار أشد تعظيماً من أوله، وقال ابن المبارك: بلغنا أنه من ختم نهاره بذكر الله كُتِب نهاره كله ذكراً، وقد جاء في الحديث: «إن الذكر بعد الصبح أحب من أربع رقاب، وبعد العصر أحب من أربع رقاب»(٣).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٨/ ٩٨ برقم: ٦٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩ برقم: ٢٨١٦).

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٦ برقم: ٣٩).

(٣)رواه أحمد عن أبي أمامه رضي الله عنه (٣٦/ ٥٣٢ برقم: ٢٢١٩٤، ٣٦/ ٥٩٠ برقم: ٢٢٢٥٤)، ولفظه: «لأن أقعد أذكر الله وأكبره وأحمده وأسبحه وأهلله حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق رقبتين، أو أكثر من ولد إسماعيل، ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل»، وحسنه الأرنؤوط.

أما الوقت الثالث فهو الدُلجة، والإدلاج: سير آخر الليل، والمراد به هنا العمل في آخر الليل، وهو وقت الاستغفار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وهو آخر وقت النزول الإلهي، المتضمن لاستعراض حوائج السائلين، واستغفار المذنبين وتوبة التائبين.

وورد في بعض الآثار أن «العرش يهتز من السحر»[١]، قال طاووس: «ما كنت أظن أن أحداً ينام في السحر»، وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»[٢].

سير الدلجة آخر الليل يُقْطَع به سفر الدنيا والآخرة، وقد رُوي أن الأشتر دخل علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن هدأة الليل وهو قائم يصلي، فقال: يا أمير المؤمنين! صوم بالنهار، وسهر بالليل وتعب فيما بين ذلك؟! فلما فرغ من صلاته قال: «سفر الآخرة طويل، فيُحتاج إلىٰ قطعه بسير الليل».

كانت امرأة حبيب – أبي محمد الفارسي – توقظه بالليل وتقول: «قم يا حبيب فإن الطريق بعيد وزادنا قليل وقوافل الصالحين قد سارت من بين أيدنا ونحن قد بقينا»[٣].

أهمية الذكر في البكور:

يحدثنا ابن القيم عن أهمية التشمير في وقت البكور، ويحذرنا من تضييعه بالنوم، فيقول رحمه الله: «ومن المكروه عندهم: النوم بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير في ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، حتىٰ لو ساروا طوال ليلهم لم يسمحوا بالقعود ذلك الوقت حتىٰ تطلع الشمس؛ فإنه أول النهار ومفاتحه ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار،

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ٣٦٥).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٣٣ برقم: ٢٤٥٠) وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم (٤/ ٣٤٣) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٩٥٤).

(٣) المحجة في سير الدلجة (ص: ٦٥-٦٧ بتصرف).

وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر»[1].

ولشرف هذا الوقت، وأهميته في السير إلى الله؛ نجد الترغيب الشديد في إحيائه بالذكر، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة»، قال: قال رسول الله ﷺ: «تامة تامة تامة» [2].

وقال ابن القيم: «حضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قُوَّتي... أو كلاماً قريباً من هذا»[3].

فائدة في أسرار الأوقات:

قال الدهلوي: «من ضروريات الدين أن هناك أوقاتاً يحدث فيها شيء من انتشار الروحانيات في الأرض، وسريان قوة مثالية فيها، وليس وقت أقرب لقبول الطاعة واستجابة الدعوات من تلك الأوقات، ففي أدنى سعي ينفتح باب عظيم من انقياد البهيمية للملكية.

ثم ضرب مثالاً لهذا بالوقت من نصف الليل إلى السحر، ثم قال: ففي تلك الأوقات، وقبلها بقليل، وبعدها بقليل، تنتشر الروحانية، وتظهر البركة، وليست في الأرض ملة إلا وهي تعلم أن هذه الأوقات أقرب شيء من قبول الطاعات»[4].

وصية البنا:

يقول الإمام حسن البنا: «أيها الأخ العزيز، أمامك كل يوم لحظة بالغداة، ولحظة

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٢٤٨).

(٢) رواه الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا (١/ ٧٢٧ برقم: ٥٨٦) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٤٠٣).

(٣) الوابل الصيب (ص:٤٢).

(٤) حجة الله البالغة لشاه ولي الله الدهلوي (١/ ٩٨ -١٠٠ - دار التراث)نقلا عن رهبان الليل (٢/ ٣٢).

بالعشي، ولحظة في السحر تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ الأعلى، فتظفر بخير الدنيا والآخرة، وأمامك مواسم الطاعات، وأيام العبادات، وليالي القربات التي وجهك إليها كتابك الكريم، ورسولك العظيم ﷺ، فاحرص أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين، ومن العاملين لا من الخاملين، واغتنم الوقت، فالوقت كالسيف، ودع التسويف فلا أضر منه»[1].

أهميه الاجتهاد في يوم الجمعة:

أما بخصوص الأسبوع فليوم الجمعة شرف عظيم، وفيه ساعة يجاب فيها الدعاء، فليحرص كل منا على ألا تفوته تلك الساعة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجمعة لساعة، لا يوافقها مسلم، يسأل الله فيها خيرا، إلا أعطاه إياه»[2].

يقول النووي: «ويُستحب الإكثار من الدعاء في جميع يوم الجمعة، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ رجاء مصادفة ساعة الإجابة، فقد أُختُلِف فيها على أقول كثيرة فقيل: هي بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وقيل بعد الزوال، وقيل بعد العصر، وقيل غير ذلك»[3].

وقال الإمام أحمد: أكثر الأحاديث في الساعة التي ترجى فيها إجابة الدعاء بعد صلاة العصر، وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعي ذلك الوقت، وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها، فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس[4].

فلنجتهد في هذا اليوم ولنضع له برنامجاً خاصاً، ولنبكر فيه بالذهاب إلى المسجد على أحسن هيئه.

عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من غسل واغتسل يوم الجمعة،

---

(١) الرقائق (١٨) نقلاً عن مجله الدعوة (العدد ٨ سنه ١٩٥١).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٣ برقم: ٩٣٥)، ومسلم (٢/ ٥٨٤ برقم: ٨٥٢)، واللفظ له.

(٣) الأذكار للنووي (ص: ١٢٩).

(٤) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٢)، والأثر رواه البيهقي في شعب الإيمان بمعناه (٤/ ٣٩٩ برقم: ٢٧١٦).

وبكر وابتكر، ومشى، ولم يركب فدنا من الإمام، فاستمع، ولم يلغ، كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها»[1].

رمضان شهر الخير:

شهر رمضان أفضل الشهور، يقول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له...»[2]، ففيه تكون الشياطين مصفدة، والأجواء مشبعة بالصلاة والذكر والدعاء والقرآن، وفي مثل هذه الأجواء مع الصيام تسهل قيادة النفس، وتوجيهها لما يحبه الله ويرضاه، فهو وسيلة عظيمة لإيقاظ الإيمان وتقويته، فينبغي أن نستعد له استعداداً جيداً بوضع البرامج المعينة على الاستفادة بكل دقائقه ولحظاته بإذن الله.

تابعوا بين الحج والعمرة:

أخي.. لتكن سياحتنا إلى البيت العتيق، ومسجد النبي ﷺ كلما سمحت ظروفنا وتيسر حالنا، قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإن متابعة بينهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»[3].

من فوائد مواسم الخير:

وأخيراً: فهناك مزية عظيمة لهذه المواسم، تتمثل في أنها يمكن أن تكون نقطة بداية قوية لإيقاظ القلب، وعودة الحياة إليه، وبدأ سيره إلى الله تعالى؛ ففيها يزداد الإيمان بصورة ملحوظة، وتسكن النفس، وتعتاد فعل الطاعات، فينبغي لنا أن لا نضيع هذه الفرصة من بين أيدينا.. والله المستعان.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٦/ ٩٣ برقم: ١٦١٧٣)، وأبو داوود (١/ ٢٥٩ برقم: ٢٥٤)، والترمذى (٢/ ٣٦٧ برقم: ٤٩٦)، وقال: حديث حسن، والنسائي (٣/ ٩٧ برقم: ١٣٨٤)، وابن ماجه (٢/ ١٨٨ برقم: ١٠٨٧)، وابن خزيمة (١٢٨/٣، برقم: ١٧٥٨)، وابن حبان (١٩/٧ برقم: ٢٧٨١)، والحاكم في المستدرك (٤١٨/١ برقم: ١٠٤٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الأرنؤوط.

(٢) رواه أحمد (١٢/ ٤٢١ برقم: ٧٤٥١)، والترمذي (٥/ ٥٥٠ برقم: ٣٥٤٥)، وقال: حسن غريب، وابن حبان (٣/ ١٨٩ برقم: ٩٠٨)، وصححه الأرنؤوط، رغم أنف: التصق بالتراب كنايه عن الذل.

(٣) رواه أحمد في المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١/ ٣٠٣ برقم: ١٦٧)، وابن ماجه (٤/ ١٣٦ برقم: ٢٨٨٧)، وصححه الأرنؤوط.

الفصل العاشر

الصحبة الصالحة

الفصل العاشر
الصحبة الصالحة

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

فمن الوسائل المهمة لإحياء القلب واستمراره في يقظته: وجود البيئة الطيبة، والوسط الصالح، الذي يعين العبد علىٰ تطبيق ما سبق.

إن تيار المادية جارف، وانجذاب الناس إلىٰ الأرض شديد، ولكي يستطيع المسلم أن يقاوم هذا كله ولا يذوب فيه لابد له من وضع يده في يد من يريدون وجه ربهم ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

أخطار السير المنفرد:

فسير العابد إلىٰ الله عز وجل منفرداً، ومحاولته تطبيق ما أشرنا إليه من وسائل متعددة بمفرده له مخاطر كثيرة.

- منها: أن من طبيعة النفس البشرية عدم الثبات علىٰ حال، ففيها إقبال وإدبار، وعزيمة وفتور، وقوة وضعف... ففي حالات الضعف والفتور التي قد تنتابنا يُخشىٰ علىٰ صاحبها الركون إلىٰ الدنيا والتراجع إلىٰ الخلف إذا ما كان يسير بمفرده، أما في حالة وجوده مع إخوانه فإنهم لن يتركوه في مثل هذه الحالة، بل سيقبضون علىٰ يديه، مثبتين إياه علىٰ الطريق، حتىٰ يعود إلىٰ سابق عهده من الهمة والنشاط.
- ومنها: أن الإنسان لا يعرف طبيعة نفسه إلا من خلال الاحتكاك بالآخرين.

يقول محمد قطب: «لا يمكن أن يتم البناء النفسي والأخلاقي الصحيح للإنسان إلا في داخل الجماعة، حيث يبرز الجانب الجماعي من الإنسان بصورة تلقائية؛ بحكم

ضرورة التعامل مع الآخرين، وحيث يمكن للمربي أن يلاحظ أسلوب التعامل، فيقوِّم ما قد يكون فيه انحراف، أو يثبت ما يجده فيه من استقامة، لكي يتأكد وجوده، ولا يكون عرضة للانحراف عندما تضغط الظروف على المشاعر والوجدان... وقد يبدو الإنسان لطيف المعشر، حلو الشمائل حين تلتقي به لأول وهلة لقاءً محدود التعامل، أو لقاءً في فسحة لا تحتك فيه المصالح، ولا تحتاج فيه الذات إلى البروز... ثم تفاجأ به ذا جفوة وغلظة، أو ذا أنانية حادة، أو ذا نزعة إلى التسلط، أو كسولاً لا يتعاون مع الآخرين، حين تجمعك به ظروف تضطر الإنسان أن يكشف عن حقيقة ذاته... خاصة ظروف الضيق والشدة، وهي أشد ما يبرز الإنسان، ومن هنا لا يستطيع المربي أن يعرف طبيعة الشخص الذي يربيه حتى يوجده في جماعة، ويراقب طريقة تصرفه إزاءها، ثُم يُقَوِّم ما يحتاج في نفسه إلى تقويم»[1].

- ومن أخطار السير المنفرد أن صاحبه قد يصبح فريسة سهلة لإبليس وجنوده، فالعبد كلما اقترب من مولاه ازدادت حرب الشيطان وهجماته عليه، فيشن الغارة تلو الغارة.

يقول ابن القيم: «ما أَمَر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد في الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشاقه، فإن وجد فيه تقصيراً أو فتوراً، أو توانياً وترخّصاً، أخذه من هذه الخطة، فثبطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة... وإن وجد عنده حذراً وجِّداً، وتشميراً ونهضة، وآيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد، وسوَّل له أن هذا لا يكفيك، وهمتك فوق هذا، وينبغي أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا فطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعاً، وإذا توضأ للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة، وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه وأن

---

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب (٢/ ٤٠).

لا يقربه... ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم... هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان، وقوة على محاربته، ولزوم الوسط»[1].

- ومن أخطار السير المنفرد: أن الكثير من الوسائل التي أشرنا إليها تحتاج إلى إعانة من الآخرين، وتوفير الجو المناسب لتنفيذها.

أضف إلى ذلك أن الذي يسير بمفرده قد يجد صعوبة في البدء بها في آن واحد، خاصة وأن عليه الكثير من الأعباء الحياتية التي لا يستطيع الانفكاك عنها... من هنا يشتد احتياجه إلى من يرتب أوراقه، ويضع له الطرائق المناسبة لتطبيق هذه الوسائل بصورة متوازنة دون حدوث خلل في حياته.

- ومنها: أن العبد يحتاج إلى تكوين ذاته تكوينا متوازيا يتناول المحور العلمي المعرفي، والمحور الإيماني، والمحور النفسي (تزكية النفس)، والمحور الحركي .. هذه المحاور لابد أن يتم تناولها بطريقة منهجية متدرجة ومتوازنة، مع وجود مرجعية توضح معنى دقيق أشكل عليه، أو تجيب عن تساؤل عنَّ له، أو تريه كيفية صياغة هذه المحاور في واجبات عملية.

فعلى سبيل المثال: من العلوم المهمة التي يحتاجها العبد في الجانب المعرفي: فقه الأولويات ومراتب الأعمال، فبدون معرفته قد يترك العمل الفاضل ويفعل المفضول.

ومثال ذلك: أنه قد يجد راحة نفسية في القيام ببعض العبادات، والتي تُحدِث أثراً مباشراً في القلب، فيشعر بحلاوة الإيمان وقت أدائها، فيزداد اهتمامه بها على حساب أعمال أخرى قد لا يجد فيها قلبه، كمساعدة المحتاج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، ولكن العاقل الذي يعلم خير الخيرين، وشر الشرين»[2].

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٤).

وهذا النوع من العلم يصعب على العبد تحصيله بمفرده، وإن حصَّله فيحتاج إلى من يتابع تطبيقه الصحيح له.

أهمية الصحبة الصالحة في عصرنا الحاضر:

من فوائد الصحبة الصالحة: أنها وإن كانت مهمة وضرورية في كل زمان ومكان لحماية العبد من أخطار السير المنفرد إلا أنها في هذا الزمان أشد ضرورة وأهمية...

لماذا؟!

لأن الأمة قد تحطمت، وصارت أنقاضاً، فالخلافة قد أُلغيت، والكثير من معاني الإسلام قد صارت باهتة في النفوس، وابتعد الناس عن دينهم، وانحرفوا في تصوراتهم وسلوكهم - إلا من رحم الله -.

والمسلم ليس مطالباً بإصلاح نفسه فقط، بل والعمل على إصلاح الآخرين أيضاً، وعليه كذلك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحكيم شرع الله، وإقامة دينه في الأرض.

وهذه كلها واجبات لا تسقط عنه مهما صلى وصام، بل لابد له من السعي لتغيير الواقع، وإقامة دولة الإسلام، وعودة الخلافة، وتحرير ديار المسلمين المغتصبة، وطرد اليهود من فلسطين، وتحرير المسجد الأقصى من دنسهم.

ومن رحمة الله بعباده أن قيَّض لهذه الأمة من الصالحين المصلحين - ولا نزكيهم على الله - ممن وضحت لديهم الرؤية نحو طريق التغيير الصحيح لهذا الواقع، ويقف على رأس هؤلاء الإمام المجدد حسن البنا.

لقد نظر رحمه الله إلى الواقع من حوله، وقام بدراسة مناهج الدعوات الإصلاحية القائمة في زمانه، فوجد أنها تهتم بجوانب وتترك أخرى، وأنها قد تركز على الجانب المعرفي النظري وتترك الجانب العملي التطبيقي، فالانفصال بين العلم والعمل كان بمثابة الحلقة التي شعر بعدم توافرها في مناهج تلك الدعوات.

فخلص بعد دراسته لأحوال الأمة أنه لا صلاح لها إلا بإصلاح الفرد، ولا صلاح

للفرد إلا بالتربية.

يقول في إحدىٰ رسائله: «إن غاية الإخوان تنحصر في تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل علىٰ صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، وأن وسيلتهم تنحصر في تغيير العرف العام، وتربية أنصار الدعوة علىٰ هذه التعاليم حتىٰ يكونوا قدوة لغيرهم في التمسك بها، والحرص عليها، والنزول علىٰ حكمه»[١].

فطريق التربية هو الطريق الصحيح الذي ينهض بالأمة، ويقيلها من عثرتها ... ولم لا؟! والهدف من ورائه تكوين أمة جديدة، جاهد أبناؤها نفوسهم، وانتصروا عليها، فصاروا علىٰ غيرها أقدر.

فمن أقواله: «أيها الإخوان، إنكم في دور التكوين؛ فلا يلهينكم السراب الخادع عن حسن الاستعداد وكمال التأهب، اصرفوا تسعين جزءاً من المائة من وقتكم لهذا التكوين، وانصرفوا فيه لأنفسكم، واجعلوا العشرة أجزاء الباقية لما حولكم من الشؤون، حتىٰ يشتد عودكم، ويتم استعدادكم، وتكمل أُهْبَتُكم، وحينئذ يفتح الله بينكم وبين قومكم بالحق وهو خير الفاتحين»[٢].

ويقول: «إن معركتنا معركة تربوية»[٣].

ويقول: «إن العمل مع أنفسنا هو أول واجباتنا فجاهدوا أنفسكم»[٤].

معنى التربية:

يقول الإمام البيضاوي في تفسيره: «التربية هي تبليغ الشيء إلىٰ كماله شيئاً فشيئاً»[٥].

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد: حسن البنا.

(٢) بيان للإخوان بمحافظة الدقهلية عن مجلة المجتمع الكويتية.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير البيضاوي (١/ ٢٨).

وفي مفردات الراغب الأصفهاني: «هي إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى التمام»[1].

ومن معانيها أيضاً: ترجمة العلم النظري إلى سلوك عملي، فالنظريات العملية تظل حبيسة الورق مالم تجد من يترجمها إلى الواقع العملي.

وهي من أهم مهمات الرسل.

ففي دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والمتأمل لهذا الدعاء يجد إبراهيم عليه السلام قد قدم التعليم على التزكية في دعائه؛ فكلاهما يحتاجه الناس.

وتأتي بعد ذلك الآيات التي تتحدث عن مهام الرسول لتقدم التزكية على التعليم، لتبين أهميتها ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

إن العمل بالعلم يحتاج عند كثير من الناس إلى تعاهد ومتابعة، فلكَم سمعنا من توجيهات، وجلسنا في محاضرات، ومع هذا كله لم يتغير فينا الكثير، لأن أغلبنا لم يجد من يأخذ بيده، ويعينه على العمل بما علم.

فلا يكفي الاقتناع العقلي لتغيير ما بالنفس من رواسب قديمة، وعادات راسخة، ولا يكفي كذلك ممارسة مقتضيات ومظاهر الأخلاق الحسنة مرة أو مرتين لتصير سجية من سجايانا، ولكن لابد بعد هذه القناعة من ممارسة طويلة لهذه الأخلاق؛ كي تدخل منطقة اللاشعور، فتنطلق الأفعال بعد ذلك بصورة تلقائية، وبدون تفكير مسبق، وهذا لن يحدث في يوم وليلة، بل لابد من صبر ومثابرة، وتعاهد ومتابعة.

يقول جودت سعيد: «الأمر لا يقتصر على وجود الفكرة فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تحويل الفكرة إلى إيمان يتدخل في سلوك الإنسان، فوجود الفكرة بشكل أولي

---

(١) أصول التربية الإسلامية للنحلاوي، (ص:١٣).

لا يستلزم إيمان الناس بها إيماناً يظهر في سلوكهم، ويدخل في لا شعورهم، والناس كثيراً ما يتحدثون عن العدل والمساواة، ولكنهم عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية الأكثر عمقاً في داخلهم»[1].

ويؤكد على هذا المعنى محمد قطب، فيقول: «إن أمر الالتزام بالأخلاق الحميدة يحتاج إلى تعويد طويل حتى تصبح عادة تلقائية، ويحتاج إلى عمل دائب لغسل رواسب الجاهلية من النفس، وهي رواسب لا تذوب في لحظة لأنها متشابكة مع خيوط النفس، وداخلة في بنائها، كالبقعة الداخلة في النسيج ربما تغسلها مرة فتذهب، وربما تحتاج إلى غسلات كثيرة حتى تذهب»[2].

ويقول أيضاً: «فالتربية عملية مستمرة، لا يكفي فيها توجيه عابر - مهما كان مخلصاً، ومهما كان صواباً في ذاته - إنما يحتاج الأمر إلى متابعة وإلى التوجيه المستمر.

إن المتلقي نفس بشرية، وليست آلة تضغط على أزرارها ثم تتركها وتنصرف إلى غيرها، فتظل على ما تركتها عليه... نفس بشرية دائمة التقلب، متعددة المطالب، متعددة الاتجاهات، وكل تقلب، وكل مطلب، وكل اتجاه في حاجة إلى توجيه، فالعجينة البشرية عجينة عصية تحتاج إلى متابعة دائمة، وليس يكفي أن تضعها في قالبها المضبوط مرة إلى الأبد وتستقر هناك، بل هناك عشرات من الدوافع الموَّارة في تلك النفس، دائمة البروز هنا والبروز هناك، ودائمة التخطي لحدود القالب المضبوط هنا وهناك، ولابد في كل مرة من توجيه لإعادة ضبطها داخل القالب، حتى تنطبع نفس المتلقي بالتوجيه، فيقوم هو بذاته بعملية المتابعة والتوجيه والضبط... ومن هنا مشقة التربية وخطورتها، وضرورتها في ذات الوقت، فإما الجهد الدائب، وإما الضياع»[3].

محاور التربية:

يقول حسن البنا رحمه الله: «إن الخطب والأقوال والمكاتبات، والدروس

---

(١) كن كابن آدم لجودت سعيد.

(٢) منهج التربية الإسلامية (٢/ ٥٨).

(٣) منهج التربية الإسلامية (٢/ ٨٥).

والمحاضرات، وتشخيص الداء، ووصف الدواء، كل ذلك وحده لا يجدي نفعاً، ولا يحقق غاية، ولا يصل بالداعين إلى هدف من الأهداف، ولكن للدعوات وسائل لابد من الأخذ بها والعمل لها.

والوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل، ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة:

١- الإيمان العميق، ٢- التكوين الدقيق، ٣- العمل المتواصل»[١].

لقد بدأ رحمه الله بالإيمان العميق، واعتبره أول محور من محاور التربية، فالتربية الإيمانية لابد وأن تسبق غيرها، ومستهدفها -كما أشرنا سابقاً- ربط القلوب بالله وحسن الاتصال به.

فإذا ما تم ذلك سهل القيام بالمحاور الأخرى، لأن القلوب إذا صلحت تبعتها الجوارح بالصلاح.

وعندما تصل تلك التربية إلى هدفها، ويحدث الوصال بين القلب وخالقه، يصبح تغيير الظاهر بعد ذلك من السهولة بمكان، بل وتكفيه الإشارة، كما حدث مع الصحابة عند نزول آية تحريم الخمر، وكذلك تحويل القبلة.

أما المحور الثاني من محاور التربية والتغيير فهو: التكوين الدقيق، ومن خلاله يتم بناء الشخصية المسلمة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح «تزكية النفس».

ومن خلاله يتم تحويل النظرة إلى النفس من الرضا إلى الاتهام، ومن ثم يسهل على المرء بعون الله خوض معركته مع نفسه وتطهير قلبه من أمراضها السبعة وما تدل عليه من مظاهر وهي: (حب الدنيا والتعلق بها، الرياء والعمل من أجل الناس، كفران النعم والمعروف، العجب، الكبر، الغرور، اتباع الهوى).

نعم... قد يأخذ هذا الأمر وقتاً قد يبدو طويلاً، ولكن ليس هناك طريق غير ذلك، فالتربية أمر شاق وصعب، وإدراك حقيقة قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»

---

(١) رسالة بين الأمس واليوم (ص: ١٦١).

وتحويلها إلى واقع عملي ومنهج حياة يحتاج إلى جهد كبير يبذله المرء مع نفسه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومما يُسَهِّل علينا بإذن الله القيام بعملية التزكية: قوة الإيمان؛ فمن خلاله تنشأ الرغبة، وتقوى العزيمة، وتعلو الهمة، ويبتعد صاحبها عن جواذب الأرض التي طالما أقعدته عن الوصول إلى المعالي.

والمحور الثالث من محاور التربية، يمكننا أن نطلق عليه مصطلح «التربية الدعوية والحركية»، والهدف منها تربية المسلم وتعويده على بذل الجهد في سبيل الله والتحرك بالدعوة وسط الناس... الدعوة بمفهومها الواسع، من ترغيب الناس في الله عز وجل، وتحبيبهم فيه سبحانه وتعالى.

فتعريف المسلمين بالإسلام، وشموله لجميع مناحي الحياة: دعوة.

والعمل على إقامة الإسلام في حياة الناس: دعوة.

والمطالبة بتحكيم شرع الله وإعلاء رايته: دعوة.

ونصرة المظلوم والسعي في إقامة حوائج الناس: دعوة.

والعمل على نشر الإسلام بين غير المسلمين: دعوة.

فجميع ما يصدر من المسلم يمكن أن يكون له منطلق دعوي، سواء كان ذلك قولاً أو فعلاً.

فمقام الدعوة إلى الله من أفضل المقامات، وصاحبه من أتباع الرسل، يقول تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ويقول صاحب الظلال في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٢ - ٢٣]: «هذه هي القوة الرهيبة التي تملأ القلب بجدية الأمر، أمر الرسالة والدعوة... والرسول ﷺ يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة، إني لن يجيرني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً أو حماية، إلا أن أبلغ هذا الأمر، وأؤدي هذه الأمانة، فهذا هو الملجأ الوحيد، وهذه هي الإجارة المأمونة، إن الأمر ليس

أمري، وليس لي فيه شيء إلا التبليغ، ولا مفر لي من هذا التبليغ، وأنا مطالب من الله، ولن يجيرني منه أحد، ولن أجد من دونه ملجأ يعصمني، إلا أن أبلغ وأؤدي!

يا للرهبة! يا للروعة! ويا للجد!!

إنها ليست تطوعاً يتقدم به صاحب الدعوة، إنما هو التكليف، التكليف الصارم الجازم، الذي لا مفر من أدائه، فالله من ورائه!

وإنها ليست تطوعاً يتقدم اللذة الذاتية في حمل الهدىٰ والخير للناس، إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التفلت منه، والتردد فيه!

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد... إنها تكليف واجب، وراءه الهول، وراءه المجد، وراءه الكبير المتعال»[1].

علاقة المحاور بعضها ببعض:

فهذه هي المحاور الثلاثة للتربية التي من خلالها يتم التغيير بإذن الله، وهي كما نرىٰ ترتكز علىٰ المحور الأول: الإيمان العميق، فمن خلاله يتيسر بعون الله القيام ببقية المحاور.

وليس معنىٰ التركيز علىٰ هذا المحور في البداية إهمال المحاور الأخرىٰ، بل المقصد هو ترتيب الأولويات وإيقاظ الإيمان في القلب أولا ليكون بمثابة الوقود الدافع للقيام بعملية التزكية الطويلة...

وكذلك تحتاج الحركة بالدعوة بين الناس إلىٰ قوة دافعة تدفع صاحبها لتحمل أعباء تلك الدعوة، وهنا تأتي أهمية العمل علىٰ زيادة الإيمان، واستكمال ما قد ينقص منه نتيجة الاحتكاك بالآخرين، ومخالطتهم، والصبر عليهم، وأيضاً نتيجة مقاومة الظالمين، ومواجهة هجماتهم الشرسة، والعمل علىٰ كشف مخططاتهم الرامية إلىٰ زعزعة الإسلام في نفوس أبنائه، والسيطرة علىٰ دياره.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٣٦، ٣٧٣٧).

فإذا ما انعزلنا عن المجتمع، وتقوقعنا على أنفسنا، فلأي مدى ستكون حاجتنا لتجديد الإيمان في قلوبنا ونحن لم نغادر أماكننا؟! ناهيك عن تعرض من يفعل ذلك للحرج الشرعي؛ لتركه واجب الدعوة إلى الله، وبخاصة في هذا الوقت الذي أصبح المسلمون كالأيتام على موائد اللئام.

لقد كان الصحابة ﭫ ومن تبعهم بإحسان يدركون هذا الأمر جيداً، وكانوا ينكرون أشد الإنكار على كل من اعتزل الناس، وتفرغ للعبادة، فلقد بلغ عبد الله بن مسعود ﭬ أن رجالاً خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريباً يتعبدون، فأتاهم ففرحوا بمجيئه، فقال لهم: ما حملكم على صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس، نتعبد، فقال عبد الله: «لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا»[1].

وهناك أمر آخر يُبْرِز أهمية الحركة والجهاد في سبيل الله بشتى صوره، وهو أننا لن نستفيد كثيراً من القرآن إذا قرأناه ونحن بعيدون عن واقع الحياة.

إن القرآن كتاب هداية وشفاء، وفيه الحل المناسب لجميع ما يعاني منه الناس، فأين المعاناة التي يعانيها المنعزل لكي يبحث عن دواء لها في القرآن؟! وبأي روح سيستقبل آيات الابتلاء والصبر والثبات والجهاد؟!

إن هذه الآيات وغيرها لن تقع مواقعها الصحيحة في نفسه؛ لأنه غير معايش لها، بعيد عن تصورها، فكما قالوا: الحكم عن الشيء فرع من تصوره.

من هنا يتبين لنا أنه ينبغي علينا السير في المحاور التربوية الثلاثة في آن واحد، مع العلم بأن كل محور منهم يتضمن الجزء المعرفي الخاص به الذي يشكل القاعدة العلمية المعرفية للمرء.

نعم، قد تسبق التربية الإيمانية أخواتها، ولكن ليس بصفة دائمة، بل بصفة مؤقتة، حتى ترتبط القلوب بالله، وتصبح النية خالصة لوجهه الكريم، ويكون الإيمان هو الدافع

---

(١) الزهد لابن المبارك (برقم: ١١٠٤).

للأعمال، لا الحياء، ولا العادة، ولا رضا الناس، فيثاب المرء عن ذلك على كل فعل يقوم به، مهما كان حجمه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

من فوائد البدء بالتربية الإيمانية:

هناك أمر آخر يبرز أهمية البدء بالتربية الإيمانية وهو أنه كلما ازداد الإيمان ارتفع مستوى الأخوة بين الأفراد، وأصبحت أخوة إيمانية صادقة، وعندما يوجد مثل هذا النوع من الأخوة، فإن من شأنه أن ييسر العملية التربوي، ويعطيها طعماً وشكلاً آخرين.

فعندما وصل الإيمان في قلوب الأنصار إلى الدرجات العُلى كانت أُخوتهم للمهاجرين لا مثيل لها.. يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ومن فوائد البدء بالتربية الإيمانية: تيسير القيام ببقية الواجبات، ولقد كان هذا هو منهج الرسول ﷺ في تربيته لأصحابه.

كان ﷺ يعمل على ربط قلوبهم بالله أولاً، ثم يوجههم بعد ذلك للعمل المطلوب، فكان في كثير من الأحيان يستبق توجيهه بقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» فتذعن القلوب لداعي الإيمان، فتُلقي السمع، وتأخذ أهبة الاستعداد للتنفيذ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيراً»[١].

اقتراحات:

من الأهمية بمكان أن تصبح الصحبة الصالحة بمثابة محاضن تربوية تتبنى تنفيذ

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٦ برقم: ٥١٨٦)، ومسلم (٢/ ١٠٩١ برقم: ١٤٦٨).

المحاور الثلاثة السابقة، ومن الممكن أن تكون تلك المحاضن بين الرجل وزوجته وأولاده، أو بين الأصدقاء والمعارف، وحين يتم أخذ أمرها بقوة فمن المتوقع بإذن الله أن تكون بمثابة مراكز إشعاع إيماني، ومحطات وقود يتزود منها كل من يَرِدها، ويستكمل فيها ما نقص من إيمانه، ويبدأ من خلالها معركة التزكية مع نفسه.

وهذه بعض المقترحات التي قد تساعد على ذلك بإذن الله:

١- هناك الكثير من الوسائل التي أشرنا إليها يشعر الواحد منا وكأن هناك حاجزاً نفسياً يحول بينه وبين تنفيذها؛ إما لعدم ممارستها من قبل، أو لهيبته منها أو ..، وهنا يأتي دور المحاضن التربوية، ففيها يمكن أن يتم تقديم بيان عملي لهذه الوسائل مرة ومرة حتى تزول الرهبة، وينكسر الحاجز النفسي، ويستشعر الجميع مدى النفع الذي عاد عليهم نتيجة قيامهم بها.

فشدة الخوف من الله – على سبيل المثال – يمكن للمحاضن أن تساعد على زيادته في القلوب من خلال تيسير القيام ببعض الوسائل العملية، كالذهاب إلى المقابر، وزيارة المستشفيات، وشراء الأكفان، ومتابعة كتابة الوصية والأمنيات.

وفيها يمكن للفرد أن يتعلم كيف يحصي ذنوبه، وكيف يتفكر في مجالات الخوف، مع وضع ذلك كله في برنامج يقوم به الشخص مع نفسه وفي بيته، مع متابعته في تنفيذه.

وحُسن التعامل مع القرآن كذلك يحتاج إلى المحاضن، فعلى سبيل المثال يتم فيها اختيار موضوع من الموضوعات الإيمانية – كالتي سبق ذكرها في فصل «حُسن التعامل مع القرآن» – ويُطرح بشكل واضح، مع ضرب أمثلة عملية من القرآن، ثم يُطلّب من الحاضرين استخراج الآيات التي لها علاقة بالموضوع في سورة من السور، وشيئاً فشيئاً سيتعود الجميع على استخراج مثل هذه الآيات في تلاوتهم اليومية..

وهكذا في بقية وسائل إيقاظ القلب السابقة.

٢- ترتيب برامج للاستفادة من المسجد، والأوقات الفاضلة، ومواسم الخير، ومثال ذلك: وضع برنامج للاستفادة من ليلة الجمعة ويومها، وتحري ساعة الإجابة فيه،

فيبدأ الواحد منا ليلته بالإفطار عند مغرب الخميس، وبعد صلاة العشاء يقرأ ورده من القرآن، ثم يجلس مع نفسه ليتذكر ساعة الاحتضار وما يتلوها من أحداث، ثم يتبع ذلك بالاستغفار وصلاة التوبة، ولينم علىٰ وضوء مردداً أذكار النوم، ليستيقظ قبل الفجر بوقت كاف للتهجد والتضرع، والاستغفار لله عز وجل، ثم يتوجه إلىٰ المسجد ليصلي الفريضة، وليمكث فيه ذاكراً لله عز وجل حتىٰ طلوع الشمس، فيصلي الضحىٰ، وينصرف إلىٰ منزله ليستريح قليلاً، ثم يغتسل غسل الجمعة، ويتطيب ويلبس الثوب المعد لها، ثم يتوجه إلىٰ المسجد قبل الصلاة بوقت طويل قدر المستطاع... ويحرص كذلك علىٰ الوجود في المسجد في الساعة الأخيرة من اليوم وقبل صلاة المغرب، يدعو الله عز وجل فيها، ويردد أذكار المساء، ويكثر من الصلاة والسلام علىٰ رسول الله ﷺ والتسبيح.

مثل هذا البرنامج كفيل بأن يجدد الإيمان في القلب إذا ما تم الاستمرار عليه بعون الله.

٣- ومن المقترحات أيضاً لهذه المحاضن المباركة: العمل المستمر علىٰ ضبط الفهم الصحيح للأفراد، كيلا يحدث تشدد ومغالاة عند البعض منهم، والضابط لذلك هو هدي الرسول ﷺ.

يقول ابن رجب: «إن أحب الأعمال إلىٰ الله ما كان علىٰ وجه السداد والاقتصاد والتيسير، دون ما كان علىٰ وجه التكلف والاجتهاد والتعسير، كما قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد أنكر النبي ﷺ على من عزم التبتل والاختصاء، وقيام الليل، وصيام النهار، وقراءة القرآن كل ليلة، وقال: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)]، وقال ﷺ: «سددوا وقاربوا وأبشروا»[(٢)].

والمراد من التسديد العمل بالسداد، وهو القصد والتوسط في العبادة، فلا يقصر فيما أُمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه... والمراد من التوسط بين الإفراط

(١) رواه البخاري (٧/ ٢ برقم: ٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠ برقم: ١٤٠١).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٩٨ برقم: ٦٤٦٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧١ برقم: ٢٨١٨).

والتفريط... وقوله ﷺ: «وأبشروا» يعني أن من مشى في طاعة الله على التسديد والمقاربة فليبشر، فإنه يصل ويسبق الدائب المجتهد في الأعمال، فإن طريق الاقتصاد والمقاربة أفضل من غيرها، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، فمن سلك طريقه كان أقرب إلى الله من غيره، وليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنية، ولكن بكونها خالصة لله عز وجل، صواباً على متابعة السنة، وبكثرة معارف القلوب وأعمالها، فمن كان بالله أعلم وبدينه وأحكامه وشرائعه، وله أخوف وأحب وأرجى فهو أفضل ممن ليس كذلك، وإن كان أكثر منه عملاً بالجوارح... ولهذا قال بعض السلف: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه لأصحابه: «أنتم أكثر صوماً وصلاة من أصحاب محمد ﷺ وهم كانوا خيراً منكم»، قالوا: وبم ذاك؟!، قال: «كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب في الآخرة»[1]، يشير إلى أن الصحابة رضي الله عنهم فاقوا على من بعدهم بشدة تعلق قلوبهم بالآخرة، ورغبتهم فيها، وإعراضهم عن الدنيا بتحقيرها وتصغيرها، وإن كانت في أيديهم، فكانت قلوبهم منها فارغة، وبالآخرة ممتلئة، وهذه الحال ورثوها من نبيهم ﷺ، فإنه كان أشد الخلق فراغاً قلبه من الدنيا، وتعلقاً بالله والدار الآخرة، مع ملابسته للخلق بظاهره، وقيامه بأعباء النبوة وسياسة الدين والدنيا، وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده، وكذلك أعيان التابعين لهم بإحسان كالحسن وعمر بن عبد العزيز، وقد كان في زمانهم من هو أكثر منهم صوماً وصلاة، ولكن لم يصل إلى قلبه إلى ما وصلت إليه قلوب هؤلاء، من ارتحالهم عن الدنيا وتوطنها في الآخرة.

...فأفضل الناس من سلك طريق النبي ﷺ وخواص أصحابه في الاقتصاد في العبادات البدنية، والاجتهاد في الأحوال القلبية؛ فإن سفر الآخرة يقطع بسير القلوب، لا بسير الأبدان»[2].

٤- البداية الربانية لمجالس التربية: فمن خلالها ينتقل الجميع من صخب الدنيا

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٠ برقم: ٧٨٨٠).

(٢) المحجة في سير الدلجة لابن رجب (ص: ٤٦ – ٥٧ بتصرف).

ومشاغلها إلىٰ الملأ الأعلىٰ والتطلع إلىٰ السماء.

فلو استشعر الحاضرون أن باب التوفيق الإلهي مغلق بما أحدثوا من ذنوب، وبما قصروا فيه من حقوق، وأنهم بحاجة إلىٰ فتحه لتصيبهم الرحمات الربانية، ويوفقوا إلىٰ ما يحبه الله ويرضاه، لو استشعروا ذلك ثم طُلِب منهم الاستغفار والصدقة، والصلاة علىٰ الرسول ﷺ لسارعوا إلىٰ التنفيذ، ولدعوا الله بصدق أن يفتح عليهم أبواب فضله ورحمته، وألا يخذلهم ويكلهم إلىٰ أنفسهم طرفة عين، ولسألوه الجنة، ولاستعاذوا به من النار.

فهذه الأمور وغيرها – إذا ما تمت المواظبة عليها – من شأنها أن تهيئ القلوب والعقول والأسماع لحسن الفهم والتلقي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٢].

ويكفي في فضل هذه البداية استدعاؤها للملائكة لحضور هذه المجالس المباركة، قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض فُضُلاً عن كُتَّاب الناس، يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلىٰ حاجاتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلىٰ السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً، فيقول: فما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها، فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبةً، قال: فمم يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول الله: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة، فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، فيقول: هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم»[(١)].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٢/ ٣٨٩ برقم: ٧٤٢٤) واللفظ له، والبخاري (٨/ ٨٦ برقم: ٦٤٠٨)، ومسلم: (٤/ ٢٠٦٩ برقم: ٢٦٨٩).

٥- دوام التذكير بالجنة وما فيها من نعيم، وتشويق القلوب إليها، وربط الأحداث بها، والمقارنة الدائمة بين نعيمها ونعيم الدنيا، وأنه لا نسبة بينهما، فالدنيا مهما صفت للإنسان وخلت من كل كدر وهم وحزن وقلق فإنها إلى زوال، فما ظنك بها وهذه الأكدار مصاحبة لها لا يخلو منها أحد من الناس، أما الجنة فأهلها: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٨] ..

لا يهرمون، ولا يموتون، ولا يمرضون... ليس فيها هم ولا غم ولا نكد، ولا خوف من غائب ينتظر ..

الكل في سعادة لا حدود لها... يتنعمون بما لا يخطر على قلب بشر: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

قصور لم تر العين مثلها، وتعجز مفردات اللغة عن وصفها؛ لأن جميع تصوراتنا تنطلق مما شاهدناه في الحياة الدنيا، والتي بكل ما تحتويه من زينة لا تساوي عند الله جناح بعوضة...فأي روعة، وأي جمال ستكون عليه قصور الجنة، وأنهارها، وثمارها، وطعامها، وشرابها، وحورها؟!

يقول رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٣٠]»[(١)].

فهل لنا أن نحلم بأن عز وجل قد منَّ علينا بدخولها؟!

.. فيها سننظر - بمشيئة الله وفضله ورحمته - إلى وجهه سبحانه، يقول رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»[(٢)].

أي سعادة تلك التي سيشعر بها العبد وهو ينظر إلى وجه مولاه جل جلاله؟!

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١١٩ برقم: ٣٢٥٢)، ومسلم (٤/ ٢١٧٥ برقم: ٢٨٢٦) عن أبي هريرة ﷺ.
(٢) رواه مسلم (١/ ١٦٣ برقم: ١٨١).

سنوات طويلة يدعوه ويناجيه ويتضرع إليه وهو لا يراه، ثم يأتي موعد اللقاء: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

.. وفي الجنة - بإذن الله - سنلتقي بالحبيب المصطفى ﷺ، الذي طالما صلينا وسلمنا عليه، وتذكرنا سيرته... فما أكثر اللحظات التي مرت علينا، وازداد فيها شوقنا إلى رؤيته.

هناك سنراه، ونجلس معه، ونستمع إليه هو وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة الكرام، والتابعين، والمجاهدين، والعلماء، والشهداء الذين طالما قرأنا وسمعنا عنهم.

فإن قال قائل: وهل لأمثالنا - إذا ما دخلنا الجنة - أن نجلس مع هؤلاء الأخيار؟!

يجيب القرآن على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

فاطلب فيها ما تريد، وسيلبى طلبك، وتجلس مع من تحب.

.. وفي الجنة سيجتمع شمل الأسرة الصالحة: الأب، والأم، والأولاد، والأحفاد ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

.. في الجنة حين يشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، فماذا يحدث؟!

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، قال: فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعاً، فيقول أحدهم لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا»[1].

.. وفيها - بمشيئة الله ورحمته - سنرى الطغاة والظالمين وهم في النار يُعذبون... سنرى فرعون وهامان، وكل باغ وظالم اشترى دنياه بآخرته، سنرى الذين ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ [الفجر: ١١ - ١٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (برقم: ٢٣٤).

.. إن دوام التذكير بالجنة وما فيها من نعيم من شأنه — بإذن الله — أن يعيننا على استباق الخيرات والجد والاجتهاد: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومن شأنه أيضاً أن يعيننا على الصبر على ما نلاقيه من ضغوط ومحن ونحن نسير في طريقنا إلى الله عز وجل، ويجعلنا كذلك في شوق وحنين للعودة إلى دارنا الأولى:

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونُسَلَّمُ؟

ولقد كان رسول الله ﷺ يذكر أصحابه دائماً بالجنة، ويقارن بين نعيمها وبين نعيم الدنيا ليبين حقارة الدنيا الفانية، فعن البراء رضي الله عنه قال: أُهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير، فجعلوا يعجبون من لينه، فقال رسول الله ﷺ: «لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل من هذا»(١).

فمن تذكر الجنة ونعيمها هانت عليه الدنيا.. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة، رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله تبارك وتعالى له: «اذهب فادخل الجنة»، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: «يا رب، وجدتها ملأى»، فيقول الله تبارك وتعالى له: «اذهب فادخل الجنة»، قال: فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: «يا رب، وجدتها ملأى»، فيقول الله له: «اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها — أو إن لك عشرة أمثال الدنيا —»، قال: فيقول: «أتسخر بي – أو أتضحك بي – وأنت الملك؟»، قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، قال: «فكان يقال: ذاك أدنى أهل الجنة منزلة»(٢).

وسأل موسى عليه السلام ربه، «ما أدنى أهل الجنة منزلة»، قال: «هو رجل يجيء بعد ما

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١١٨ برقم: ٣٢٤٩)، ومسلم (٤/ ١٩١٦ برقم: ٢٤٦٨).

(٢) رواه البخاري (٨/ ١١٧ برقم: ٦٥٧١) ومسلم (١/ ١٧٣ برقم: ١٨٦).

أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم، فيقال له: أترضىٰ أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب»[1].

هذا هو حال أدنىٰ أهل الجنة منزلة، فهل من مشمر للجنة؟!

عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي- ورب الكعبة — نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة في مقام أبد، في حبرة ونضرة، في دار عالية سليمة بهية قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله. قال: قولوا: إن شاء الله»[2].

«فواعجباً لها كيف نام طالبها، وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها؟! وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟! وكيف قر لمشتاق القرار دون معانقة أبكارها؟! وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟! وكيف صُرِفت عنها قلوب أكثر العالمين؟! وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟!»[3].

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٧٦ برقم: ١٨٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٥/ ٣٨٠ برقم: ٤٣٣٢)، والبزار (٧/ ٤٣ برقم: ٢٥٩١)، وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ برقم: ٧٣٨١)، وحسنه الضياء المقدسي في المختارة (٤/ ١٣٢ برقم: ١٣٤٣)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨٤).

(٣) حادي الأرواح لابن القيم (ص:٧).

خاتمة

أخي..

إن المداومة على فعل ما سبق من وسائل، مع دوام الاستعانة بالله عز وجل، من شأنه أن يضع صاحبه على بداية الطريق الصحيح، منتظراً فضل الله ومِنَّته، وفتحه لمغاليق قلبه.

فالخير فضل من الله، يؤتيه سبحانه لمن يرى في قلبه صدقاً ورغبة أكيدة في طلبه، كما قال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالعبرة بما في القلوب ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

لذلك كان من أسباب إجابة الدعاء الإلحاح وعدم العجلة، بل وتكراره أكثر من مرة بتضرع، فهذا كله يعكس صدق الداعي، ورغبته الشديدة فيما يدعو به.

يقول ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعطه، ومن يتق الشر يوقَّه»[1].

فالمتأمل لهذا الحديث يجد أنه ﷺ لم يقل: ومن يتحر الخير يجده؛ لأن الخير محض فضل من الله عز وجل، يعطيه لمن يتحراه ويأخذ بأسبابه، لذلك نجد الكثير من التوجيهات النبوية التي تصب في هذا المعنى، فمن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله.

وما يحدث في صلاة الاستسقاء من إظهار الذل والخضوع والمسكنة لله عز وجل ما هو إلا ترجمة عملية لهذا المعنى، لذلك كان الصحابة ﷺ يتواصون فيما بينهم في المواقف الصعبة بأن يُروا الله من أنفسهم خيراً.

فالعطاء الإلهي له علاقة وثيقة بما في القلوب من صدق ورغبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الحلم (برقم: ٤)، والخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٤ عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٤٢).

فالصبر – على سبيل المثال – من عند الله كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧].

ولكن كيف نستجلبه؟!

يقول ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله...»(١).

فلا بد من تحرى أسباب الصبر وتكلفها، والمداومة عليها، وانتظار فضل الله وعطائه.

... وإلى أن يحدث الوصال، ويُفتح الطريق بين القلب وخالقه؛ علينا ألا نيأس من الوصول إلى الهدف، وألا تفتر عزائمنا، بل نجتهد أكثر وأكثر، لنكون — بإذن الله — في طريق استجلاب رحمته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦ – ١٥٧].

ففي لحظة ما سيجد الصادق المجتهد منا كنزه، وستدب الحياة في قلبه، فيشعر به قلباً آخر غير الذي كان يعهده طيلة عمره.

عندئذ تكون اليقظة والانتباه، فينظر هذا السعيد حوله فيجد أن الكثير قد فاته، فيشمر عن ساعد الجد والاجتهاد، ويبدأ في السير إلى الله محاولاً اللحاق بالركب، وكلما قطع مسافة وجد أمامه الكثير من الكنوز التي كان غافلاً عنها من قبل؛ فيشتد أسفه على ما مضى من سنوات طوال كان فيها من المغبونين، الذين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

سيعيش في حياة أخرى غير التي يحياها الناس، فقلبه معلق بالسماء، ليس فيه إلا حب الله ومن والاه.

ستصغر بإذن الله الدنيا في عينه، وستُطرد من قلبه، فلا يلهث وراءها، ولا يتنافس عليها مع أحد.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٢/ ١٢٢، برقم: ١٤٦٩)، ومسلم (٢/ ٧٢٩ برقم: ١٠٥٣).

ستملأ قلبه السكينة والطمأنينة، وسيرضىٰ بقدر الله عز وجل.

سيصبغ الإحسان علاقته بجميع من حوله، وستتحسن علاقته بوالديه وزوجته وأولاده وأقاربه وجيرانه وكل من يعرفه.

وسيشعر بعلاقة خاصة تربطه بالكون وما فيه.

تزكو أخلاقه، وتتغير معاملاته، ويقل خوفه علىٰ أولاده ومستقبلهم المادي، وسيعمل علىٰ تأمين مستقبلهم الحقيقي، بحسن تربيتهم علىٰ الإسلام والخوف الدائم من الله.

سيحيا الحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده وأولياءه، وسيحرص علىٰ وقته، فلن تراه يسمح بذهابه دون الانتفاع به، وسيجتهد في الدعوة إلىٰ الله غاية وسعه، وسيزداد حرصه علىٰ الجهاد ونيل الشهادة.

سيشعر بأنه يزداد قرباً من مولاه يوماً بعد يوم، وسيجد للإيمان طعماً، وللذكر حلاوة، وللقرآن طلاوة، وسيردد: لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم لحاربونا عليه.

وبإذن الله سيتنزل عليه وعلىٰ إخوانه – من أمثاله – نصر الله عز وجل، وما ذلك علىٰ الله بعزيز، فقد وعد سبحانه وتعالىٰ عباده بذلك شريطة تحريهم أسباب ذلك النصر، والتي من أهمها حسن صلتهم به وانتسابهم إليه ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥ – ١٠٦].

وأخيراً...

فيا أخي الحبيب:

لعلك بِجِدِّك واجتهادك، وصدقك مع ربك، تجد قلبك، وتعثر علىٰ كنزك، فلا تنس كلما قرأت هذه السطور الدعاء لكاتبها بالمغفرة والرحمة، والهدىٰ والسداد، وحسن الخاتمة، فذنبه كبير، وهو علىٰ خطر عظيم إن لم تتداركه رحمة ربه – جلّ وعلا–.

وصلِّ اللهم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الباب الأول

لماذا الإيمان أولا؟

الباب الثاني

كيف نبدأ بالإيمان؟

الفصل الأول

شدة الخوف من الله عز وجل

الفصل الثاني

حُسن التعامل مع القرآن الكريم

الفصل الثالث

تعظيم أمر الصلاة بإدراك حقيقتها والاجتهاد في إقامتها

الفصل الرابع

الفكر والذكر

الفصل الخامس

مداومة الإنفاق في سبيل الله

الفصل السادس

قيام الليل والتضرع بالأسحار

الفصل السابع

الصيام

الفصل الثامن

التعلق بالمساجد

الفصل التاسع

اغتنام مواسم الخيرات والأوقات الفاضلة

الفصل العاشر

الصحبة الصالحة

رقم الإيداع

٢٠٠٠/٥٧٣٩

الترقيم الدولي

977-265-300-1